

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ

غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ

عَلَدٌ بِمَنْدُوبَةِ الْبَغْدَادِ

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله
وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ * من المؤمنين رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما
بدلوا تبديلا ﴾ * ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن
شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾ * ورد الله الذين كفروا
بغيبظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله فويا عزيزا
* وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في
قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ * وأورثكم أرضهم
وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطغوها وكان الله على كل شيء
قديرا ﴿ .

(قرآن كريم)

كان رسول الله ﷺ — قد ذهب إلى بنى النضير في نفر من أصحابه ، وكان بنو النضير قد أضمروا الغدر به وهموا بإلقاء صخرة عليه وقالوا لهما بينهم :

— نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة فنبيعهم من قريش .
وبلغ رسول الله ﷺ — ما هموا به فرجع ، فبينما بنو النضير يتهاونون لإلقاء الحجر إذ جاء رجل من اليهود من المدينة فقال لهم :

— ما تريدون ؟

— قتل محمد وأسر الدين معه .

— أين محمد ؟

— هذا محمد .

— والله لقد تركت محمدا داخل المدينة .

فأسقط في أيديهم وقالوا :

— قد أخير بأمرنا .

فأرسل إليهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تسكنوني بها ، فقد هممت بما هممت به من الغدر .

فسكتوا ولم يقولوا حرفا ، قال :

— ويقول لكم قد أجلتكم عشرا ، فمن روى بعد ذلك ضربت

عنقه .

نقض يهود بنى النضير العهد وخفروا الذمة بما يتوا من غدر لرسول الله ﷺ ، فأصدر عليه السلام حكمه عليهم بالخلاء من جواره ، فتشاوروا مع رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول ، وانتهى قرارهم إلى العصيان والتأهب للحرب فتجهزوا وتحصنوا في حصونهم ، وأرسل زعيمهم حبي بن أخطب إلى الرسول قائلا :

— إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فسار إليهم جيش المسلمين وحاصروهم حتى أجهدهم الحصار ، فأرسلوا من يقول لرسول الله ﷺ :
— نحن نخرج من المدينة .

فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم ، وأن يحملوا من متاعهم وأموالهم ما تستطيع الإبل حمله عدا أسلحتهم فلا يأخذون منها شيئا .

وخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام ، وكان من أشرفهم ممن سار إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحبي بن أخطب ، فقال رسول الله ﷺ :

— هؤلاء في قومهم بمنزلة بنى المغيرة في قريش .

وكانت بنو النضير صفيا لرسول الله ﷺ ، خالصة له حُبسا لنوائيه ، لم يخمسها ولم يُسهم منها لأحد ، إلا أنه أعطى ناسا من أصحابه ووسع في الناس ، فكان ممن أعطاه رسول الله ﷺ من المهاجرين أبو بكر الصديق أعطاه بئر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جرم ، وعبد الرحمن بن عوف سوالة ، وصهيب بن سنان الصراطة ، والزبير بن العوام وأبو سلمة بن عبد الأسد البؤيلة ، وسهل ابن حنيف وأبو دجانة مالا يقال

له مال ابن حرشة . ولما أجلى رسول الله — ﷺ — بنى النضير قال :
— امضوا فإن ذلك أول الحشر وأنا على الأثر .

واستقر أشراف بنى النضير وساداتهم في خير وفي قلوبهم مرض مما نزل
بهم على يدى رسول الله — ﷺ — ، فما استطاعوا أن ينسوا يوماً أنه
أخرجهم من ديارهم ، ففكروا في أن يخرجوا إلى قريش وإلى قبائل العرب
ليحزبوههم على رسول الله — ﷺ — . ويزينوا لهم قتال المسلمين واستئصال
شأنهم قبل أن تشتد سواعدهم ويضعوا أيديهم على بلاد العرب جميعاً .
فانطلق نفر من أشرافهم ووجوههم منهم سلام بن أبى الحقيق وحسي بن
أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وهوذة بن قيس الوائلى وأبو عمار
الوائلى في نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل حتى قدموا مكة ، فهرعت
قريش لاستقبالهم والخفاوة بهم . وفي دار الندوة دارت المفاوضات ودعا
أشراف بنى النضير سادات قريش إلى حرب رسول الله — ﷺ —
وقالوا :

— إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

عداوة بدت من أفواههم وما تخفى قلوبهم أكبر ، ودعوة محبة إلى
قلوب أعداء محمد — ﷺ — من وجوه قريش وساداتها ، ولكن ذلك
الدين الذى جاء به ابن عبد الله كان يشغل عقول القوم فلم يلبوا الدعوة إلى
الحرب دون نقاش ، بل قالوا :

— يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا يختلف فيه

نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟

كان أشراف اليهود ووجوههم يرون رأى العين الأصنام التى كانت
حول الحرم ، وكانوا يعلمون أن جوف أول بيت وضع للناس قد كدست

فيه تماثيل آلهة كل شعوب الأرض وصار مخزنا للشرك بعد أن كان منارة للتوحيد ، وعلى الرغم من كل ذلك قال أهل الكتاب الأول دون خجل : — بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

بالسخرية ١ أصحاب الكتاب الأول وحلة رسالة التوحيد يزعمون أن الوثنية خير من دعوة تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، إنها ضلالة تستحق اللعن وقد لعنهم الله من فوق سبع سموات : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ﴿ (١) .

وسر قريش قول اليهود ودب النشاط فيهم وراحوا يتأهبون للحرب ، فاجتمعوا في دار الندوة وراح حكيم بن حزام وأبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وبنو المغيرة يدبرون للقضاء على نبي الإسلام والمسلمين . وخرج كنانة بن أبي الحقيق يسعى في بني غطفان ويحرضهم على قتال رسول الله ﷺ — على أن لهم نصف ثمر خيبر ، وأعلمهم أن قريشا قد بايعوهم على ذلك فأجابهم عيينة بن حصن الفزاري وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل إليهم طليحة بن أسد فيمن أطاعه . وخرج من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا وقد ألصقوا أكبادهم

بالكعبة معلقين بأستارها ، أن لا يخلد بعضهم بعضا ويكونوا كلهم يدا
واحدة على محمد — ﷺ .

وعقد اللواء في دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وقد ملأ
الفيظ قلبه ، فأبوه طلحة قتل يوم أحد ، وكذا عمه عثمان بن أبي طلحة
وأبو سعيد بن أبي طلحة ، وإخوته الأربعة وهم مسافح بن طلحة والحريث
ابن طلحة وكلاب بن طلحة والجلال بن طلحة ، وكان يتحرق شوقا
للقاء المسلمين ليثأر لأهله ، وبات يتمنى أن يقتل على بن أبي طالب الذي
أذاق الأعزة المنون .

وخرجت قريش يقودهم أبو سفيان بن حرب وقد جمعوا أحابيشهم
ومن تبعهم من العرب ، وكانوا أربعة آلاف ومعهم ثلاثمائة فرس وألف
بعير . انطلقوا حتى نزلوا مر الظهران فجاءهم من أحابهم من بنى سليم
وهم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية .
وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدي ، وخرجت غطفان
وفزارة معهما ألف بعير يقودهم عيينة بن حصن بن حذيفة ، وخرجت بنو
مرة وهم أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري ،
وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعر بن ربيعة بن ثوير بن
طريف ، وخرج معهم غيرهم .

وكانت الأحزاب عشرة آلاف وهم ثلاثة عساكر وملاك أمرها لأبي
سفيان . وبدأ الزحف إلى المدينة وما من أحد من الخارجين يشك في أنها
جولة واحدة ثم يصبح الإسلام والمسلمون كأمس الدابر ، فما كان لهم أن
يصمدوا لصناديد قريش وفرسان العرب المتعطشين للدماء .

كانت خزاعة تميل إلى رسول الله — ﷺ — وكان مسلمهم وكافرهم

يحببه عليه السلام . فلما عميأت قريش للخروج انطلق ركب من خزاعة قاصدا المدينة ، وراح الرجال يُفدون السير حتى بلغوا مسجد الرسول في أربع ليال فدخلوا عليه وأخبروه خبر سادات بنى النضير ودعوتهم قريشا وقبائل العرب لحرب رسول الله ﷺ ، وخروج أبي سفيان لاستئصال الإسلام والمسلمين . فلما سمع رسول الله ﷺ دعا الناس وأخبرهم خبر عدوهم وقال لهم :

— هل نبرز من المدينة أو نكون فيها ؟

وأسقط في أيدي الناس ؛ إنهم أشاورا عليه بالخروج يوم أحد وأكرهوه عليه فكانت الهزيمة التي منوا بها . وتعنى الأنصار والمهاجرون لو أن الله أوحى إلى رسوله بما يفعله وجحافل قريش والعرب يتقدمون ليطلعنوا الإسلام طعنة قاضية . ولم تذهب نفوس المؤمنين شماعا فقد كانوا على ثقة بأن الله ناصر من ينصره وأن الله موهن كيد الكافرين .

عشرة آلاف مقاتل يزحفون وقلوبهم تفيض بالحق على نبي الإسلام والمسلمين ، فقد هجم المسلمون على غطفان حلفاء قريش لما أرادوا أن يتحركوا للثأر لسادات قريش الذين جادلوا يوم بدر ، ومشوا إلى بنى سليم وأجبروهم على أن يتحصنوا في الدور ، وطردهوا يهود بنى النضير لما أضمرُوا من عداوة وغدر ؛ رجال بنشدون الخلاص من المتاعب التي أطلت عليهم من المدينة بعد أن هاجر إليها محمد وصحبه وألف بالدين الجديد بين قلوب عاشت على مر الزمن متنافرة قد ألفت بينهم العداوة والبغضاء ! وثلاثمائة فارس يمتطيها فرسان تحت إمرة خالد بن الوليد قد عزموا على أن يخالوا نصرا مثل ذلك النصر الذي أحرزوه يوم أحد ، وآلاف الدروع تعكس أشعة الشمس فتملأ قلب أبي سفيان آملا بالنصر المبين .

عرف محمد — ﷺ — فضل الفرسان في المعارك فأنشأ مراكز للإكثار من نسل الخيول ، بيد أن المدة بين أحد وبين هذه المعركة لم تكن كافية لتمده بكل ما يحتاج إليه جيش المسلمين من جياذ . إنه يمتلك خمسين فرسا وما كان يمتلك يوم أحد غير فرسين ، ولكن ماذا يفعل محسون فارسا من المؤمنين أمام ثلاثمائة فارس من صناديد قريش و غطفان و بنى سليم و يهود بنى النضير ؟ .

وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في المدينة يرقب فرصته ليسدد إلى قلب الإسلام ضربة قاضية . ترى لو خرج رسول الله — ﷺ — لحرب الأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال المسلمين أبغف ابن أبي المنافقون يشاهدون المعركة دون أن يطعنوا المسلمين من الخلف ؟ و يهود نبي قريظة الذين بقوا في المدينة والذين عاهدوا رسول الله — ﷺ — على أن يشتركوا معه في الدفاع عن المدينة ، أيوفون بعهدهم ويقومون بإخلاص في الدفاع عن المدينة حتى لو ساءت الأمور ، وقد وقر في أذهانهم أن نبي الإسلام قد طرد من جواره بنى قينقاع و بنى النضير أقوى قبائل يهود ؟

والمسلمون الذين ذاقوا طعم الهزيمة في أحد ، أكانوا قادرين على أن يستعيدوا الثقة في أنفسهم وأن يواجهوا ثلاثة آلاف مقاتل منهم عشرة آلاف من صناديد العرب الذين يأكل الحقد أكبادهم ؟

كان الخروج من المدينة للقاء هذه القوة الهائلة التي لم تكن أرض العرب قد عرفتها من قبل مخاطرة لا تحمد مغبتها ، وكان الواجب هو الدفاع عن المدينة ، وما كان ذلك أمر سهلا ، فدور المدينة ملتصقة ببعضها ببعض إلى مسافة طويلة فهي سور منيع ، والحدود الشمالية يحرسها حائط جرف

منحدر ، وبنو قريظة آخر قبيلة يهودية باقية في المدينة تحرس مؤخرة المدينة فهم ينزلون في حصن منيع ينفي أن يذك قبل أن يستطيع عدو اجتيازه . وكانت المعضلة المباشرة هي جنوب المدينة المكشوف ، والجنوب الشرق وهو الجانب الذي تنطلق فيه الطرق إلى حدائق المدينة ، وما أيسر أن يخترق العدو هذا الجزء وأن يتدفق منه إلى المدينة إذا ما شن عليه هجوما شديدا فتتهدد في لحظة كل التحصينات الأخرى !

وفكر المسلمون وأجهدوا عقولهم لرسم خطة الدفاع عن المدينة فأعيتهم الخيل ، فلن يستطيع خمسون فارسا أن يصدوا هجوم ثلثمائة فارس ، ولن يقدر ثلاثة آلاف مقاتل أن يوقفوا زحف عشرة آلاف مجهرين أحسن تجهيز .

وكان سلمان الفارسي في المسلمين يهكر مع المفكرين ، وكان في قرارة نفسه راضيا متفرحا في الله فقد عاونه رسول الله ﷺ — والمسلمون على أن يتحرر من رقه فصار حرا طليقا كما كان في بيت أبيه قبل أن يخرج للبحث عن الحقيقة . وأضاء الله ذهنه بالفكرة التي أضنت كل الرعوس ، فتقدم إلى رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقتنا علينا . اقترح سلمان الفارسي حفر خندق عميق واسع على طول الجهة المفتوحة من المدينة ، وكان ذلك شيئا جديدا على العرب فقد اعتادوا أن يبرز رجل لرجل وأن يقاتلوا يدا ليد ، أما أن يضربوا حول المدينة خندقا فما عزموا ذلك من قبل . وقد كره بعض المسلمين الرأي وحسبوه ضربا من الجبن ، لكن رسول الله ﷺ — قبله فاقنع الناس به . وركب رسول الله ﷺ — فرسا له ومعه عدة من المهاجرين

والأنصار وخطط مكان الخندق ، واستعار المسلمون من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرارين ومكاتل وراحوا يعملون في حفر الخندق في جد وسلمان الفارسي يقدم إليهم نصائحه ، فقد كان عليهم أن ينتهوا منه قبل أن يقدم إليهم أبو سفيان بن حرب والأحزاب الذين تعاهدوا على استئصال الإسلام والمسلمين .

وراح المنافقون يحاولون أن يثبطوا الناس عن رسول الله ﷺ ، فجعلوا يقولون لإخوانهم :

— ما محمد وأصحابه إلا أكلة^(١) رأس ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، دعوا هذا الرجل فإنه هالك .

وأرسل اليهود إلى المنافقين وقالوا :

— ما الذي يحميكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه ؟ فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا ، وإنا لنشفق عليكم . أنتم إخواننا وجيراننا هلم إلينا .

فأقبل عبد الله بن أبي وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه وقالوا :

— ما ترجون من محمد ؟ هو الله ما يرقدا (يعيننا) بخير وما عنده خير .. ما هو إلا أن يقتلنا ههنا .. انطلقوا إلى إخواننا وأصحابنا .

ومطّق عبد الله بن أبي والمنافقون يزيون الانطلاق إلى اليهود والدخول معهم في حصونهم وترك رسول الله ﷺ — وأصحابه للأحزاب ليلقوا مصيرهم ، فلم يزد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيمانا واحتسابا .

(١) أي هم قليل يشبههم رأس واحد .

استخلف — عليه السلام — على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، وخرج رسول الله عليه السلام بالمسلمين حتى عسكر بهم إلى سمح متلع وهو جبل بسوق المدينة وجعل سلعا خلف ظهره ، وغدا المسلمون يعملون في حفر الخندق وراح عليه السلام يعمل فيه ترغيبا للمسلمين في الأجر ويأمرهم بالجد ويعددهم النصر إن هم صبروا .

وحمل عليه السلام التراب على ظهره ، وجعل المسلمون يادرون قنوم العدو ، وكان من جملة من يعمل في الخندق جُعيل فقير — عليه السلام — اسمه وسماه عمرا فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون :

سماه من بعد جُعيل عمرا

فيقول عليه السلام :

— عمرا .

فيقولون :

وكان للبائس يوما ظهره

فيقول عليه السلام :

— ظهره .

وظل عليه السلام يتقل التراب وقد وارى الثياب جلد بطنه ، فراح يمثل بقول ابن رواحة ويقول :

لا همَّ لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكية علينا	وثبت الأقدام إذ لاقينا

والمشركون قد بعوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ولو عبدنا غيره شقيبا يا حنذا ربا وحب دينا

وجدوا في العمل ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله ﷺ — وعن المسلمين في ذلك العمل رجال من المنافقين ، وجعلوا يورثون بالضعف عن العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير إذن رسول الله ﷺ . وجعل الرجل من المسلمين إذا نابه النابتة من الحاجة ذكرها لرسول الله ﷺ — واستأذنه ، فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى عمه في الخندق ، فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين قوة تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستعفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ (١) . ثم قال تعالى في المنافقين : ﴿ لا تعملوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ (٢) فليحذر الدين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٣) . وكان سلمان رجلا قويا يعمل عمل عشرة رجال في الخندق ، فكان يحفر في كل يوم - مئة أذرع في عمق خمسة أذرع ، تصافس فيه المهاجرون والأنصار فقال المهاجرون :

— سلمان منا .

وقالت الأنصار :

(١) النور ٦١ (٢) اللواد : الاستار بالشيء عند الحرب

(٣) النور ٦٣ .

— سلمان منا .

فقال رسول الله ﷺ :

— سلمان منا أهل البيت .

وارتفعت منزلة سلمان بعد رقه فالمصطفى قد عده من أهل بيته .
وكان الغلمان بأجمعهم يعملون في حفر الخندق من بلغ ومن لم يبلغ ،
وكان بين الغلمان عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأبو سعيد
الخدري والبراء بن عازب ، وكان زيد بن ثابت ممن يقل التراب فقل
رسول الله في حقه :

— أما إنه نعم الغلام .

وعليته عيه فام في الخندق فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم ،
فلما قام فزع على سلاحه فقال له — ﷺ :

— يا بار قد نمت حتى ذهب سلاحك .

ثم قال :

— من له علم بسلاح هذا الغلام ؟

فقال عمارة :

— أنا يا رسول الله وهو عندي .

— رده عليه .

ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعبا .

واشتد على الصحابة كدية (محل صلب) فشكروا ذلك لرسول الله —
ﷺ ، فأخذ المعول وصرب فصارت رملا سائلا لا ترد فأسأ ولا
مسحاة .

كانت الأيام عسرة وكان المسلمون يعملون في الخندق دون ملل ،

فكان أبو بكر وعمر يحملان التراب في ثوبيهما إذا لم يجدا مكانا ، وكان الرجال يداؤون في العمل طوال النهار حتى إذا ما جن الليل استراحوا .
وضربت قبة من آدم لرسول الله ﷺ ، وكان ﷺ — يعقب فيها بين ثلاث من نسائه عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش فتكون عائشة عنده أيا ما . وكان طعام القوم أيسره . وكانت كل زوجة تحاول أن تبعث إلى زوجها بما يقوم به أوده ، فدعت عمرة بنت رواحة ابنة لها فأعطتها حفنة من تمر في ثوبها ثم قالت .

— أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما .
فأخذتها وانطلقت بها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله ، فمرت برسول الله ﷺ ، وهي تلمس أباها وخالها فقال :
— تعالى يا بنية ، ما هذا معك ؟
— يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله بن رواحة يتفديانه .
— هاتيه .

فصبته في كفي رسول الله ﷺ ، ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دحا بالتمر عليه فبدد فوق الثوب ، ثم قال لإنسان صده :
— اصبرح في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء .
فاجتمع أصحاب الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه باسم الله وعلى بركة الله .

ومرت الأيام والمسلمون يحفرون والعرق يتفصد منهم والمنافقون يتظاهرون بالعمل ولا يعملون ، ويهود بني قريظة في الحصون يتأهبون ليفوا بعهدهم لرسول الله عليه السلام أن يدافعوا معه عن المدينة إذا ما دهمها

خطر خارجي .
وعلى مر الأيام بدأ يظهر خندق عميق واسع أمام الجهة المفتوحة من
المدينة كان من المتعذر على فارس أن يتخطاه ، وراح سلمان يضرب
الأرض في قوة وعزم وإذا بكدية تشتد عليه ، ورأى — عليه السلام — سلمان
وقد عجز عن تحطيم الكدية فنزل إليه وأخذ المعول من يده وقال :
— بسم الله .

وصرب ضربة فكسر ثلثها وبرقت برقة فخرج نور من قبل اليمن
كالمصباح في جوف ليل مظلم ، فكبر رسول الله — عليه السلام — وقال :
— أعطيت مفاتيح اليمن ، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة
كأنها أبواب الكلاب .

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر ، فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول
الله — عليه السلام — وقال :

— أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها .
ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر و برق برقة فكبر وقال :
— أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن
كسرى كأنها أبواب الكلاب من مكاني هذا .

وراح جمع من المنافقين يتبادلون النظرات في استخفاف ، وقال معتب
ابن قشمر معبرا عما يدور في خلدهم .

— ألا تعجبون من محمد ؟ بميتكم وبعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من
بئر قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم ، وأنتم إنما تحفرون
الخندق من الفرق ^(١) لا تستطيعون أن تبرزوا

وتصبب العرق من الأجسام وخوت البطون، وتذكر جابر بن عبد الله أن عنده شويبة غير جد سمينة فقال في نفسه :
— والله لو صنعتها لرسول الله — ﷺ .

فأمر امرأته فطلحت لهم شيئا من شعر فصصت لهم منه خبيرا ، وذبحت تلك الشاة فشووها لرسول الله — ﷺ ، فلما أمسوا وأراد رسول الله الانصراف من الخندق قال جابر :

— يا رسول الله إلى قد صصت لك شويبة كانت عندنا وصعنا معها شيئا من خبز هذا الشعر ، فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي .
وإنما يريد جابر أن ينصرف معه رسول الله وحده ، ولكن رسول الله ﷺ — ما كان يؤثر نفسه بشيء دون سائر أصحابه فقال لجابر :

— نعم .

ثم أمر صاريخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله — ﷺ — إلى بيت جابر بن عبد الله .

فقال جابر في خوف :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

فأقبل رسول الله ﷺ ، وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرج جابر الشويبة إليه فأكل رسول الله عليه السلام وأكلوا بسم الله وعلى بركة الله .
وانقضى خمسة عشر يوما والرجال والغلمان يعملون في حفر الخندق حتى انتهى الحفر ، فأمر عليه السلام من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة ؛ فممن أجازهم عبد الله بن عمر وريد بن ثابت وأبو سعيد الخدري والبراء بن عازب . ولم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة فجعل النبي — ﷺ — النساء والصبيان

والذراى فيه .

وأرسل عليه السلام سليطا وسُفَهاً بين عوف طليعة للأحزاب فرأيا جيشا يكسو وجه الصحراء بتحرك في بطن شديد من كثرة عدده وثقل ما يرتدى رجاله من دروع ، إنه جيش لا قبل للمسلمين به . ووقف الرجلان مشدوهين حتى وقعا في الأسر فقتلهما أبو سفيان بن حرب وقد استبشر خيرا وما خامره أدنى شك في الانتصار ، فما كان للمسلمين قبل بقرش وعطفان وبنى سليم ومن انضم إليهم في زحفهم من الأعراب . وأعطى عليه السلام لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد ابن عباد ، وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثمان مضي من ذى القعدة وعسكر بمن معه إلى سفح سلم ، وأقلت قرش ومن معها تحلوهم الآمال العريضة فلما رأوا الخندق أريدت وجوههم وانقبضت أهدتهم وانهارت قصور الأماني التي بوها في الهواء وقالوا في غيظ :

— والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها !

وكان أكثرهم عيظا حبي بن أخطب فهو الذى خرج بالموتورين من بنى النضير ليحرض الموتورين من قرش وعطفان وبنى سليم وقبائل العرب ويحضرهم على قتال رسول الله عليه السلام ، وكان طوال الرحلة يستشعر راحة بل إنه ذاق بومه لذة الانتصار أكثر من مرة ، وإذا بجميع أحلامه تنهار فجأة أمام عمق الخندق الذى أصبح يفصل بين جيش الأحزاب وجيش الإسلام .

أنذهب كل الجهود التي بذلها هباء ؟! وهذه الجيوش التي أعراها بدهائه ودهاء اليهود على أن تتحرك للانتقام أتعود من حيث جاءت دون أن تتأثر من عدوه وعدوهم ؟ إن في المدينة يهودا قد عاهدوا محمدا على أن

يقوموا بالدفاع معه عن مديتهم ، فلو أمكنه أن يفرهم على نقض عهدهم فإن تحصين المدينة كله سينهار وسيصبح القساء على المسلمين ونبي الإسلام أمرا لا مفر منه .

إنه قادر على أن يفرى بى قريظة على نقض عهدهم . سيقنعهم أن نبي الإسلام صياد اليهود فإن كان سيستعين بهم اليوم فلن يكون مصيرهم إلا مصير بى قنقاع وبني النضير غدا ؛ سيطردهم من جواره شر طردة . واستراح حبي بن أخطب إلى أفكاره بعض الشيء فقد عاوده الأمل بعد أن كاد أن يقبر في ذلك الخندق العميق الذي ضربه المسلمون حول المدينة . ونزلت قريش بجميع الأسيال ونزل عينة في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد ، وسار المشركون يتناوبون ويغلبون أبو سفيان في أصحابه يوما ويعتدو خالد بن الوليد يوما ويغلبو عمرو بن العاص يوما ويغلبو هبيرة بن أبي وهب يوما ويغلبو عكرمة بن أبي جهل يوما ويعتدو صرار بن الخطاب يوما ، فلا يرالون يميلون حيلهم ويعتزمون مرة ويجمعون أخرى ويتناوشون أصحاب رسول الله ﷺ — ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصا .

وكان عبّاد بن بشر على حرس قبة رسول الله ﷺ — مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة ، وكان النساء والصبيان والذراري في الحصن وقد قال عليه اسلام للنساء إن جاءك أحد فألمن بالسيف ، فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له نجدان أحد بني جحاش ، على فرس حتى كان في أصل الحصن ثم جعل يقول للنساء : — انزلن إلى حير لكن .

فحرك السيف فأبصره أصحاب رسول الله ﷺ — ، فأسرع إلى

حصص بنى حارثة قوم فهم رجل من سى حارثة يقال له ظفر بن رافع ،
وحاول نجدان أن يختبئ أو يلوذ بالفرار بيد أن ظفر رآه فقال :
— يا نجدان ابرز .

فبرز إليه فحمل عليه ظفر فقتله .

واستشر النساء والصبيان والدرارى بقتل نجدان ، ولكن جرأة ذلك
الرجل الثعلبي كانت إيدانا بأن الدرارى لم يكونوا فى مأمن من الغدر
والخيانة وأن الأمر قد أصبح يستوجب أن يقوم رجال بحراستهم .
وراحت الأيام تمر والمشركون فى عيظ شديد فالخندق يحول بينهم
وبين المسلمين ، ويبغ الخنق عايتة نوافل بن عبد الله بن المغيرة فأقبل على
فرس ليوثبه الخندق فوقع فيه مع فرسه ، فراح المسلمون يرمونه بالحجارة
فجعل يقول :

— قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب !

فترل إليه على بن أبى طالب فصر به بالسيف فقطعه بصعين ، وارتح
المكان بالتكبير . وكبر ذلك على المشركون فأرسلوا إلى رسول الله —
ﷺ — أن أرسل إلينا بجسده وتعطيك اثني عشر ألفا .
فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا حير فى جسده ولا فى ثمنه ، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد حبيث
الدية .

كان حُصَي بن أخطب سيد بني النضير يقول لقريش في مسيره معهم .
 — إن قومي بني قريظة معكم وهم أهل حلقة (سلاح) وافرّة ، وهم
 سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلا .

فلما رأى الأحزاب الخندق وتيقنوا أن لن يبالوا من محمد — ﷺ —
 والذين معه إلا إذا خان يهود بني قريظة العهد الذي كان بينهم وبين
 المسلمين وطعنوا نبي الإسلام ومن معه من الخلف فيمسروا دخول
 الموتورين ليقضوا على ثورة المدينة قضاء مبرما ، عندئذ قال أبو سفيان
 لسيد بني النضير :

— أئت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد .
 فخرج حصى حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وولى
 عهدهم الذي عاهدهم عليه رسول الله — ﷺ — ، فدق عليه باب حصنه
 فأبى أن يفتح له ، وألح عليه في ذلك فقال له :
 — ويحك يا حصى إنك امرؤ مشغوم ! وإنى قد عاهدت محمدا فلست
 بناقص ما بيني وبينه ، ولم أرفيه إلا وفاء وصدقا .

— ويحك اضح لي أكلمك .

— ما أنا بفاعل .

فعاظه فقال له :

— والله ما أعلقت دوى إلا تخروفا على جشيشتك (الدشيش) أن آكل

معك منها .

ففتح له فقال له :

— ويحك يا كعب ! جئت بعز الدهر . جئت بك بقرش حتى أنزلتهم
مجمع الأسيال ، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد ، قد عاهدوني
وعاهدوني ألا يرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .

— جئني والله بدل الدهر وكل ما يحشى ، فإن لم أرى محمدا إلا صدقا
وفاء . ويحك يا حبي دعني وما أنا عليه .

فلم ير حبي بكعب حتى أعطاه عهدا من الله وميثاقا لئن رجعت
قريش وغطفان ولم يقتلوا محمدا ، أن يكون معه في حصنه ويصيه ما
أصابه .

كان ما عرضه حبي بن أخطب على كعب جد خطير : إنه نقص لعهد
رجل يرن الأمور بميزان العدل لا يميل مع الهوى بل سبيله الحق ودرء كل
خطر عن الدين الذي يدعو إليه ، فإن أحقق تدبير حبي وكعب فسيُدفع
يهود بنى قريظة أفدح ثمن يدفعه ناقصو العهود ، وإن نجح ذلك التدبير
فستحقق أغلى أمية لليهود : أن يقتل الرجل الذي اعترف بالسيد المسيح
وبالحمل الطاهر فسفه بذلك أحلام آبائهم الذين أبوا أن يقرأوا أن عيسى بن
مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول .

وكان في عرض حبي شيء جذاب وإن كان مخفوقا بالمخاطر ، فدعا
كعب رؤساء قومه وهم الزبير بن مطا وشاس بن قيس وعزال بن ميمون
وعقبة بن زيد وراحوا يتبادلون قداح الرأي . وكان حبي بن أخطب في
اليهود شبيها بأبي جهل في قريش يخشى الناس أن يعصوا له أمرا . فأنهى
الرأي إلى تقض العهد وقاموا إلى الصحيفة التي كان فيها العقد بينهم وبين
رسول الله ﷺ — فمزقوها ، ولم يصحح أمام الفريقين إلا أحد أمرين :
أن يقضى على رسول الله ﷺ — وعلى الذين معه جميعا وأن يحق

الإسلام ، وما كان اليهود يشكون في ذلك ، أو يؤيد الله حربه ويفلت المسلمون من الغدر الذي بيت بليل ويواجه بنو قريظة مصيرهم المحتوم جزاء وفاقا على نقض العهد وتعريض المسلمين جميعا للقتل . وقد أعمى الله بصيرتهم لما أراد الله في هلاكهم .

وجاء الخبر إلى عمر بن الخطاب فسمى إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بلغني أن بنى قريظة قد نقضت العهد وحاربت . فاشتد الأمر على رسول الله — ﷺ — ، فنقص العهد يجعل المدينة كلها بمن فيها لقمة سائغة للأحزاب . وأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد ابن عباد سيد الخزرج وأرسل معهما ابن رواحة وخوات بن جبير وأسيد ابن حُصير وقال لهم :

— اطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فإن كان حقا فألحنوا إلى لحنا أعرفه دون القوم ، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس .
كان رسول الله — ﷺ — يريد من القوم أن يوروا ويكنوا في كلامهم بما لا يفهمه القوم إذا كان بنو قريظة قد غدروا لكيلا يدب فيهم الوهن والضعف ولا تنضعضع روحهم المعنوية .

فخرجوا حتى أتوا بني قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد وقالوا في استخفاف :

— من رسول الله ١٩

وتبرعوا من عقده وعهده وقالوا :

— لا عهد بيننا وبين محمد .

فشتهم سعد بن معاذ وكانوا حلفاءه ، وأغلظ لهم القول سعد بن

عبادة وكان فيه حدة وشاقوه .

وقال سعد بن معاذ لسعد بن عباد :

— دع عنك مشاقمتهم فما بيننا وبينهم أرى من المشاقة .

ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ — فكنوا له عن قضيهن العهد ، قالوا :

— عضل والقارة .

أى غدروا غدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع ، فقال رسول الله ﷺ :

— الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين نصرة الله تعالى وعونه .

وتقنع — ﷺ — بثوبه واضطجع ومكث طويلا ، فاشتد على الناس

لبلاء والخوف حين رأوه — ﷺ — اضطجع ثم رفع رأسه فقال :

— أبشروا بفتح الله ونصره .

وانتشر الخبر بين المسلمين فعظم عند ذلك البلاء عليهم ، والتفتوا إلى

رسول الله ﷺ — يلتمسون منه العون فقال عليه السلام :

— حسبنا الله ونعم الوكيل !

وخيف على النساء والذراري من بنى قريظة ، فبعث عليه السلام سلمة

بن أسلم في مائتي رجل وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة

ويظهرون التكبير ليلقوا الرعب في قلوب بنى قريظة الذين حابوا عهدهم .

وجاءهم قريش والأحزاب من فوقهم ، وتحركت بنو قريظة من أسفل

مهم حتى ظن المسلمون كل ظن ، وتقدم رماة الأحزاب يرمون .

وظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم :

— كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصرو وأحدثنا اليوم لا يأمن

على نفسه أن يذهب إلى البغائط . ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا .
ولما رأى رسول الله ﷺ — شدة الأمر بعث إلى عُبَيْدِ بْنِ حُصَيْنٍ
الْفَزَارِيِّ وإلى الْحَرِثِ بْنِ عَوْفٍ الْمُرِّيَّ أَنْ يَقْطَعَهُمَا ثَلَاثَ ثَمَارِ الْمَدِينَةِ عَلَى
أَنْ يَرْجِعَا بِمَنْ مَعَهُمَا عَنْهُ ، فَجَاءَا مُسْتَخْضِعَيْنِ مِنْ أُنَى سَفْيَانَ وَطَلِبَا نَصْفِ
ثَمَارِ الْمَدِينَةِ ، فَأَتَى عَلَيْهِمَا إِلَّا الثَّلَاثَ فَرَضِيَا ، وَأَحْصَرَتِ الصَّحِيفَةُ وَالْبُذُوءُ
فَكَتَبَ عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ الصَّلْحَ ، فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — أَنْ يَوْقَعَ
الصَّلْحَ عَلَى ذَلِكَ بَعَثَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ فَذَكَرَ لهما ذَلِكَ
وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ فَقَالَا :

— يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْرًا تَجِبُ فَنَنْصَحُهُ ، أَمْ شَيْئًا أَمْرُكَ اللَّهُ بِهِ لَا بَدَ لَنَا مِنَ
الْعَمَلِ بِهِ ، أَمْ شَيْئًا تَنْصَحُهُ لَنَا .

— إِنْ كَانَ أَمْرًا مِنَ السَّمَاءِ فَاْمَضْ لَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا لَمْ تُؤْمَرْ بِهِ وَلَوْ فِيهِ
هُوًى فَسَمِعْ وَطَاعَةٌ ، وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا هُوَ الرَّأْيُ فَمَا لَهمْ عِنْدَنَا إِلَّا السَّيْفُ .
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

— لَوْ أَمَرَنِي اللَّهُ لِمَا شَاوَرْتَكُمَا . وَاللَّهُ مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ
الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَكَالِبُواكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ
أَكْسِرَ شوْكُمْ إِلَى أَمْرٍ مَا .
فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ :

— يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشَّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ
الْأَوْثَانِ لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ وَهمْ لَا يَطْعَمُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرَةٍ إِلَّا قَرِئَ أَوْ
بِيعَا ، وَإِنْ كَانُوا لِيَأْكُلُوا الْعُلْهَزَّ (١) فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَهْدِ ، أَفَحِينَ أَكْرَمْنَا

(١) الْعُلْهَزُ : طَعَامٌ مِنَ الدَّمِ وَالْوَبَرِ كَانَ يَتَّخِذُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه قطعهم أموالنا إيا ما لنا بهذا من حاجة . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله ﷺ :

— فأنت وذاك .

وذهب عليه السلام إلى عبيدة والحارث وقال لهما رافعا صوته :
— ارجعا بيننا وبينكم السيف .

واجتمع رؤساء الأحزاب يتشاورون . إن بنى قريظة قد نقضت عهدها وإن عليهم أن يقتحموا هذا الخندق لتدور بينهم وبين المسلمين معركة فاصلة ، فهم من فوقهم وبنو قريظة من أسفل منهم وإن هي إلا ضربات متتابعات ثم يسمى الإسلام والمسلمون ذكرى يمر عليها الزمن أديال النسيان .

وصاروا إلى مكان ضيق أغفله المسلمون وأكروها خيولهم على اقتحام الخندق ، وفيهم عكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب زوج أم هانئ أخت علي بن أبي طالب وضرار بن الخطاب وعمرو بن عبدود . فتقدم عمرو بن عبدود وكان من أشهر فرسان العرب أصيب في بدر بجراحات ثم ولي الأدبار ولم يشترك في أحد ، وقد جاء مع الأحزاب ليمحو عار فراره وليعلن للملأ أنه لا يزال الفارس الذي لا يشق له غبار ، ثم قال :

— من يبارر ؟

فقام على كرم الله وجهه وقال :

— أنا له يا نبي الله .

فقال ﷺ — له في إشفاق :

— اجلس إنه عمرو بن عبدود .

ثم كرر عمرو النداء قال :

— من يبارز ؟

فلم يقم إليه أحد ، فجعل يوبخ المسلمين ويقول :

— أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ١٩ أفلا يبرز لي

رجل ! وأنشد :

ولقد بحثت من الندا ء بجمعكم هل من مبارز ؟

إن الشجاعة في الفتى والجود من خير الغرائز

فقال على كرم الله وجهه فقال :

— أنا له يا رسول الله .

— إنه عمرو .

ثم نادى عمرو الثالثة :

— من يبارز ؟

فقال على كرم الله وجهه فقال :

— أنا له يا رسول الله :

— إنه عمرو .

— وإن كان عمرا !

فأذن له رسول الله ﷺ — وأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه ،

وتقدم على وهو ينشد :

لا تعجلن فقد أنا لك مجيب قولك غير عاجز

ذو يسيرة وبصيرة والصدق منجى كل فائز

وشخص — ﷺ — يبصره إلى السماء وقال في حرارة :

— إلهي أخذت عبدة من يوم بدر ، وحزة يوم أحد ، وهذا على أحي

- وابن عمى فلا تذرى فردا وأنت خير الوارثين . اللهم أعنه عليه .
ومشى على إلى عمرو بن عبدود فقال له :
— يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى
إحدى خلتي إلا أخذتها منه .
— أجل .
— فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسوله — ﷺ — وإلى الإسلام .
— لا حاجة لى بذلك .
— فإني أدعوك إلى البراز .
فضحك عمرو وقال :
— إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروعى بها .
وتأهب على كرم الله وجهه للقتال ، فقال له عمرو :
— لم يا بن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .
فقال له على :
— ولكنى والله أحب أن أقتلك .
فأخذت عمرا الحمية وتقدم على فرسه ، فقال له على :
— كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ انزل معى .
كان عمرو بن عبدود يكره أن يقتل عليا فأبو طالب كان صديقا وكان
عمرو له نديما ، ولكن عليا كرم الله وجهه أثار حفيظته فغضب فاقترح على
فرسه ووسل سيمه كأنه شعلة نار فعقر فرسه وصرب وجهه وأقبل على
على كرم الله وجهه . ولم يستطع رسول الله — ﷺ — أن يتابع المعركة
ببصره فقد أشفق على نفسه من أن يرى مصرع ربيبه وحبيبه وأخيه وابن
عمه وزوج الزهراء .

واستقبل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود بدرقه ، فضربه عمرو فيها ففقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشججه ، فاغفلت قلوب المسلمين ورسول الله عليه السلام يناشده أن يعين أبا الحس والحسين على خصمه الذى تمرس على القتال على مر السنين . وعافى على كرم الله وجهه عمرا فضربه على جبل عاتقه ضربة فسقط يخطئ في دمه ، وكبر المسلمون . فلما سمع رسول الله ﷺ — التكبير عرف أن عليا الحبيب قتل عمرا ، فانقضت مخاوفه وتهللت أساريه وتقدم ليستقبل فارس الإسلام وهو مسرور ، وأقبل على وهو متفرح بنصر الله فقال له عليه السلام :

— كيف وجدت نفسك معي يا على ؟

— وجدته لو كان أهل المدينة كلهم في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم .

وحين قتل عمرو رجع من وصل إلى الخندق من المشركين بخيلهم هارين ، فتبعهم الزبير بن العوام فحمل على هبيرة بن أبى وهب فضرب ثغر فرسه فقطعه ، وسقطت درع كان جعلها على مؤخر ظهرها فأخذها الزبير ؛ وألقى عكرمة بن أبى جهل رحمه وهو منهزم ؛ وحمل ضرار بن الخطاب وهبيرة بن أبى وهب على على كرم الله وجهه ، فأقبل على عليهما فأما ضرار فولى هاربا ولم يثبت ، وأما هبيرة فقد ثبت ثم ألقى درعه وهرب ، وكان فارس قريش وشاعرها .

وراح المسلمون يناحون بشعارهم :

— حم لا يمضون .

ورمى حيان بن العرقه سعد بن معاذ بسهم فأصاب أكحله (عرق في

وسط النزاع) فقال :

— خذها وأنا ابن العرقة .

سميت بذلك لطيب عرقها .

فقال سعد بن معاذ :

— اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها . فإنه لا قوم

أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه

وفرت خيل الأحزاب حتى اقتحمت من الخندق ، ثم اجتمع رؤساؤهم وقرروا أن يشنوا هجوما عنيفا على المسلمين في الغد ، فباتوا يعبثون أصحابهم وفرقوا كتائبهم حتى إذا ما كان النهار اقتحمت كتيبة عليظة فيها خالد بن الوليد الخندق ، فدار قتال عنيف بين المسلمين والمشركين ، قتال لا هوادة فيه ولا رحمة . وظل المسلمون لا يقدرُونَ أن يزولوا من موضعهم ، فلم يصلوا الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء فقد كان القتال من سائر جوارب الخندق من فوقهم ومن أسفل منهم ، وصار المسلمون يقولون :

— ما صلينا .

فيقول — ﷺ :

— ولا أنا .

وزاعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ومضى من الليل ثلثه والقتال رهيب دائر . ثم كشف الله الكافرين وحلفاءهم فرجعوا متفرقين إلى منارهم وعسكرهم وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله — ﷺ ، وقام أسيد بن حضير على الخندق في مائتين من المسلمين . وكر خالد بن الوليد في خيل من المشركين يطلبون غرة من المسلمين فناوشوهم ساعة

ومع المشركين وحشى ، فزرق الطقيل بن النعمان بمزراقه فقتله ، وصمد المسلمون لخالد بن الوليد ومن معه ، ثم شنوا عليهم هجوما فاضطروهم إلى العودة إلى عسكرهم .

سار رسول الله ﷺ إلى قيته بعد أن ابتلى المؤمنين وزلزلوا زلزالا شديدا ، وأمر بلالا فأذن وأقام فصلى العصر ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب ، ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء .

وخرجت طائفة من الأنصار ليدفنوا ميتا منهم بالمدينة فصادفوا عشرين بعيرا لقريش محملة شعيرا وتمرا وتبنا حملها ذلك حُشى بن أخطب شدادا وتقوية لقريش ، فأتوا بها رسول الله ﷺ فتوسع بها أهل الخندق ، ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال :

— إن حيا مشعوم قطع بنا ، ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعا .

٤

صار أبو سفيان بن حرب ورؤساء الأحزاب يرسلون الطلائع بالليل
يطعمون في العارة فأقام المسلمون في شدة من الخوف ، ودعا رسول
الله ﷺ — على الأحزاب فقال :

— اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم
اهزمهم وانصرنا عليهم وزلزهم
وقام في الناس فقال :

— يا أيها الناس لا تتصوالقاء العدو وسألوا الله العافية ، فإن لقيم العدو
فاصبروا واعلموا أن الجعة تحت طلال السيوف .
ودعا — ﷺ — بقوله :

— يا صريح المكرويين ، يا مجيب المضطرين ، كشف همي وغمي
وكرهى ، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى .
وقال له المسلمون :

— هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحجاجر ؟
— نعم قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .
وكان — ﷺ — يختص إلى ثلعة في الخندق ، فإذا أخذته البرد جاء إلى
قبته فأدعاه عائشة في حضنها ، فإذا دق حرج إلى تلك الثلعة ويقول :
— ما أخشى أن يؤتى المسلمون إلا منها .

فينا رسول الله — ﷺ — في حضن عائشة صار يقول :
— ليت رجلا صالحا يحرس هذه الثلعة الليلة .

فسمع صوت السلاح فقال رسول الله ﷺ :
— من هذا ؟

فقال سعد بن أبي وقاص :
— سعد يا رسول الله ، أتيتك أحرمك .
— عليك هذه الثلثة فاحرسها .

ونام رسول الله ﷺ — حتى غط ، وقام — ﷺ — في قبته يصلي
فقد كان إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة ، ثم خرج — ﷺ — من قبته
فقال :

— هذه خيل المشركين تطيف بالخندق :
— يا عباد بن بشر .
— لييك .

— هل معك أحد ؟

— أنا في نفر حول قبلك يا رسول الله .

وكان ألزم الناس لقبه رسول الله ﷺ — يحرسها هبعنه — ﷺ —
يطيف بالخندق ، فذهب في خوف الليل ينظر فإذا بخيل المشركين تطيف
بهم وإذا أبو سفيان في خيل يطيقون مضيق من الخندق ، فنادى بشر
المسلمين فرماهم المسلمون حتى رجعوا ورسول الله ﷺ — يدعو
ربه :

— اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم عيرك .
وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد سار مع الأحزاب ، إنه خرج مع
قومه غطفان وهو عى دينهم فلما حاصرت الأحزاب المسلمون راح نعيم
يفكر في ذلك الدين الذى جعل أهله يتمنون لقاء أعدائهم وهم

مستبشرون . وعكف على إيمان الفكر في الإسلام فأضاء الله صدره
بأنوار اليقين وقذف في قلبه الإيمان والتصديق ، فخرج حتى أتى رسول
الله ﷺ — بين المغرب والعشاء فوجده يصلي ، فلما رآه جلس ، ثم
قال له النبي ﷺ :

— ما جاء بك يا نعيم ؟

— جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق .

وصمت نعيم قليلا ثم قال :

— يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني
بما شئت .

— إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب
حذعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم ندبما في الجاهلية ،
فقال :

— يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم .

— صدقت ، لست عندنا بمتهم .

— إن قريشا وعطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم
ونسائكم لا تقدرون على أن تخلوا منه إلى غيره ، وإن قريشا وعطفان قد
جاعوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه وبلدكم وأموالهم
ونسائهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهضة (فرصة) أصابوها وإن كان
غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم
به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرفهم
ليكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه .

— لقد أشرت علينا بالرأى .

كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ ، ثم عذبوا وأعلنوا الخيانة على الملأ ومزقوا صحيفة العهد ، فلما جاءهم نعيم لم يندموا على ما فعلوا ولم يذهبوا إلى رسول الله ﷺ — يستغفرون ويتوبون إلى الله بل ظلوا على غدرهم وقبلوا رأى نعيم ريادة في الحيلة والأمان !

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان ومن معه :
— قد عرفتم ودى لكم وفراق محمدا ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيته منه على حقا أن أبلغكموه صحاحا لكم فاكتموا عني .

— نفعل ، فما هو ؟

— اعلموا أن معشر يهود قد دموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمننا على ما فعلنا فهل يرضيك أن تأخذ لك من القبيلتين — قريش وعطفان — رجالا من أشrafهم ونعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم يكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم ؟ فأرسل إليهم نعم .

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج حتى أتى عطفان فقال :

— يا معشر غطفان إنكم أهل وعشيرة وأحب الناس إلّى ولا أراكم تهملوني .

— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

— فاكتموا عني .

— نفعل .

ثم قال لهم مثلما قال لقريش وحلرهم ما حلرهم . فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان بن حرب ورعوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة ابن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم :
— إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحاهر ، فاعدوا للقتال حتى نتاجز محمدا ونفرغ فيما بيننا وبينه .
فأرسلوا إليهم :

— إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم . ولما مع ذلك بالدين مقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نتاجز محمدا ، فإننا نخشى إن صرستكم (طحتكم) الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشعروا إلى بلادكم وتتركوا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان :
— والله الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق .
فأرسلوا إلى بني قريظة :

— إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا .

فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا :
— إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم إلا أن يقتلوا فإن رأوا فرصة انتهبوها ، وإن كان عمر ذلك انشعروا إلى بلادهم وحلوا بينكم وبين الرجل .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان :

— إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهْناً .

فأبوا عليهم وقال أبو سفيان :

— ألا أراى أستعين بأخوة القردة والخنازير !

وجاء نعيم بنى قريظة وقال لهم :

— كنت عند أبى سفيان وقد جاءه رسولكم فقال : لو طلبوا منى

عناقاً^(١) ما دفعتها لهم .

وضايق حتى بن أخطب أن تختلف كلمة الأحزاب وبنى قريظة فجاء

حتى لبنى قريظة وراح يزين لهم الخروج لقتال محمد ، فلم يجد منهم موافقة

له وقالوا :

— لا نقاتل معهم حتى يذفءوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان

رُهْناً عندنا .

ووقع الاختلاف والجدلان بينهم ، وبعث الله تعالى ريح الصفا في ليل

شديدة البرد فنقلت بيوتهم وقطعت أطباها ، وكفأت قنورهم على

أفواهها ، وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم ، وأطفأت نيرانهم . وكانت

الريح صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم .

كانت تلك الليلة شديدة البرد والريح في أصوات ريحها أمثال

الصواعق ، شديدة الظلمة ، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون :

— إن بيوتنا عورة وحيطانها قصيرة يحشى عليها السرقة ، فأذن لنا أن

نرجع إلى نسائنا وأبنائنا وذرائبنا .

فيأذن — ﷺ — لهم . ولم يبق معه عليه السلام تلك الليلة إلا

(١) العناق : الأنثى من ولد المعز .

ثلاثمائة .

وبلغ رسول الله ﷺ — اختلاف كلمتهم فقال :
— ألا رجل يقوم فيظفر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ أسأل الله أن يكون
معى يوم القيامة .

فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد .
وكرر عليه السلام قوله : ألا رجل يأيننى بحبر القوم يكون معى يوم
القيامة ؟ فلم يجبه أحد .

فقال أبو بكر الصديق :
— يا رسول الله حذيفة .
فمر رسول الله ﷺ — على حذيفة بن اليمان وما يحميه من العدو
والبرد إلا مرط لأمراته ما يجاوز ركبته . وهو جاث على ركبته فقال عليه
السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— حذيفة ؟

فتقاصر حذيفة بالأرض قال :

— بلى يا رسول الله .

— أما سمعت صوتى ؟

— نعم .

— فما منعتك أن تبعينى ؟

— البرد .

— لا برد عليك حتى ترجع . قم !

فقام حذيفة فقال عليه السلام :

— إنه كائن في القوم خير فأنتني بخير القوم .

— والله ما لي أن أقتل ، ولكن أخشى أن أوسر .

— إنك لن تؤسر ، اللهم احفظه من يدي ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته .

فلما ولى ناداه عليه السلام فقال له :

— لا ترم بسهم ولا حجر ولا تضرب بسيف حتى تأتيني .

فانطلق حذيفة والريح تزعرج وتقطع أطناب الخيام وتلقى القدور حتى جاء إليهم ودخل في غمارهم ، فسمع أبو سفيان يقول :

— يا معشر قريش ليتعرف كل امرئ منكم جلسه واحذروا الجواسيس والعيون .

وخشى حذيفة أن يفطن به فأخذ بيد جلسه على يمينه وقال :

— من أنت ؟

— معاوية بن أبي سفيان .

وقبض يد من على يساره وقال :

— من أنت ؟

— عمرو بن العاص .

فقال أبو سفيان :

— يا معشر قريش والله إنكم لستم بدار مقام ولقد هلك الكراع والحف ، واختلعتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإني مرتحل .

ووثب على جملة وكان الجمل معقولا ، فلما صر به وثب على ثلاث

قوائم . ثم حل عقاله فقال له عكرمة بن أبي جهل :

— إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس ؟

فاستحيا أبو سفيان وأناخ حمه وأحد يرمامه وهو يقوده وقال .
— ارحلوا .

فجعل الناس يرحلون وهو قائم ، ثم قال لعمر بن العاص :

— يا أبا عبد الله نقيم في جريدة من الخيل بإزاء محمد وأصحابه ، فإننا
لا نأمن أن نطلب .

فقال عمرو :

— أنا أقيم .

وقال لخالد بن الوليد :

— ما نرى أبا سليمان ؟

— أنا أيضا أقيم .

فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس وسار جميع العسكر . ورأى حديفة
ابن العيص أبا سفيان وحده ، إنه يفكر في أن يصوب إليه سهمًا ويقصى عليه
لولا عهد رسول الله ﷺ — حين بعثه أن لا يحدث شيئا .

وسمعت عطفان بما فعلت قريش فدحلت العسكر ، فإذا الناس في
عسكرهم يقولون :

— الرحيل الرحيل لا مقام لكم .

والريح تقبهم عن بعض أمتعتهم وتصبرهم بالحجارة . فلما اطمأن
حديفة إلى أن الأحزاب قد شدوا الرحال للرحيل عاد إلى رسول الله —
ﷺ — فوجده قائما يصلي ، فأخبره الخبر فضحك حتى بدت ثناياه في
سواد الليل .

وعاود حذيفة الرد فجعل يقرقف ، فأوماً إليه رسول الله ﷺ —
بيده فدنا منه فسدل عليه من فصل شملته فنام ، ولم يزل نالما حتى
الصبح . فلما أن أصبح قال له رسول الله ﷺ —
— قم يا نومان .

ونظر رسول الله ﷺ — إلى عسكر الأعداء فإذا بالأحزاب قد
رحلوا ، فقال عليه السلام :

— الآن نفروهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم .
وأُنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ
وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا
وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا عُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ
لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ
بِعَوْرَةٍ أِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ
الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ
أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَتَمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ
بَكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا *
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا
قَلِيلًا * أَشْجَعَةٌ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم
كالدَى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةِ حِذَادٍ

أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا * يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يدوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبيائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا * لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا * ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴿١﴾ .

(١) الأحزاب ٩ — ٢٢ .

هزم الله الأحزاب وحده بعد أن زاغت أبصار المؤمنين وبلغت العلوب
الحناجر وظنوا بالله الظنون ، فادى أبو سفيان بالرحيل ليلحق بمكة وقد
انهارت آمال الأحزاب في استئصال المسلمين . وقد عبر أبو سفيان في
كتاب أرسله إلى رسول الله ﷺ — عن مشاعره عطف الاسحاب جاء
فيه : « باسمك اللهم . فإني أحلف باللات والعزى وإساف وبائنة وهبل ،
لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبدا حتى أستأصلكم
فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها وإنما
كانت تعرف ظل رماحها وشا سيوفها ، وما فعلت هذا إلا فرارا من
سيوفنا ولقائنا ولك منى يوم كيوم أحد » .

فأرسل إليه ﷺ — جوابه فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد
رسول الله إلى صخر بن حرب ، أما بعد فقد أتاني كتابك وقد بما عرك بالله
الغرور . أما ذكرت أنك سرت إليما وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلا
فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لما العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر
فيه اللات والعزى وإسافا وبائنة وهبل حتى أذكرك ذلك يا سفيان بنى
عالب » .

ورجع رسول الله ﷺ — من الخندق بعد حصار شديد دام خمس
عشرة ليلة ابتلى فيه المؤمنون وزلزلوا زلالا شديدا ، واستشهد منهم أس بن
أوس بن عتيك من بني عبد الأشهل قتله خالد بن الوليد ، وعبد الله بن
سهل الأشهيلي وثعلبة بن عثمة بن عدى قتله هبيرة بن أبي وهب ، وكعب

ابن زيد من بني دينار قتل ضرار بن الخطاب والطُفَّيْن بن العمان ، وجرح سعد بن معاذ جرحاً شديداً . وقتل من المشركين عثمان بن أمية بن منبه من بني عبد الدار ، ونوفل بن عبد الله بن المعيرة ، وعمرو بن عبد ود وابنه جَسَل بن عمرو قتلهما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وبلغ رسول الله — ﷺ — المدينة وقت الظهر فصلى بالناس الظهر ، ثم دخل بيت عائشة ودعا بماء فاغتسل ، ودعا بالجمرة ليتبخر . وبينما هو يستريح وقد وضع السلاح إذ ندى ما :

— عذيرك من محارب (أى من يعذرك) .

فارتاع لذلك رسول الله — ﷺ — ، وثب وثبة منكرة ، وخرج وخرجت عائشة في أثره فإذا رجل على دابة والسي — ﷺ — يكتمه ، فرجعت عائشة وقال الرجل وكان حبريل عليه السلام :

— أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

— نعم .

— ما وصعت السلاح .

وكيف يصع حبريل السلاح وهناك بو قريظة الذين نقصوا العهد أثناء المعركة ، إن ما فعلوه ليس بحيانة فحسب بل هو تأمر على الدولة ، ولولا فضل الله لقضى على نبي الإسلام والإسلام ، فقال حبريل عليه السلام :

— إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم

فمزلزلهم الحصون .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن في أصحابي جهداً فلو نظرتهم أياماً .

— امض إليهم .

ودخل رسول الله عليه السلام داره فقالت عائشة :

— من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟

— ورأيت ؟

— نعم .

— بمن تشبهينه ؟

— بدحية الكلبي .

— ذاك جبريل عليه السلام أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة .

فأمر عليه السلام بلالا أن يؤذن فى الناس : « من كان سامعا مطيعا فلا يصلون العصر إلا فى بنى قريظة » . وبعث مناديا ينادى :

— يا خيل الله^(١) اركبى .

وتجمع المسلمون فى عدة القتال ، وخرج رسول الله — ﷺ — وقد لبس السلاح — الدرع والمغفر والبيضة — وأخذ قاة وتقلد السيف وركب فرسه اللحييف ، فالتفت الناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل وهم ثلاثة آلاف والخيل ستة وثلاثون فرسا له منها ثلاثة ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وكان اللواء على حاله لم يُحَلْ من مرجعه — ﷺ — من الخندق ، فدفعه إلى على بن أبى طالب . فاندفع على بن أبى طالب فى زقاق بى غنم من بنى السجار فإذا الغبار يتصاعد حتى كاد يحجب الرؤيا . فلما دنا على بن أبى طالب من الحصن ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وعرر اللواء عند أصل الحصن ، سمع من بى قريظة مقالة قبيحة فى حقه — ﷺ — وحق أزواجه ، فسكت

(١) يا فرسان الله .

المسلمون وقالوا :

— السيف بيننا وبينكم .

وكره على كرم الله وجهه أن يسمع رسول الله — ﷺ — من بى
قريظة ما يسيئه . فلما رأى رسول الله عليه السلام مقبلا أمر أبا قتاده
الأنصارى أن يلزم اللواء ورجع إليه — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأحابث .

— لعلك سمعت منهم لى أذى .

— نعم يا رسول الله .

— لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

فلما دعا رسول الله — ﷺ — من حصونهم قال :

— يا إخوان القردة ، هل أخراكم الله وأرسل بكم نعمته * أتشتمونى ؟

فجعلوا يحلفون ويقولون :

— ما قلنا .

— يا أبا القاسم ما كنت جهولا .

وتقدم أسيد بن حضير إلى يهود فقال لهم :

— يا أعداء الله لا ترحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم منزلة

ثعلب فى جحر .

— يا ابن الحضير نحن مواليك .

وخافوا ، قال :

— لا عهد بينى وبينكم .

وكيف يكون بينه وبينهم عهد وقد نقضوا عهد رسول الله — ﷺ —

فى الوقت الذى جاءت الأحزاب لتستأصل المسلمين والإسلام ، ولم

يكتفوا بقبض العهد بل تأمروا على سلامة الدولة .

وشعل جماعة من الصحابة ما لم يكن لهم منه يد عن المسير لبني قريظة ليصلوا بها العصر ، فأخروا صلاة العصر إلى أن جاءوا بعد عشاء الآخرة وبعضهم قال :

— نصلى ، ما يريد رسول الله ﷺ — منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها ، وإنما أراد الحث على الإسراع .

فصلوا في أمأكتهم ثم ساروا فما غابهم الله في كتابه ولا عفهم رسول الله ﷺ .

واستمر حصار بني قريظة وطعام الصحابة التمر يرسل به سعد بن عبادة . وكان حبي بن أحطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وعطمان وفاء لكعب بن أسد ، فلما جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب وأيقنوا أن رسول الله ﷺ — غير منصرف عنهم حتى يأجزهم ، قال كعب بن أسد لهم :

— يا معشر يهود قد نزل بكم ما ترون ، وإلى عارض عليكم حلالا ثلاثا فخذوا أيها شتم .

— ما هي ؟

— تابع هذا الرجل ونصده ، هو الله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه الذى تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبائكم ونسائكم ، وما معنا من الدحول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بني إسرائيل . ولقد كنت كارها لتقبض العهد ولم يكن البلاء والشوم إلا من هذا الجالس .

والتفت العيون إلى حبي بن أحطب وقد ملئت حقدا . واستمر كعب

في مقالته :

— أتذكرون ما قال لكم ابن حراش حين قدم عليكم . إنه يخرج هذه القرية نسي فاتبعوه وكونوا له أنصارا وتكونوا آمتم بالكتاب الأول والآخر .

فارتفعت الأصوات قائلة :

— لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره

فقال كعب بن ياسر :

— فإذا أبيتم على هذه فهلتم فليقتل أباءنا ونساءنا ثم يخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولم تترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن هلك هلك ولم تترك وراءنا سلا يحشى عليه ، وإن ظفر فلعمرى لحدن النساء والأبء ؟

— نقل هؤلاء المساكين ؟! فما حير العيش بعدهم ؟

— فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فأبرلوا لعدنا نصيب من محمد وأصحابه عرة .

— نفسد سبتنا ويحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من علمت وأصابه ما لم يخف عليك ؟

ولم يكن عمرو بن سعدى معهم لما بقضوا عهد رسول الله — ﷺ ، إنه قال لهم قبل أن يقدم النبي — ﷺ — لحصارهم :

— يا بني قريظة لقد رأيت عبرا : رأيت دار إخواننا حايه بعد ذلك العر والحد والشرف والرأى الفاضل والعقل . تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم وخرجوا حروج دل . لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط والله بهم

حاجة . وقد أوقع بنى قينقاع وكابرا أهل عنة وسلاح ونخوة ، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم ، فكلّم فبهم فتركهم على إجلالهم من يثرب .

يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا تتبع محمدا ، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي وقد بشرنا به علماؤنا .

ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبي والجلاء ، ثم أقبل على كعب بن أسيد وقال :

— والتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء إياه للعز والشرف في الدنيا .

فبينا هم على ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبي — ﷺ — قد حلت بساحتهم فقال :

— هذا الذي قلت لكم .

كان ذلك منه عقب الخندق ، فلما طال الحصار واشتد الجدل قال :
— قد حالقتم محمدا فيما خالفتموه ولم أشر ككم في غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الحزبة ، فوالله ما أدرى بقبضها أم لا ؟

— نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .
— فإني برئ منكم .

وخرج في تلك الليلة فمر بحرس رسول الله — ﷺ — وعليه محمد بن مسلمة ، فقال محمد بن مسلمة :

— من هذا ؟

— عمرو بن سعدى .

— مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام .

و غاب عمرو بن سعدى فى سواد الليل ، ثم وجدت رملته وأخبر رسول

الله ﷺ — أخبره فقال :

— هذا رجل نجاه الله بو فائه .

مرت الأيام ويهود بنى قريظة في الحصون وقد استمر المسمون في حصارهم ، وبدأت المؤن تنفذ ووجفت القلوب فالموت جوعاً يهدد الذين هجروا في عهدهم وانقادوا إلى حبي بن أخطب المشوم .

وراح زعماء بنى قريظة يتشاورون فرأوا أن يرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله ﷺ — أن يزلوا على ما نزلت عليه بو الضمير من أن هم ما حملت الإبل إلا الخلق (السلاح) فأبى رسول الله ﷺ — أن يحبس دماءهم ويسلم لهم تساءهم والذرية .

وعاد زعماء بنى قريظة يتشاورون وقد كفى الرعب في قلوبهم وقد ملأت جريمتهم أقطار رعو سهم : إهم قنوا أن يسلموا محمداً عليه السلام والذين معه إلى أعدائهم وإن الحكم في مثل هذه الحياة هو الإعدام ، فإن استطاعوا أن يبقوا رعو سهم فقد نالوا حيراً كثيراً ، فأرسلوا ثابة بنباش ابن قيس إلى رسول الله ﷺ — بأنه لا حاجة لهم بشيء من أموال لا من الخلق ولا من غيرها ، فأبى رسول الله ﷺ — إلا أن يزلوا على حكم رسول الله ﷺ .

وعاد بنباش بن قيس إلى الحصن وقد بكس رأسه ولاح في وجهه أعرق الأسى وقد ذهبت نفسه شعاعاً ، وما إن أعلن تصميم رسول الله ﷺ — على أن يزلوا على حكمه حتى راعت الأبصار وطاشت العقول وتعلقت العيون بساداتهم وقد مكث صراعة أن يبتدوا إلى رأى ، فقد كادوا جميعاً أن يموتوا من الخرع والخوف

كان أبو لبانة مناصحاً لهم وكان ولده وعياله فيهم ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ :

— ابعت إلينا أبا لبانة لنستشيره في أمرنا .

فدعا رسول الله ﷺ — أبا لبانة وقال له :

— اذهب إلى حلفائك فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس

فذهب إليهم فلم يرأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان

يكون في وجهه من شدة الحصار وتشيت ما لهم ، فرق لهم فقام كعب بن أسيد فقال :

- يا أبا بشير قد عرفت ما بيننا ، وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا

ومحمد لا يفارق حصننا حتى نزل على حكمه ، فلو رال عنا لحقنا بأرض

الشم أو حير ولم نطأ له أرضاً ولم نكثر عليه حمماً أبداً . ما ترى — قد

احترناك على عيرك — أنزل على حكم محمد ؟

فقال أبو لبانة :

— نعم فانزلوا .

وأوماً إلى حلقه بالدهج فوالله ما زالت قدماه من مكاسهما حتى عرف

أنه خاف الله ورسوله ، فقدم وقال في خوف شديد .

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

وسر به الخري وعلاه القهر وجعل صميره يؤنبه ويغره وغرا شديداً ،

فقال له كعب :

— مالك يا أبا لبانة ؟

فقال في صوت منهدح وقد غلفه الندم :

— نحت الله ورسوله .

وملأت عينيه الدموع ، ثم انطلق على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ ، وذهب إلى المسجد وكان الحر شديدا ، ولكن النار التي تطلعت في خوفه كانت أشد حرا ففكرة أنه خان الله ورسوله كانت تلسه لسعا يعذبه عذاب الهون .

وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمدته بسلسلة ثقيلة ، وكان العمود عند باب أم سلمة زوج النبي — ﷺ ، وكان أكثر تنقل رسول الله — ﷺ — عند ذلك العمود ، وكان ينصرف إليه من صلاة الصبح فكان يستبق إليه الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجئ إليهم ﷺ ، ويتلو عليهم ما أنزل إليه من ليلته ويحدثهم ويحدثونه .

وكان ما فعله أبو لبانة غير مألوف ، فخف إليه أناس من المسلمين يسألونه الخبر فقال في انفعال شديد :

— والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي مما صنعت .

وعاهد الله أن لا يبطأ بنى قريظة أبدا ولا يرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبدا .

واستبطأ رسول الله عليه السلام أبا لبانة ، وفيما هو يرقب وفوده عليه إذ جاء أناس من المدينة وأخبروه عليه السلام خبره فقال :

— أما لو جأني لاستعفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه .

وطل أبو لبانة مرتبطا في العمود تأتبه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم تعود فتربطه . وكان في مسجد رسول الله — ﷺ — خيام يداوى بها جرحى الخندق ، وكان سعد بن معاذ سيد الأوس في خيمة

لامرأة من أسلم يقال لها ربيعة كانت تداوى الحر حى محنسة .
وما كان أمام يهود بنى قريظة إلا أن يسلموا أو يموتوا جوعا ، فنزلوا على
حكمه — ﷺ ، فأمر بهم فكشفوا وجعلوا ناحية وكانوا سبعمائة وخمسين
مقاتلا ، وأخرج النساء والذراري من الحصون وجعلوا ناحية وكانوا
ألفا ، واستعمل إليهم عبد الله بن سلام .
وتذكر الأوس أن رسول الله — ﷺ — قد وهب بنى قينقاع لعبد الله
ابن أبى بن سلول بعد أن نزلوا على حكمه عليه السلام ، فطمعوا فى أن يهب
إليهم حلفاءهم فتوالت الأوس وقالوا :
— يا رسول الله مواليًا وحلفاءنا وقد فعلت فى موالي إخواننا بالأمس
ما قد فعلت .

طلبت الأوس من رسول الله — ﷺ — أن يهب لهم بنى قريظة كما
وهب بنى قينقاع للحرزج ، ولكن شتان بين جريمة بنى قينقاع وجريمة
بنى قريظة ؛ لقد سخر بنو قينقاع بامرأة مسلمة بيننا تأمر بنو قريظة على أمن
الدولة ، ولولا لطف الله لاستأصلت الأحزاب الإسلام والمسلمين . فلما
كلمته الأوس أبى أن يفعل بهن قريظة ما فعله بنى قينقاع ثم قال :
— أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟
قالوا :

— بلى .

فقال رسول الله — ﷺ — لليهود بنى قريظة :

— اختاروا من شعثكم من أصحابي .

— نزل على حكم سعد بن معاذ .

كان سعد بن معاذ في المسجد في خيمة رفيدة ، وقد كان — ﷺ —
 قال لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم في الخندق : « اجعلوه في خيمة
 رفيدة حتى أعوده عن قرب » . فأتاه قومه فحملوه على حمار ووطئوا له
 وسادة من آدم ثم أتوا به رسول الله — ﷺ — وهم يقولون به :
 — يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله — ﷺ — إنما ولاك
 ذلك لتحسن فيهم .. فأحسن فيهم فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه .
 فلما أكثروا عليه قال :

— لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم .

فقال بعضهم :

— واقوماه !

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهر فنعى لهم
 رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد لكلمته التي سمع منه ، فقد كان
 واضحا وصوح النهار أن جرأ الخيانة التي تهدد أمس السولة هو القتل إن أراد
 القاصي العدل المطلق دون أن يتأثر بهوى أو حلف ، وقد أعلنها سعد بن
 معاذ ناصعة لاشية فيها أن قد آن له ألا تأخذه في الله لومة لائم .

وانتهى سعد إلى رسول الله — ﷺ — والمسلمين ، فقال رسول الله —
 ﷺ :

— قوموا إلى سيدكم فأنزلوه .

فقال عمر بن الخطاب :

— السيد هو الله .

وقال المهاجرون من قريش :

— إنما أراد رسول الله الأنصار .

والأنصار يقولون :

— قد عم بها رسول الله — ﷺ .

فقاموا إليه فقالوا :

— يا أبا عمرو إن رسول الله — ﷺ — قد ولاك أمر مواليك لتحكم

فيهم .

وانتهى إلى رسول الله — ﷺ — فقال عليه السلام :

— احكم فيهم يا سعد .

— الله ورسوله أحق بالحكم .

— قد أمرك الله أن تحكم فيهم .

فالتفت سعد إلى الناحية التي ليس فيها رسول الله — ﷺ — فقال :

— عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت ؟

— نعم .

وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله — ﷺ — وهو معرض عن

رسول الله عليه السلام إجلالا له فقال :

— وعلى من ههنا مثل ذلك ؟

فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم .

قال سعد لبي قريظة :

— أترضون بحكمي ؟

— نعم .

فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما يحكم به ثم قال :
— فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتغنم الأموال وتسبي الذراري
والنساء وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار .
فقلت الأنصار :

— إخواننا لنا معهم .

فقال سعد :

— إني أحييت أن يستغنوا عنكم .

فقال رسول الله — ﷺ — لسعد :

— لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .

وأمر — ﷺ — أن يجمع ما وجد في حصونهم من الحلقة والسلاح
وغير ذلك فجمع ، فوجد فيها ألفا وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع وألفي
رح وخمسمائة ترس وجحفة ، ووجد أثاثا كثيرا وآنية كثيرة وحمالا
نواضح يسقي عليها الماء وماشية رشيها كثيرا . وخمس ذلك مع النخل
والسبي حتى الرثة وهي السقط من أمتعة البيت خمسة أجزاء ، فورع أربعة
أسهم على الناس فجعل للفارس ثلاثة أسهم سهما له وسهمين لفروسه ،
وللراجل سهما وهو أول فيء وقعت فيه السهام ، وأخذ هو — ﷺ —
جزءا وهو الخمس ليرده على الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات .

ووجد جرار خمر فأهريق ولم يخمس . ثم إن رسول الله — ﷺ — أمر
بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد . والنساء والذريرة في دار ابنة
الحريث النجارية ، فقد كانت تلك الدار معدودة للزول الوفود من
العرب . وبانتاع أن يحمل ، وترك المواشي هناك ترعى الشجر .

وانصرف رسول الله ﷺ — إلى المدينة ، وانطلق أسارى بنى قريظة والأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون وقد نكسوا ربوسهم خربا وما دروا بحكم سعد بن معاذ فيهم ، ولو كان قد بلغهم حكمه لانطلقت أصوات الجزع من الخناجر ولسالت الدموع على الخدود ، وحبس الأسارى في دار أمامة بن زيد ، ووضع النساء والدرية في دار بست الحارث ، وبات يهود بنى قريظة ينتظرون ما يفعل بهم .

خرج رسول الله ﷺ — إلى سوق المدينة فحفر بها خنادق وجلس هو وأصحابه ، وجاء سعد بن عباد والحباب بن المندر فقالا :

— يا رسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلهم .
فقال سعد بن معاذ :

— ما كرهه أحد من الأوس فيه خير ، فمن كرهه فلا أرضاه الله .
فقام أسيد بن حصير فقال :

— يا رسول الله لا تبق دارا من دور الأوس إلا فرقتهم فيها .

ففرق بعضهم في دور الأوس ليضربوا أعناقهم ، وبعث إلى من بقى منهم في دار أسامة بن ثابت فجاءوا إليه أرسالا . فالتفت بعضهم لسيدهم كعب بن أسد وقال :

— يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟

— في كل موقع لا تعقلون ، ألا ترون أن من يذهب مكم لا يرجع ،
هو والله القتل ، قد دعوتكم إلى غير هذا فأقيم على
— ليس حين عتاب .

وأوتى بحبي بن أخطب وعليه حلة له في لون الورد حين هم أن يفتتح ،
قد شقها عليه من كل ناحية قيد أمثلة لئلا يُسَلِّبها ، مجموعة يدها إلى عنقه
بجبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ — قال :

— أما والله ما كنت بنفسى في عداوتك ، ولكن من يخذل الله يُخذل .
ثم أقبل على الناس فقال :

— أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كُتبت على
بنى إسرائيل . ثم جلس فضرِبَ عنقه ، فقال جبل بن جوال الثعلبي :
لعمرك ما لام ابن أحطب نفسه

ولكنه من يخذل الله يُخذل
لجَاهِد حتى أبلغ النفس عُذرها
وقلقل^(١) يعنى العز كل مقلقل

وراح على بن أبى طالب والربير بن العوام بقطان الرعوس على شعر
السعف فى جوف الليل ، وقد صاحت نساء بى قريظة وشقت جبهوها
وشرت شعورها وضربت خدودها وملأت المدينة نواحا ، وأوتى يكعب
ابن أسيد فاشتد العويل وصرب الخدود فسيد بى قريظة قد جلس ليضرب
عنقه ، فقال له — ﷺ :

— يا كعب .

— نعم يا أبأ القاسم .

— ما انتعمتم بنصح ابن خراش لكم وكان مصدقا لى . أما أمركم
بأناعى وإن رأيتمونى تقرئونى منه السلام ؟

— بى والتوراة يا أبأ القاسم ، ولولا أن تعيرنى يهود بالجرع من السيف
لا تبعثك ولكنه على دين يهود .

فأمر رسول الله — ﷺ — أن يصرب عنقه .

ودخلت امرأة من سائهم يقال لها بنانة امرأة الحكم القرظى على عائشة
أم المؤمنين وكانت جارية حلوة ، فطفقت تتحدث مع عائشة وتصحك

ظهرا وبطنا ورسول الله عليه السلام يقتل رجالها في السوق ، إذ هتمف هاتف باسمها فقالت :

— أنا والله .

فقالت لما عائشة في دهش :

— ويلك ؟ مال لك ؟

— أقتل .

— ولم ؟

— قتلني زوجي .

— كيف قتلتك زوجك ؟

— أمرني أن ألقى رحي على أصحاب محمد كانوا تحت الحصن

مستظلمين في فيه ... كان بيني وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان . فلما

اشتد أمر المحاصرة قلت لزوجي : يا حسرتي على أيام الوصال كادت أن

تقصي وتبدل بليالي الفراق . وما أصنع بالحياة بعدك ؟ فقال زوجي :

إنك صادقة في دعوى المحبة ، تعالي فإن جماعة من المسلمين جالسون في

ظل حصص فألقى عليهم حجر الرحالة يصيب واحدا منهم فيقتله . فإن

ظفروا بها فإنهم يقتلونك بذلك . فألقيت عليهم حجر الرحالة فأدركت

خلاد بن سويد فشذحت رأسه فمات وأنا أقتل به .

وخرجت للقتل ، وعائشة أم المؤمنين تعجب لطيف نفسها وكثرة

ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .

وكان الزبير بن باطل القُرظلي وكان يكنى أبا عبد الرحمن قد من على

ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية يوم بعث ، أخذه فجزأ ناصيته ثم خلا

سبيله ، فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال :

- يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني ؟
— وهل يجهل مثلي مثلك !
— إني قد آت أن أجزيك بيدك عندي .
— إن الكريم يحزى الكريم .
ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ — فقال :
— يا رسول الله قد كان للزبير عندي يد وله عليّ مئة وقد أحست أن
أجزيه فهب لي دمه .
فقال رسول الله ﷺ :
— هو لك .
فأتاه فقال :
— إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك
— شيخ كبير لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟
فأتى ثابت رسول الله ﷺ — فقال :
— يا رسول الله أهله وولده .
— هم لك .
فأتاه فقال :
— إن رسول الله ﷺ — قد أعطاني امرأتك وولدك فهم لك .
— أهل بيت بالحجار لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟
فأتى ثابت رسول الله ﷺ — فقال :
— يا رسول الله ماله .
— هو لك .
فأتاه فقال :

— إن رسول الله ﷺ — قد أعطاني ماله فهو لك .
 — أي ثابت ، ما فعل الذي كان وجهه امرأة صينية يتراءى فيها عذارى
 الحلى ، كعب بن أسيد ؟
 — قُتل .

— فما فعل سيد الحاضر والبادي حبي بن أخطب ؟
 — قتل .
 — فما فعل مقدمتنا إذا شددنا و حاميتنا إذا كررنا عرآل بن صموئيل ؟
 — قتل .

— ما فعل المجلسان ؟
 — وهم ثابت أنه يقصد بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة
 فقال :
 — ذهبوا وقتلوا .

— يا بني أسألت يدي عندك يا ثابت إلا ألحقنتي بالقوم ، هو الله ما في
 العيش بعد هؤلاء خير . أرجع إلى دار قد كانوا حلولا فيها فأخلد فيها
 بعدهم ١٩ لا حاجة لي فيها . ألحقسي بهم فليست معابر عنهم إفراغة دلو
 حتى ألقى الأحبة .
 — ما كنت لأقتلك .
 — لا أبالي من قتلتني .

فقتله الزبير بن العوام . ولما بلغ أبا بكر مقالته « ألقى الأحبة » قال :
 — يلقاهم والله في نار جهنم حالدا فيها غددا .
 كان القتل لكل من أنيت ، ومن لم يست يكون في السبي . وكان عطية
 القرطبي علما فوجدوه لم يست فحللوا سبيله عن القتل ، وقد شرح الله قلبه

للإسلام بعد ذلك فدخل في دين الله . وكان رفاعه قد أنبت فأرادوا قتله
فلاذ بسلمى بنت قيس أم المسير وكانت إحدى حالات جده عبد
المطلب ، فقالت :

— بأنى أنت وأمى يا رسول الله ، هب لى رفاعه .

فوهه لها ، فألقى الله في قلبه أنوار اليقين فأسلم وجهه لله رب
العالمين .

وكان سعد بن معاذ يطر إلى قتل بى قريظة وهو راضى اسفس ، فإنه
لما أصيب بالسهم في الحندق قال يا حى ربه : لا تمتنى حتى تفر عيني من
بى قريظة ، وقد أقر الله عيه وشمى صدره فلم يعد يحفل على أى جس
يموت .

وانفجر جرح سعد بن معاذ وسال الدم ، وحصله — ﷺ
فحملت الدماء تسيل على رسول الله — ﷺ ، فمات معه وحمل إلى
ممرله . وراح أشراف الرجال يحمرون قبر سعد بن معاذ سيد قومه وفى
القلوب حسرة وفى الحنوق عصاة وفى العيون دمع ، وحمل نعش سعد
وكان جسيما فلم يستشعر الدين حموه ثقله فالخرن الذى برل بالأفدة كان
ثقيلا ، أنسى الرجال وطأة الحسم الثقيل الذى كانوا يحملونه .

ودفن سعد ، ورسول الله — ﷺ — يطر وقد لاح في وجهه الأسى
العميق ومن حوله صحابته من الأنصار والمهاجرين ، فسبح رسول الله —
ﷺ ، فسبح الناس معه ، ثم كبر فكبر الناس معه .

وجاءت أم سعد وبطرت إليه في اللحذ وقالت وهى تشرى بدموعها .
— أحتسبك عند الله .

وعزاها رسول الله — ﷺ — وهو واقف على قدميه على القبر ، فلما

سوى التراب على قبره ناحت عليه أمه ، فقال — ﷺ :

— كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاد .

ثم أمر رسول الله — ﷺ — بالغنائم فجمعت ، فاصطفى لنفسه ربحانة بنت عمرو بن حفاقة إحدى ساء عمرو بن قريظة . ثم أخرج الخمس من المتاع والسبي ، ثم أمر بالباقي فبيع فبمن يريد وقسمه بين المسلمين . وكانت السهيمان على ثلاثه آلاف واثني وسعين سهما ، لفرس سهيمان ولصاحبه سهم . واستعمل عليه السلام محمية بن جزء الريدى وكان من مهاجرة الحبشة على الأخماس ، فكان رسول الله — ﷺ — يعتق منه ويهب ويخدم منه من أراد . وقال عليه السلام لمن أهدوا السبايا :

— من فرق بين والدته ولدها فرق الله بينه وبين أحته يوم القيامة .

كان المسلمون لا يملكون إلا جوادا واحدا يوم بدر . وقد نصرهم الله ببدر وهم أدلة . وكانت غزوة أحد وقد فعل فرسان المشركين بالمسلمين الأفاعيل ، فرأى رسول الله — ﷺ — أن يهتم بفرسان المسلمين وأن يسلمهم تسليحا خفيفا ، فاهتم بتربية الخيل ولكن ذلك يحتاج إلى وقت طويل . فلما أصبحت الأموال بين يديه بعد غزوة بني قريظة بعث سعد ابن زيد الأنصارى إلى نجد لينتاع لهم خيلا وسلاحا ، وبعث سعد بن عبادة إلى الشام ليشتري سلاحا ، فصار عنده — ﷺ — خيل كثير وسلاح كثير فقسمها على المسلمين . وكون عليه السلام أول فرق فرسان المسلمين تلك الفرق التى ستر لزل ملك الروم وتذك حصون العرس وترفع رايات الإسلام حفاقة على الحصون .

ودخل عليه السلام المدينة فاستقبله المسلمون بالتكبير . وتجاوبت فى أرحاء المكان على طول الطريق أهارج البصر المبين ودخل عليه السلام

المسجد ليصلي ركعتين لله شكرا قبل أن يتجه إلى دار ابنته فاطمة الرهراء لبحي أهل البت قبل أن يدخل على نسائه ، فإذا بأبي لبانة لا يزال مربوطا بسلاسل إلى أسطوانة قريبة من دار أم سلمة ، فهو يتنظر أمر الله فيه ، فلم يتقدم عليه اسلام ليفكه فما كان له أن يعمل بعد أن قال أبو لبانة : « والله لا أدوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله علي »

وعاد المسلمون إلى دورهم والحر شديد ، وأبو لبانة قد ارتبط بالمسجد إلى عمود من عمده وقد دب في جسده الوهن وراح العرق يتصعد من حسده ، تأنيه امرأته أو ابنته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره .

وفي عمية الصبح خرج رسول الله ﷺ — يتنفل عند الأسطوانة التي ارتبط بها أبو لبانة — ثم انصرف إليها بعد صلاة الصبح فراح يستيق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فراح رسول الله عليه السلام يتلو عليهم ما أنزل إليه . ﴿ وأنزل الذين طاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قنوسهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ (١) .

وجعل أبو لبانة يرهف سمعه لعله يسمع أن الله قد تاب عليه ، ولكن رسول الله عليه السلام قد تلا ما أنزل إليه من ربه وما كان فيه إشارة إلى توبة الله عليه ، فاستشعر حزنا على حره وإن لم يقط من رحمة ربه ، فقد كان على يقين من أن الله يعمر الذنوب جميعا

وأبت ریحانة بنت عمرو الإسلام فعرلها — ﷺ — ووجد في نفسه لذلك ، فيبسا هو في مجلس من أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال .
— إن هاتين لبعلا مبشرى بإسلام ریحانة .

فجاء رجل وأخبره أن ریحانة أسلمت فسر بذلك فأعتقها . وبعد استيرائها بحیصة تزوجها وأصدقها اثنتی عشرة أوقية ونشأ . ولم يشأ أن تكون في ملكه يطؤها بالملك فقد جاء عليه السلام ليحفف روادع الرق ويشجع الناس على العتق .

ودخل عليه السلام بيت أم سلمة ، حتى إذا ما كان السحر سمعت أم سلمة رسول الله — ﷺ — يضحك فقالت :

— مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟

— تيب على أبنی لبانة .

فتهللت أم سلمة بالفرح وقالت :

— أفلا أبشره يا رسول الله ؟

— بلى إن شئت .

فقامت على باب حجرتها فقالت :

— يا أبا لبانة أبشر فقد تاب الله عليك .

كانت فاطمة الرهراء تنظر إلى أبنی لبانة وقد ارتبط بأسطوانة المسجد والأبام تمر فتستشعر أعماق الأسى ، فلما من أذنبها بداء أم سيمة أحسنت قلبها يخفق بالفرح ، فثارت إليه مع الناس الدين هُرعوا إليه ليطلقوه ، فلما رأوا الرهراء تتقدم لتحل وثاقه تأخروا ، ولكن أبا لبانة أبى أن تطلقه وقال :

— لا والله حتى يكون رسول الله — ﷺ — هو الذي يطلقني بيده .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فقال :

— فاطمة بضعة مني .

وخرج رسول الله ﷺ — ليصلي الصبح ، فلما مر عليه السلام على
أبي ثبابة أطلقه فإذا بالدموع تنهمر من عيني الرجل ويقول في انفعال :
— من تمام توبتي أن أهجر دار قوم أصبت فيها الذنب ، وأن أخلع من
مالي .

— يكفيك الثلث أن تتصدق به .

ولم يأمره — ﷺ — أن يهجر تلك الدار التي أصاب فيها الذنب ،
وراح المسلمون يتلون في المساجد ما أنزل الله فيه : ﴿ وآخرون اعترفوا
بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله
غفور رحيم ﴾ (١) .

عاد عمرو بن العاص بعد غزوة الخندق إلى مكة فراحت الأفكار تنثال على رأسه ، وراح يهكر في تلك الريح التي هبت فاقتلعت خيامهم وكهأت قدورهم على أفواهها وصارت تلقى الرجال على أمتعتهم وأطفأت نيرانهم بعد أن قبلت بنو النضير أن تفجر في عهدهما لمحمد وصحبه وكاد النصر أن يتم للأحزاب ، فاستشعر في أعماقه أن قوة قادرة تساند ابن عبد الله وتمده بالعون وتؤيده ، وأن كل الدلائل لتدل أنه سيظهر على قومه وسيكون صاحب الكلمة العليا على قريش بل وعلى الأحزاب !

وتفاصرت نفس عمرو وتذكر ما كان يفعله برسول الله عليه السلام أيام أن كان بمكة ؛ إنه كان يؤذيه ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة ، ويا طالما هجار رسول الله ﷺ — وآله هجاء كثيرًا كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون برسول الله إذا مر بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء ، فقال رسول الله ﷺ — وهو يصلي بالحجر : « اللهم إن عمرو بن العاص هجاني ولست بشاعر ، فاعلمه بعدد ما هجاني » .
ورن في أعوار عمرو هجاء حسان بن ثابت له حيث هجاه مكافئًا له عن هجاء رسول الله ﷺ — :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت

لأفك منك بينات الدلائل

ففاخر به إما فخرت ولا تكن

تفاخر بالعاص المحجج^(١) بن وائل

وإن التي ذاك يا عمرو حُكِّمَتْ
فَقَالَتْ رَجَاءٌ عِنْدَ ذَاكَ لِنَائِلٍ
مِنَ الْعَاصِ عَمْرُو تَخْبِرُ النَّاسَ كُلَّمَا
تَجَمَّعَتِ الْأَقْدَامُ عِندَ الْحَافِلِ

وتفصد العرق من جبينه فالطاعنون في نسبه يقولون إن أمه النابغة كانت أمة لرجل من عزة فسييت ، فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة فكانت بغيا ، ثم أعتقها فوقع عليها أبو هب بن عبد المطلب وأمّية بن حلف الجهمي وهشام بن المعيرة الخرومي وأبو سفيان بن حرب والعاص ابن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدته فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه فقالت :

— هو من العاص بن وائل .

وذلك لأن العاص بن وائل كان ينفق عليها كثيرا ، وقال الطاعنون في نسبه إنه أشبه بأبي سفيان !

وعمره خزي وخوف فقد ملأت رأسه صورته هو وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن هشام وقد حملوا بينهم سلا^(١) جهل ووضعوه على رأس محمد ابن عبد الله وهو ساجد بفناء الكعبة ، فصر ولم يرفع رأسه وبكى في سجوده ودعا عليهم ، فجاءت ابنته فاطمة وهي باكية فاحتصنت ذلك السلا فرمته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي .

ورن في جيبات عمرو قول محمد في ذلك الوقت : « اللهم عليّ بمرئش ... إني مظلوم فانتصر ... إني مظلوم فانتصر » . فإذا بقشعريرة

(١) كرش الجمل .

تسرى في ابن العاص من الرأس إلى القدم .

ورأى عمرو نفسه وقد حرح مع الدين حرجوا إلى زيب بنت محمد لما
حرجت مهاجرة من مكة إلى المدينة فروعوها وقرعوا هودحها بكعوب
الرماح حتى أجهضت حبسا ميتا من أبي العاص بن اربيع

وطافت بعده رحلته إلى الحبشة ، إنه حرح يريد النجاشي مع
أصحاب السفينة ليأتى بحعفر وأصحابه إلى أهل مكة . وسرى في وجدانه
ذلك الشعر الذي قاله لما حرح من مكة إلى النجاشي :

تقول ابتنى ابن هذا الرحيل	وما السير مسمى بمشكر
فقلت : ذريسي فإني امرؤ	أريد النجاشي في جعفر
لأكويته عنسده كيئة	أقيم بها نخوة الأصمير ^(١)
وشأن أحمد من بينهم	وأقولهم فيه بالنكر
وأجرى إلى عتبة جاهدا	ولو كان كالذهب الأحمر
ولا أشي عس بي هاشم	وما استطعت في العيب والمحضر
فإن قبل العتب مسمى له	والألسويت له مشعري

إنه هجا محمدا بسبعين بيتا من الشعر وأعلن عداوته لبني هاشم فلا مقام له
في مكة ، وهو يحس أن أمر محمد يعلو وأن مكة أصبحت فريسة من قبضته ،
فجمع رجالا من قريش كانوا يرون رأيه ويسمعون منه فقال لهم
— والله إن لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ، وإني قد رأيت رأيا مما

تروون فيه ؟

— ما رأيت ؟

(١) الأصمير : الذي يميل بخده كناية عن التكبر .

— أرى أن نلحق بالنجاشي فكون عنده ، فإن ظهر محمد على قومه
أقمنا عند النجاشي ، فإن يكون تحب يده أحب إلينا من أن نكون تحب يد
محمد ، فإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا هل يأتينا منهم إلا خير .
— إن هذا الرأي .

— فاجمعوا ما نهدى له .

وكان أحب ما يأتية من أرض الحجار الأدم فجمعوا له أدما كثيرا ،
فاطلقوا إلى مرفأ مكة وركبوا البحر وعمرو بن العاص يفكر فيما كان يسه
وبين عمارة بن الوليد يوم أن خرجا معا إلى أرض الحبشة ليؤلوا النجاشي على
جعفر بن أبي طالب وصحبه ، كان عمارة شاعرا عارما فاتكا وكان رجلا
حميلا وسيما تهواه النساء صاحب محادثة لمن ، فركبا البحر ومع عمرو بن
العاص امرأته ، حتى إذا صاروا في البحر ليالي أصاب من الخمر معهما ،
فما انتشى عمارة قل لامرأة عمرو بن العاص .

— قبلي .

وكانت الخمر قد لعبت برأس عمرو فقال لامرأته :

— قبلي ابن عمك .

فقبلته فهورها عبارة وجعل يراودها عن نفسها فامتنعت منه .

ورأى عمرو بعين خياله نفسه وقد جلس على سكاك السفينة يبول
فدفعه عمارة في البحر .

فلما وقع سبح حتى أخذ بسكاك السفينة ، ورن في أذنيه قول عمارة
كأنما قد أتى من خوف بحر :

— أما والله لو علمت أنك سابع ما صرحتك ، ولكسى كنت أطل أنك

لا تحسن السباحة .

وخفق قلب عمرو بين جنبيه ، ومد بصره إلى الأفق البعيد وقد تحرك
حمده على أغنى خالده بن الوليد الذى أراد قتله ، وسرعان ما تذكر ما
أرسل به إلى أبيه . إنه ما إن وطأت قدماه أرض الحبشة حتى أرسل إلى أبيه
العاص بن وائل أن أحلنى وتبرأ من جريرتى إلى بى المغيرة وسائر بى
محزوم .

ورفت على شعته عمرو بسمة خفيفة فقد علم بعد عودته أن أباه مشى
إلى رجال بنى المغيرة وبى محزوم لما قدم عليه الكتاب فقال :

— إن هذين الرجلين قد خرجا حيث قد علمتم وكلاهما فانتك صاحب
شر غير مأموين على أنفسهما ولا أدرى ما يكون مهما ، وإلى أبرأ إليكم
من عمرو وجريرته فقد خلعتنه .

فقال عند ذلك بنو المغيرة وبنو محزوم :
— وأنت تخاف عمرا على عمارة أو نحن فقد خلعت عمارة ونبرأنا إليك
من جريرته ، فخل بين الرجلين .
— قد فعلت .

واتسعت ابتسامة عمرو والسفينة تمخر عباب الماء ، وإنه كان أذكى
من أن يقتل عمارة وأن يثير العداوات بين بى سهم وبى المغيرة وبى
محزوم . إنه ذاهية لم يعرض عنقه لسيف خالد بن الوليد ، فعمارة الوسيم
الحميل ما اطمأن بأرض الحبشة حتى دب لامرأة النجاشى فأدخلته
فاحتلف إليها وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبره عما كان من أمره
فيقول :

— لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من
ذلك .

ورأى من حاله وهيبته وما تصنع المرأة به إذا كان معها ، ما أكد له صدق قوله. إنه يأتيه مع السَّحَر وكانا في منزل واحد ، فلو احتال عليه ليأتيه بشيء لا يستطيع دفعه لرفع شأنه إلى النجاشي ولحمله بحجر قبره بأظافره ، فقال له في بعض ما يتذكرون من أمرها :

— إن كنت صادقا فقل لما فلتدعئك بدهن النجاشي الذي لا يدهس به غيره فإني أعرفه ، واثنى بشيء منه حتى أصدقك .
— أفعل .

ووقع عمارة الجميل الصبيح الوسيم في الفخ الذي نصبه له ، فعاد من عندها يفوح منه أطيب عبير وقد أعطته شيئا في قارورة فقال له :
— أشهد أنك قد صدقت ! لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، وبلت من امرأة الملك شيئا ما سمعنا بمثل هذا .
ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فقال :

— أيها الملك إن معي سميا من سفهاء قريش وقد حشيت أن يعرني عندك أمره وأردت أن أعلمك بشأنه ، وألا أرفع ذلك إليك حتى أسست أنه قد دخل على بعض سائلك فأكثر ، وهذا دهنك قد أعطته وأذهن به .
فلما شم النجاشي الدهن قال :

— صدقت ، هذا دهني الذي لا يكون إلا عند نسائي .

فلما أثبت أمره دعا بعمارة ثم ألقاه في الأحراش ليهيم على وجهه مع الوحوش ، وراح عمرو يهرك يديه سرورا وهو يغلو ويروح على ظهر السفينة فقد انتقم من عمارة شر انتقام دون أن يرتكب حماقة تثير الحروب بين بني سهم وبني المغيرة .

وراح يترجم بأبيات يذكر فيها ما صنع بعمارة وما أراد عماره من

امرأته :

تعلم غمار أن من شر سئة
على المرء أن يدعى ابن عم له ابنا
أئن كنت ذا بردين أحوى مَرَجَلًا
فلست براع لابن عمك محرما
إذا المرء لم يترك طعاما يحبه
ولم يه قلبا غاويا حيث يما
قضى وطرا منه يسيرا وأصبحت
إذا ذكرت أمثالها تملأ القما

ومرت أيام وليالي والسمنية تشق طريقها في الماء ، وعمرو بن العاص
يدكر ما كان يبه وبين ابن عبد الله وما كان بينه وبين المسلمين في الحشة
وفي مكة وفي المدينة أثناء يقظته ومسامه ، فلم يعد يشعل تفكيره غير
الإسلام ونبي لإسلام . وفي جوف الليل وقد أطبق الظلام على الكون
واحتفت بحجوم السماء ، رأى نفسه وهو يسير في طرقات قصر الحاشي
يستأذن في الدخول عليه ، فلما أذن له قدم هدايا الملك إليه ثم قال :

— أيها الملك قد مر إلى بلادك ما عدا ما سمعنا هارقوا دين قومهم ولم
يدخلوا في دينك ، جاءوا بدين ابتدعوه لا يعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعث
فيهم إليك أشرف قوما من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم لتردهم عنهم
فهم أعلى بهم عيا وأعلم بما عابوا عليهم وعاديوهم منهم .
وسرعان ما دوى في غير ذاته صوت جعفر بن أبي طالب وهو يكلم
الملك كأنه هزيم الرعد :

— أيها الملك إنا كنا قوما في جاهلية بعد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي

العواش ونقطع الأرحام ونسئ الحوار ويأكل القوى ما الضعيف ، فكما على ذلك حتى بعث الله عز وجل عبدا رسولا ما يعرف سبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا عليه نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان . وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن التحاور والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن سائر العواش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا شريك به شيئا وبالصلاة والزكاة والصيام فصداقه وآما به واتبعاه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم يشرك به شيئا . وحرما ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قوما معذبونا وفتنونا عن دينا ليردونا إلى عادة الأصنام والأوثان من عبادة الله وستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهررونا وظلمونا وصيقروا علينا وحالوا بيننا وبين دينا خرجنا إلى بندك واحترناك على من سواك ورعنا في جوارك ورحونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

وعجب عمرو بن العاص من نفسه ، فما أكثر أن ربت هذه المقالة في أعماقه فلم يفعل بها انفعاله بها في تلك الليلة ترى أيرجع تأثيره إلى أنه حرج من مكة إلى الحبشة وقد احتار بلد النجاشي وحوار النجاشي على من سواه كما فعل جعفر والدين معه من قبل ؟ إن جعفرا وصحبه قد مروا من اصطهاد قريش خشية أن يعتوا عن دينهم ، فما الذي دعاه إلى الفرار ؟ إنه يرى أمر محمد يعلو الأمور عتوا مكرا وأن قريشا كلها ستصحو ذات يوم لتحد نفسها في قبضته ، فهل تشخص الأيام عما يثبت فراسته وثاقب رأيه أم أنه قد فر من وهم ؟

وانبعث من أعماقه صوت يتلو ﴿ كهيعص ﴾ ذكر رحمة ربك عبده

زكريا * إذ نادى ربه بداء حفيّا * قال رب إني وهن العظم مئى واشتعل
الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً * وإني خفت الموالى من ورأى
وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثى ويرث من آل يعقوب
واجعله رب رضياً ﴿١﴾ .

فأحسن رقة نكتفه ومولد عبرات تزحف لترقرق فى عينيه وبصيص نور
بجاهد ليتألقى فى ظلام فؤاده .

ورست السفينة فانطلق عمرو بن العاص إلى قصر صديقه النجاشى ، وبينما
هو ينتظر الإذن بالدخول إذ قدم عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله —
ﷺ — بعثه إلى النجاشى فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه

ودخل عمرو بن أمية ليحبر النجاشى أن رسول الله عليه السلام يطلب عودة
جعفر وأصحابه بعد أن استقر الإسلام فى المدينة وأيده الله بصره ، فجعل
النجاشى يصفى إلى الضمرى متهلل الأسارير وقد وعد بأن يحمل المسلمين إلى
رسول الله — صلى الله عليه وآله .

وخرج عمرو بن أمية الضمرى من عند النجاشى فقال عمرو بن العاص
لأصحابه :

— هذا عمرو بن أمية لو دخلت على النجاشى فسألته إياه فأعطانيه فضرب
عقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت قريش أئى قد أجزأت عنها (قمت مقامها) ،
قتلت رسول محمد .

فدخل عمرو بن العاص عليه فسجد له ، فقال :
— مرحباً بصديقى أهديت إلى من بلادك شيئاً ؟

— نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيرة .

ثم قرّبه إليه فأعجبه واشتبهه ، ثم قال له :

— أيها الملك إني قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل
عدو لنا فأعطينيه لأقتله ، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا .

فغضب الملك ثم مديده فضرب بها أنفه ضربة طن عمرو بن العاص أنه
قد كسره ، فلو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقا من الملك ، ثم قال :

— أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه .

— أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه المأموس الأكبر الذي كان

يأتي موسى لقتله ؟

— أيها الملك أكذلك هو ؟

— إى والله ! أطعنى ويحك واتبعه فإنه والله لعلى حق وليطهرن على من

حالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .

وترادفت على دهر عمرو بن العاص صور ماثرة : رأى أتباع محمد
عليه السلام يقتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأعمامهم ما يزيدهم ذلك

إلا إيمانا وتسليما . ومضوا على الحادة والصراط المستقيم وصبروا على

مضض الألم وجدوا في جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منهم والآخر من

عدوهم يتصاولان تصاول الفحلين يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى

صاحبه كأس الموت ، فمرة هم من عدوهم ومرة لعدوهم منهم ، فلما

رأى الله صدقهم أنزل بعدوهم الكبت وأنزل عليهم النصر

إنه ليحس الساعه أن الإسلام صدق وأن رسالة محمد — ﷺ —

حق . وإيم الله لتحبلنها قریش دما ولتبعها دما ندما إن لم تدخل في دين

الله ، فقال عمرو للسجاشي :

— فبايعني له على الإسلام .

فبسط المجاشي يده فبايعه على الإسلام .

واغرورقت عينا عمرو بالدموع . إنه كان أشد الناس على رسول الله
— ﷺ ، فلو مات قل أن يبايع المجاشي على الإسلام لو جئت له النار .
وامتلاً رعية في أن يطلق إلى المدينة ليبايع رسول الله عليه السلام ، فخرج
إلى الميناء ليستقل سعيته تحمله إلى مكة ليأتي محمدا عليه صلوات الله
وسلامه ليبايعه على أن يعفر له ما تقدم من ذنبه .

أصاب الأشرف دما في الجاهلية فأقى المدينة فحالف بنى المصير فشرف
 مهم وتزوج عقيلة بنت أفى الخقيق فولدت له كعبا ، وكان طويلا جسيما
 دا بطن وهامة ، وكان سعيدا مجيدا ، وكان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ،
 وكان يعطى أحبار اليهود ويصلهم ، فلما قدم النبي ﷺ — المدينة
 حاءه أحبار يهود من قينقاع وبى قريظة لأخذ صلته على عادتهم فقال لهم :
 — ما عندكم من أمر هذا الرجل ؟

— هو الذى كنا نتظر ما أنكرنا من نعوته شيئا .

— قد حرمتم كثيرا من الخير فارجعوا إلى أهليكم فإن الحقوق في مالى
 كثيرة .

فرجعوا عنه خائبين ثم رجعوا إليه وقالوا له :

— إنا أعجلناك فيما أحبرناك به ، ولما استئتنا علمنا أنا عظمنا وليس هو
 المنتظر .

فرصى عنهم ووصلهم وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئا من
 ماله .

ولما انتصر — ﷺ — يوم بدر ، وقدم ريد بن حارثة وعد الله بن
 رواحة مبشرين لأهل المدينة بذلك وصدروا يقولون قتل فلان وفلان وأسر
 فلان وفلان من أشراف قريش ، صار كعب يكذب في ذلك ويقول :
 — هؤلاء أشراف العرب ومموك الناس . والله إن كان محمد قتل هؤلاء
 (غزوة الخندق)

القوم فبطر الأرض حير من ظهرها .

فلما تيقن الخير خرج حتى قدم مكة فجعل يهجو رسول الله — ﷺ — والمسلمين ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه وينشد الأشعار ويكسى من قتل بيد من أشرف قريش ، فقال — ﷺ :
— اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت .

كان كعب بن الأشرف قد وصع رحله عند عبد المطلب بن وداعة ، وأكرمه زوجته عبد المطلب وهي عاتكة بنت أسيد ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان وأخبره بذلك فبهحا المطلب وزوجته ، فلما بلغها همها حسان ألقت رحله وقالت :

— ما لنا ولهذا اليهودي ؟

وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله ، فاضطر إلى أن يعود إلى المدينة . فلما وصل إلى المدينة لم يمكس لسانه وصار يشيب بساء المسلمين حتى آداهن ، فقال رسول الله — ﷺ :
من يتدب لقتل كعب بن الأشرف ؟ إنه يؤدى الله ورسوله .

فقال له محمد بن مسلمة الأوسى :

— أنا لك به يا رسول الله ، هو حالى أنا أقتله .

وخرج محمد بن مسلمة في نفر من الأوس إلى كعب بن الأشرف فقتلوه ، وعند ذلك أصبحت يهود مدعورين فأتوا النبي — ﷺ — فقالوا :

— قتل سيدنا غيلة .

فذكر لهم النبي ﷺ — صيغته من التحريض عليه وأدبته المسلمين فاردادوا خوفا .

ولما قتلت سرية محمد بن مسلمة — وكانت من الأوس — كعب بن الأشرف الأوسى ، تذاكر الخرح من يشابه كعب بن الأشرف في العداوة لرسول الله ﷺ — من الخرح ، فذكروا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق لأنه كان يؤذى رسول الله ﷺ ، ولأنه كان من أعان عطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ ، وهو الذي حزب الأحزاب يوم الخندق .

كان الأوس والخرح يتخاصمان فيما يقرب إلى الله وإلى رسول الله ﷺ ، لا تفعل الأوس شيئا من ذلك إلا فعلت الخرح بطيره ويقولون : — والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبدا .

فانتدب لقتل ابن أبي الحقيق خمسة من الخرح هم عبد الله بن عتيث ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الخارث بن ربيعة وحرأعي ابن أسود حليف لهم من أسلم ، واستأذنوا رسول الله ﷺ — في أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيث ، وأمرهم أن لا يقتلوا وليدا ولا امرأة .

فخرجوا حتى قدموا خيبر فكمنوا ، فمما هدأت الرجل جاءوا إلى منزله فصعدوا درجة له ، وقدموا عبد الله بن عتيث لأنه كان برطي باليهودية فاستفتح وقال :

— جئت أبا رافع بهدية .

ففتح له امرأته وقالت :

— ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه .

فما دخلوا عليه أعلقوا عليهم وعليها باب الحجره ، فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها ابن عتيك بالسيف فسكتت . ووجدوه وهو على فراشه ما دلم عليه في الظلمة إلا بياضه كأنه قطية بيضاء ، فابتدروه بأسياهم ، ووضع عبد الله بن أبيس سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول :

— قطى قطى (يكفى يكفى) .

وعند ذلك صاحبت المرأة ، فلما صاحبت جعل الرجل مهم يرفع عليها سيفه ثم يتذكر نبي رسول الله ﷺ — فيكف يده . وخرجوا من عنده وكان عبد الله بن عتيك رجلا سىء البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثبا شديدا ، فحملته صاحبه حتى أتيا محلا استخفوا فيه ، وكان ذلك المحل من أهيتهم التي يلقون فيها كناستهم .

وصك صبح المرأة آذان القوم فهرعوا إليها ، فلما علموا بمقتل ابن أبي الحقيق أوقدوا الزيران وتفرقوا في كل وجه يطلبونهم . كانوا ثلاثة الاف يحملون المشاعل يتلفتون كأنهم كلاب صيد ، حتى إذا أيسوا رجعوا إلى ابن أبي الحقيق فاكتفوه وهو بينهم يجود بنفسه .

وقال بعض المسلمين لبعض :

— كيف نعلم أن عدو الله مات ؟

— أنا أذهب فأنظر لكم .

فانطلق حتى دخل في الناس فوجد امرأة ابن أبي الحقيق تنظر في وجهه وفي يدها المصباح ، ورحال يهود حوله وهي تحدثهم وتقرب :

— أما والله لقد سمعت ابن عتيك ثم أكذبت نفسي .

ثم أقبلت تنظر في وجه زوجها ثم قالت

— فاضت وإله يهود .

وتيقن الرجل أن ابن أبي الحقيق قد فاضت روحه ، فما سمع من كلمه

كانت ألد إلى نفسه منها .

ثم جاء وأخبر أصحابه فوجد ابن عتيك قد عصب رجله وانطلق حتى

جلس على الباب ، وقال :

— لا أحرص الليلة حتى أعلم أئى قتله أولا .

فلما صاح الديك قام الباعى على السرور فقال

— أنمى أبى رافع تاجر أهل الحجاز .

فقام ابن عتيك يمشى لا يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام . ولما وصل

إلى أصحابه وعاد عليه المشى أحس بالألم ، فحمله أصحابه حتى قدموا

المدينة على النبى — ﷺ ، فلما رأهم قال :

— أفلحت الوجوه .

قالوا :

— أفلح وجهك يا رسول الله .

وأخبروه بقتل ابن أبي الحقيق واختلفوا عبده — ﷺ — و قتل كل

مهم ادعاه ، فقال رسول الله — ﷺ :

— هاتوا أسيافكم .

فجاءوه بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس :

— هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعان .

وقال حسان بن ثابت في قتل سلام بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف :

يا بن الحقيق وأنت يا بن الأشرف	لله در عصاة لاقبتهم
مرحاً كأسد في عرين مُعْرِف ^(١)	يسرون بالبيض الخفاف إليكم
فسقوكم ختفاً بيض دُف ^(٢)	حتى أتوكم في محل دياركم
مستصغرين لكل أمر محمف ^(٣)	مستصغرين لنصر دين سيهم

(١) البيض الرقاق السيوف . مرحاً . شطراً . العرين : عابدة الأسد .
ومعروف : ملفف الأعصاب .

(٢) يبيض دهم : سيوف سريعة القتل .

(٣) محمف : ذاهب بالنفوس والأموال .

جاء الليل وصلى المسلمون العشاء خلف رسول الله ﷺ ،
 وانصرف الناس إلى دورهم ، ولكنهم لم يهتفوا عن أنه فقد صار الله في
 وحدانهم يذكرونه قيما وقعودا وعلى حنوبهم . وفي خوف الليل راح
 المؤمنون والمؤمنات يدعون ربهم وقد تعلق به أقدسهم ، فالارتفاع إلى
 السع الروحي وقرع أبواب الملكوت يملاً الصدور بورا على نور .
 وراح رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — يقول :

— سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب ، لا إله إلا الله وحده لا شريك
 له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل
 شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر
 الشيطان وشركه .

اللهم إني أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم
 استر عورائى وآمن روعائى وأقل عثرائى واحفظنى من بين يدي ومن خلفى
 وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بك أن أعتال من تحتى .
 اللهم لا تؤمسى مكرك ، ولا تولنى غيرك ، ولا تنزع عنى سترك ، ولا
 تنسى ذكرك ، ولا تجعلنى من الغافلين .

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . خلقتى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك
 ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بسعمتك على
 وأبوء بدبى ، فاغفر لى فإنه لا يعفر الذنوب إلا أنت .

اللهم عافنى فى بدنى وعافنى فى سمعى وعافنى فى بصرى ، لا إله إلا أنت . اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقاً إلى لقائك من غير صراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، وأعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أعتدى أو يعتدى على ، أو أكسب خطيئة أو ذنباً لا تغفره .

اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك قلباً حاشعاً سعيماً ، وحلقاً مستقيماً ، ولساناً صادقاً ، وعملاً متقبلاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، فإنك تعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شئ قدير ، وعلى كل غيب شهيد .

اللهم إنى أسألك إيماناً لا يرتد ، ونعيماً لا ينفد ، وقرّة عين الأبد . اللهم إنى أسألك الطيبات ، وفعل الخيرات ، وترك المسكرات وحب المساكين . أسألك حباً ، وحب من أحبك ، وحب كل عمل يقرب إلى حبك ، وأن تتوب على وتعمّر لى وترحمى ، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيينى ما كانت الحياة حيراً لى ، وترفعى ما كانت الوفاة حيراً لى . أسألك خشيتك فى العيب والشهادة ، وكلمة العدل فى الرضا والمضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، ولذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك ، وأعوذ بك من

ضراء مضره ، وفتنة مضلة .

اللهم زيننا ببرينة الإيمان واحصنا هداة مهتدين ، اللهم اقسم لنا من حشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به حشك ، ومن اليقين ما همون به علينا مصائب الدنيا والآخرة .

اللهم املاً وجوهاً منك حياء ، وقلوبنا منك فرقا ، وأسكن في نفوسنا من عظمتك ما تدلل به جوارحنا لخدمتك ، واجعلك اللهم أحب إلينا ممن سواك ، واجعلنا أحسنى لك ممن سواك .

اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحاً ، وأوسطه فلاحاً ، وآخره نجاحاً . اللهم اجعل أوله رحمة ، وأوسطه بركة ، وآخره تكريمه ومغفرة . الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته ، ودل كل شيء لعزته ، وخضع كل شيء لملكه ، واستسلم كل شيء لقدرته . والحمد لله الذى سكن كل شيء هيئته ، وأظهر كل شيء بحكمته ، وتصاغر كل شيء لكبريائه .

اللهم بهدرك على تب على إيتك أنت التواب الرحيم ، وبحلمك عسى اعف عني إيتك أنت العفار الخليم ، وبعلمك بى ارفق بى إيتك أنت أرحم الراحمين ، وبمحكك لى ملكنى نفسى ولا تسلطها على إيتك أنت الملك الخبار . سبحانه اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت نحمدك سوءاً وظلمت نفسى ، فاعفر لى ذنبى ، إيتك أنت رضى ، ولا يعفر الذنوب إلا أنت

اللهم ألهمنى رشدى وقى شر نفسى اللهم ارفعنى حللاً لا تعاقبى عليه ، وقنعنى بما رزقتنى ، واستعملنى به صالحاً تقبله مى . أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة فى الدنيا والآخرة ، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المعصية ، وهب لى ما لا يضرى ، وأعطنى ما لا ينقصك .

ربنا أفرع علينا صبرك وتوها مسلمين . أنت وليى فى الدنيا والآخرة

توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين . أنت وبتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير
الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة إننا هدا
إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبأ وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واعمر
لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . ربنا اغفر لنا دنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت
أقدامنا وانصربنا على القوم الكافرين .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا
للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم . ربنا آتانا من لدنك رحمة وهبنا لنا
من أمرنا رشداً . ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقمنا عذاب
البار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر
لنا دنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتانا ما وعدتنا عبي
رسك ولا تحزبنا يوم القيامة إنك لا تحلف الميعاد .

كان يقوم الليل ويناجى ربه آتاء الليل وأطراف النهار وكانت عبه
تنام ولا ينام قلبه فأنكشف له الأمر وفاص على صدره النور ، فمن كان الله
كان الله له ، وكان أسوة حسنة لأتباعه فكانت عائشة أم المؤمنين تدعو :
— اللهم إلى أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم
أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم ،
وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما
قرب إليها من قول وعمل ، وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك
محمد — ﷺ ، وأسألك ما قصيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً
برحمتك يا أرحم الراحمين .

وقال رسول الله ﷺ — لفاطمة الزهراء سيدة نساء المؤمنين .
— يا فاطمة ما يسمعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقولي : يا حي يا قيوم
برحمتك أستغيث ، لا تكلي إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله .
وعلم رسول الله ﷺ — أبا بكر الصديق أن يقول :
— اللهم إني أسألك بمحمد نبيك ، وإبراهيم خليلك ، وموسى
نجيك ، وعيسى كليمك وروحك ، بتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ،
وربور داود ، وفرقان محمد ، وبكل وحى أوحيت . أو قضاء قصيته ، أو
سائل أعطيته ، أو غنى أفقرته ، أو فقير أغنيته ، أو ضال هديته ، وأسألك
باسمك الذى أنزلته على موسى ، وأسألك باسمك الذى بثت به أوراق
المباد ، وأسألك باسمك الذى وضعت على الأرض فاستقرت ، وأسألك
باسمك الذى وضعته على السماء فاستقرت ، وأسألك باسمك الذى
وضعت على الخيال فرست ، وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك .
باسمك الظاهر الطاهر الأحد الصمد الوتر ، المنزل فى كتابك من لدنك من
النور المبين ، وأسألك باسمك الذى وضعته على النهار فاستنار ، وعلى الليل
فأظلم ، وبِعِظمتك وكبريائك ، وبنور وجهك الكريم ، أن ترزقنى
القرآن والعسم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى ، وتستعمل به
جسدى بحولك وقوتك ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين .
وقال — ﷺ — لزيدة الأسلمى .
— يا زيدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ، ثم لم
يتسهن إياه أبدا ؟
— بلى يا رسول الله .
— قل اللهم إني ضعيف فقو فى رضاك ضعفى ، وأخذ إلى الخير

بناصيتي ، واجعل الإسلام منتهى رضاي . اللهم إني ضعيف فقوي ، وإني
دليل فأعزني ، وإني فقير فأغنني ، يا أرحم الراحمين .
وراح أبو الدرداء يدعو بما علمه رسول الله ﷺ :

— اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، عليك توكلت وأنت رب العرش
العظيم . لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ما شاء الله كان وما يشأ لم
يكن . أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ،
وأحصى كل شيء عدداً . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل
دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم .

كانوا في الليل يتوجهون بكل قلوبهم إلى الله فتهب عليهم نسائم الأنطاف
وتكشف الحجب عن أعين الأفتدة بلطف خفي من الله تعالى ، فيسمع في
القلوب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف ،
وتتلاأ فيها حقائق الأمور الإلهية . ولا غرو فقد كانوا يعيشون في الله وبالله
والله . يدعونه مخلصين له الدين فاستجاب لهم ربهم أني لا أصيب عمل عامل
منكم من ذكر أو أنثى ببعضكم من بعض . فالذين هاجروا وأخرجوا من
ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكرمهم عنهم سيئاتهم ولأدخلهم
حنات تجري من تحتها الأنهار . ثوابا من عند الله والله عده حسن الثواب .

اجتمعت قریش يوما في عيد لهم عند صسم من أصنامهم كانوا يعظمونه
وينحرون له ويعكفون عنده ويدورون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل
سنة يوما ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا هم ورقة بن نوفل وعبيد الله بن
جحش — وكانت أمة أميمة بنت عبد المطلب — وعثمان بن الحويرث بن
أسد وزيد بن عمرو بن نفيل ، ثم قال بعضهم لبعض :
— تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض .

— أجل .

— تعسروا والله ما قومكم على شيء ! لقد أحطفوا دينيهم إبراهيم !
ما حجر تطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرب ولا يقع ! يا قوم اتمسوا
لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الخيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل
فاستحكم في النصرانية واتع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل
الكتاب ، ومات قبل أن يؤمر رسول الله ﷺ — بأن يسدر عشيرته
الأقرين .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فخرجه وولاه أمر
مكة ، فلما جاءهم بذلك أنفقوا أن يدينوا لملك وصاح الأسود بن أسد بن
عبد العزى :

— ألا إن مكة حى لقاح لا تدين لملك .

فلم يتم له مراده فعاد إلى قيصر وتصر وحسنت منزلته عنده ، وكان

يقال له البطريق . ومات بالشام مسموماً سمه عمرو بن جفنة الغساني المثلث .

وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فتم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وهارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تدبح على الأوثان ، وسهى عن قتل الموعودة وقال :
— أعبد رب إبراهيم .

وبادى قومه يعيب ما هم عليه ، وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول .
— يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري . اللهم لو أني أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه .

ثم يسجد على راحته . ومات زيد قبل أن يبعث رسول الله عليه السلام .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس وتزوج رملة بنت أبى سفيان رعيم مكة وسيد بى أمية ، وكان لزفاف يليق بسليمة حرب بن أمية وسيل بنى أسد وبى هاشم ، وما انقضت شهور حتى ذاع في مكة نبأ اتصال محمد بن عبد الله بالسماء ونزول الوحي عليه ، فطغى هذا الحدث العظيم على كل الأحداث .

وانقسمت مكة إلى مريقين فريق آمن بالله ورسوله وفريق كفر بما جاء به ابن عبد الله ، وكان على رأس ذلك الفريق أبو سفيان بن حرب . وشرح الله صدر رملة للإسلام وألقى في قلبها أنوار اليقين فأمت برسالة السماء ، ودخل زوجها عبيد الله بن جحش في دين الله .

وكاد أبو سفيان أن يمن لما اكتشف أن ابنته رملة صابت عن دين قومها

وأما قد تبعت دين أئى كبشة ، فعدا يحاول أن يشبه عن عزها لمحو ما لحقه من حذى ، ولكنها ثبتت على دين محمد وعجز أبو سميان عن أن يفتنها أمام إرادتها الصلبة التى زادها الإيمان قوة ومضاء .

ووثبت القبائل على من أسلم منها فاحتمل مسلمون ألوان العذاب وداقوا مرارة الاصطهاد ، حتى إذا ما طفح الكيل فكروا فى الفرار يديهم فاستأذنوا رسول الله فى الهجرة فأذن لهم أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهاجر عبيد الله بن جحش فىمن هاجر وحمل روجه رملة وكانت حاملا ، حتى إذا ما استقروا فى الحبشة وصعت رملة ما فى بطنها فكانت أنثى ، وكانت حبيبة بنت عبيد الله فكانت بها فأصبحت تدعى أم حبيبة .

وكان المسلمون فى أرض الغربة يتراورون ، فكانت أم حبيبة وأم سلمة وأسماء بنت عميس زوج حمزة بن أبى طالب ورقة بنت رسول الله — صلوات الله عليه — يجتمعن ويتذاكرن أيام مكة وفى القلوب حين وفى العيون دموع وفى الحنوق عصص . وما كان يخفف عن أسى العربة إلا الإيمان العميق بأهل على لصراط وأهل يتحمل ما يتحمل فى سبيل الله ومرضاة لرب العالمين .

وراح عبيد الله يختلف إلى الرهبان والقساوسة ويطلب المكث معهم فكان يعجب بهم على مر الأيام ، ودات ليلة أدخلت أم حبيبة مخدعها فامت مرأت عبيد الله بأسوأ صورة ، فقامت من نومها مفروعة مبهورة الأنفاس ، ولم يسكن روعها أبدا فقد حمر الحلم المروع فى وجدانها حتى صار أصدق من الحقيقة وأعرق أثرا من الواقع الذى كانت تعيش فيه .

وفى الصباح جاءها تأويل ما رأت ، قال لها عبيد الله إنه ارتد عن الإسلام وبه اعتق المسيحية ، وحاول أن يردّها عن الإسلام فسأبت

وصبرت على دينها .

وكان لا بد من الفراق فاعتكفت أم حبيبة في دارها لا تزور ولا تترار
تمضى صحابة هارها تمضع أساها وتقوم الليل تناجي ربها وتشه هومها
وتشكو إليه حالها ، فهي لا تستطيع أن تعود إلى مكة ليفتنها أبوها عدو
الإسلام اللدود عن دينها ، ولا تستطيع أن تهاجر إلى المدينة فهي لا تريد أن
تكون كلا على ريب بس جحش أحت روجها عيد الله .

وهزم الله الأحزاب وحده ونزلت سو قريظة على حكم رسول الله —
ﷺ ، وبلعه عليه السلام أن أم حبيبة بست أي سفيان المسلمة المؤمنة التي
هاحرت في سبيل الله إلى الحبشة تعيش في العربة وحدها بعد أن ارتد
روجها عن دينه ، فرأى أن يكرمها وأن يحزبها حيرا عن صبرها وعن
تمسكها بأهداب دينها . فعزم على أن يتزوجها وأن يشرفها بأن تكون أما
للمؤمنين .

كانت أم حبيبة قد تجاوزت الأربعين وما كانت رائعة الجمال ، ولكنه
عليه السلام قد وطد العرم على أن يرفعها فوق مكاتها لو أنها ظلت على دين
قومها واستقرت في بيت أبي سفيان ، وإيه بذلك الزواح سيحقق إحدى
الحسين . جدد أنف أبيها عدوه اللدود ، أو أن يلين قلبه العليط فيشرح
صدره للإسلام .

وبعث رسول الله — ﷺ — فيها إلى النجاشي عمرو بن أمية
الضمري ، فيها كانت أم حبيب في دارها تفكر في وحدتها وفيما صار إليه
أمرها بعد أن هاجر ابن خالها عثمان بن عفان إلى المدينة ، إذ يرسل
النجاشي جارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهه تستأذن عليها ،
فأذنت لها فقالت :

— إن الملك يقول لك إن رسول الله — ﷺ — قد كتب إلى أن أزوجه .

فأحست أم حبيبة بالفرح بعمرها ولم تستطع أن تسيطر على عواطفها ، فقالت وهي متهللة متلهلة .

— بشرك الله بخير .

— يقول لك الملك وكلّ من يزوجه .

فأرسلت إلى خالد بن سعيد فوكلته ، وأعطت أبرة سوارى فضة كانا عنهما وحواتم فضة كانت في أصابعها سرورا بما بشرتها .

فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وحطب النجاشي بعد أن بايع عمرو بن العاص على الإسلام فقال :

— الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم . أما بعد فإن رسول الله — ﷺ — كتب إلى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله عليه السلام ، وقد أصدقتها أربعمائة دينار .

ثم سكب الدنانير بين يدي القوم ، فتكلم خالد بن سعيد فقال :

— الحمد لله أحده وأستعينه . وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ — وزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسوله .

(غزوة الخندق)

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشي :

— اجلسوا فإن سنة الأنبياء عليهم السلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج .

فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . وغدا المسلمون الذين كانوا بالحبيشة يتأهبون للهجرة إلى المدينة فقد استقر بها الإسلام ، وكانوا في شوق إلى لقاء رسول الله ﷺ — والأحبة ، وكانت أم حبيبة أكثرهم شوقا وحفاة ، فما إن تدخل دور البي عليه السلام حتى تصبح أم حبيبة أم المؤمنين ، وإنها لأمنية غالية قد نالتها بإيمانها وصبرها وإنه لشرف عظيم يتفاخر دونه كل شرف .

تأهب رسول الله ﷺ — للخروج من داره فراح يقول :
 — اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك
 من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من
 عذاب القبر . اللهم إني أعوذ بك من طبع يهني إلى طمع ، ومن طمع في
 غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع .

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا
 يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع فإنه يشي الضجيع ، ومن
 الحياة فإنه يشي البطانة .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فبحث محمد بن مسلمة إلى القرطاء
 وهم بنو بكر بن كلاب في ثلاثين راكبا ، فإذا برميان الليل يصبحون في
 غمضة عين فرسان النهار ، وأمره أن يسر الليل ويكمن النهار ، وأمره أن
 يشن عليهم الغارة ، فقد كان عليه السلام يبحث السرية في إثر السرية إلى
 القبائل التي تجمع لقتال المسلمين قبل أن تلم شملها ، وكانت مفاجأة
 الأعداء في عقر دورهم تحبط كل عمل وتلقى الرعب في قلوب أعداء
 الإسلام .

وسار محمد بن مسلمة الليل وكمن النهار ، وصادف في طريقه ركبانا
 نازلين فأرسل إليهم رجلا من أصحابه يسأل من هم ؟ فذهب الرجل ثم
 رجع إليه فقال :

— قوم من عذوب .

فترل قريبا منهم ثم أمهلهم حتى إذا بر كوا الإبل حول الماء أغار عليهم فقتل نفرا منهم وهرب سائرهم ، واستاق نعما وشاء ولم يتعرض للنساء ، ثم انطلق حتى إذا كان موضع يطلعه على بى بكر بعث عابد بن بشر إليهم ، وخرج محمد بن مسلمة و أصحابه فشن عليهم الغارة فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء ، وأخذوا فيمن أخذوا ثمانية بن أنال الحنفى من بنى حنيعة وكان سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه .

وانحدر محمد بن مسلمة والذين معه إلى المدينة فخصم رسول الله — ﷺ — ما جاء به وعدل الحرور بعشرة من الغنم ، وكان النعم مائة وخمسين بعير والنعم ثلاثة آلاف شاة

وحجى بئامة إلى رسول الله — ﷺ — فقال لهم :

— أتدرون من أحدثم ؟ هذا ثمانية بن أنال الحنفى فأحسنوا إيساره فربط بسارية من سواري المسجد ، فدخل — ﷺ — على أهله فقال :

— اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه .

وأمر له — ﷺ — بناقاة يأتيه لبها مساء وصباحا ، وما كان ذلك الطعام ليرضى سيد أهل اليمامة . وكيف يقع طعام الزاهدين عند من اعتاد أن يسحر كل يوم شاة موقعا من كفائته ١٩

وجاء إليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما لك يا ثمام ، هل أمكن الله منك ؟

— قد كان ذلك .

واستمر ثمامه مربوطا بسارية من سواري المسجد يرى صلاة المسلمين ويصلى إلى أحاديث رسول الله — ﷺ — ، ويمتلى عجباً باجتماع رسول الله

كل ليلة بأهل الصفة من فقراء المسلمين الذين انقطعوا للعبادة بالمسجد .
إله لا يأكل إلا معهم ويسخ عليهم عطفه وينصرهم بحنان لا يتدفق إلا من
قلب كبير .

وصار رسول الله — ﷺ — يأيته ويقول :

— ما عندك يا ثمامة ؟

— يا محمد عندي خير : إن تقتل تقتل ذا كرم ، وإن تعف تعف عن
شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

وكان أهل الصفة يلقون سمعهم إلى هذا الحوار فيقولون :

— نبينا — ﷺ — ما يصعب بدم ثمامة ، والله لأأكله جزور سمينة من
فدائه أحب إلينا من دم ثمامة .

واصبر عنه رسول الله — ﷺ — ، وما كان عليه السلام بمكر في أكلة
جزور سمينة بل كان يحب أن يهدي الله سيد أهل الإمامة إلى الإسلام ، فالإمامة
في أرض اليمن كانت ريفاً لأهل مكة إنما تمدهم بالحسطة ، فالسلام سيد الإمامة
يهدد قريش بقطع الميرة عنهم .

ونقضى يومان والحوار دائر بين رسول الله عليه السلام و ثمامة .

وبذور من الإيمان تلقى في أعماق سيد أهل الإمامة وأحقاد الرجل
تكشط برقة رسول الله — ﷺ — ، ثم إن رسول الله — ﷺ — في اليوم
الثالث قال :

— أطلقوا ثمامة .

ثم التفت إلى ثمامة وقال :

— قد عفوت عنك يا ثمامة .

لم يطلب منه مالا بل أطلق سراحه دون مقابل وهو يعلم أن أهل الإمامة

أشد الناس بغضا له ولرسالته . إن سيد بنى الإمامة مبهور بسماحة نبى الإسلام وكرمه . إنه قد سعد وهو فى إيساره بالحكمة التى كانت تندفق من فم ابن عبد الله ... إنه استشعر كأن النور المبعث من مسجد الرسول عليه السلام قد ملأ جوائحه وفاض ، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فأغسل وطهر ثيابه ثم دخل المسجد وقال فى انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

وسالت عبرات رقيقة على لحيته ، ثم دنا من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا محمد والله ما كان على الأرض من وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلى . والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلى من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلى . والله ما كان بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى . فلما أمسى جىء له عما كان يأتبه من الطعام فلم ينل منه إلا قليلا ولم يصب من حلاب الناقة إلا يسيرا ، فعجب المسلمون فقال رسول الله ﷺ :

— ثم تعجبون ؟ أس رجل أكل أول النهار فى بيتى كافر وأكل آخر النهار فى بيتى مسلم ؟ إن الكافر لياكل فى سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل فى بيتى واحد .

تحرر قلب ثمامة فلم يعد مأخوذا بسحر الملموس والمرق السموع ، بل تعلم مراقبة الصمير فاكسبت ذاته عمقا وخصبا وثراء فإذا بأنوار المعارف تشرق من باطن قلبه ، وإذا به يستشعر أنه قد انقوب من الله تعالى قربا بالمعنى والحقيقة والصفة ، وأن الله افتح عليه من مزايا لطفه ورحمته

المبسولة بحكم الجود والكرم . وقد تيقن بعد أن ذاق حلاوة الإيمان أن القلوب المشغولة بغير الله لا تدخلها المعرفة بجلال الله ، وأنها محرومة من الكشف عن باب الفوز الأكبر .

هل ثمامة من معين النبوة فأصبح متفرحا بالله يعيش في الله وبالله ومع الله ، قد امتلأ فؤاده بحب رسول الله — ﷺ — حتى إنه صار لا يطيق أن يفارقه . ولكن حتى متى يبقى سيد أهل الإمامة في المدينة ؟ وإذا بقي في المدينة أيعمل أمواله إليها ؟ إنه يرى أن عودته إلى لجماعة أكثر نفعا للإسلام من بقائه مع صحابة رسول الله — ﷺ . إنه هناك سيدعو قومه إلى دين الله وإنه ليرجو أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، ولكنه رأى أن يستشير رسول الله عليه السلام قبل أن يتخذ قرارا ، فأقى النبي — ﷺ — وقال له :

— يا رسول الله إني خرت معتمرا وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فإذا ترى ؟

فأمره أن يعتمر فامتطى راحلته وانطلق إلى مكة فإذا به يرى الكعبة بخياله وقد حلت من أصنام قومه ، إنها كعبة أبيه إبراهيم خليل الرحمن منارة التوحيد وأول بيت وضع للناس .

إنه حصل بالإسلام على شرف المعلومات وأمد قلبه بجنود العلم والحكمة والتفكير ، وسعد طوال الرحلة بمشاهدة ربه ومراقبته والنظر إلى وجهه الكريم . وتهل بالفرح لما انحلى في فؤاده حقيقة الحق في الأمور كلها فهانت في عييه كل القوى الأرضية . وامتنصر كل سلطان بعد أن عرف سلطان الله وحوله وقوته فعزم على أن يعلن إسلامه في مكة معقل الشرك وحصن أعداء الإسلام الحصين .

وقدم بطن مكة ورأى الناس يطوفون بالحرم وقد امتلأ بالأصنام
وبدءات الشرك ترتفع ها وهناك ، فنبى بصوت جهورى :
— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد والسعة
لك والملك ، لا شريك لك .

وتعلقت أنظار سادات قريش بسيد أهل الإمامة وقد ملئت عجباً ، فما
بال ثمامة لا يشرك في تليته كما يشركون ؟ إن تليتهم كانت منذ تفتحت
أعينهم على الدنيا : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا
شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وقاموا إليه يناقشونه في أمر هذه التلية وكانت أول تلية في مكة يعلن
فيها أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشتد الحوار وأعلى ثمامة على الملأ
أنه قد أسلم وأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .
وثارت الدماء حارة في العروق فأخذت قريش فقالوا :
— لقد احترأت علينا ، أنت صوت يا ثمامة .

ولم يحفل بشورهم ، كان مطمئناً . إنه عرف اهدى بعد الضلالة ،
وتفتح قلبه على النور بعد الظلمات ، وذاق لذة الأنس بالله وحمل الأمانة
والنظر إلى ملكوت السماء . كان على نور من ربه فقال وهو ثابت الجنان .
— أسلمت وتبعت خير دين ، دين محمد . والله لا يصل إليك حبة من
حسنة حتى يأتني فيها رسول الله — ﷺ .

وغضبوا غضباً شديداً فهذا القول يعلى شأن ابن أبى كبشة في أرض
عداوته ، ويفتخ أناساً تميل قلوبهم إلى دين ابن عبد الله ، ويزيد في هوة
الشقاق الذى بدت ملامحه في قريش ، فارتفعت أصوات حانقة تقول .
— اضربوا عنقه .

فقدموه ليضربوا عنقه فإذا هو ثابت كالطود ، وإذا بدهشة مشوبة
بأعجاب قد ملأت العيون التي امتدت إلى سيد بني الإمامة ، وإذا بذكريات
حبيب وأتباع محمد الدين تلقوا الموت مستبشرين تعود إلى الأدهان ، وإذا
بأسئلة حائرة تدور في العقول .

— أكانوا يتلقون الموت فرحين لو كانوا يؤمنون بسر اب ١٩ وقال قائل

مهم :

— دعوه فإنكم تحتاجون إلى الإمامة .

حقاً إنهم يحتاجون إلى الإمامة فقد كانوا يعتمدون عليها في ميرتهم فهي
أرض الحطة ، وإن قتل سيدهم حتى لو عرف أنه قد أسلم سيدفعهم إلى
حبس الحنطة عنهم إن لم يثأروا لدمه .

فخلوا سبيله وما كان أمامهم إلا أن يفعلوا ، فخرج ثمانية إلى الإمامة فمنع
قومه أن يحملوا إلى مكة شيئاً فقد كان يعنى ما يقول عندما أعينهم أنه لن
يصل إليهم حبة من حطة حتى يأذن فيها رسول الله — ﷺ .

وأصر بقريش الخوع بعد أن منع ثمانية عنهم ما كان يأتي من الإمامة ،
وفكروا في أن يبعثوا إلى رسول الله — ﷺ — كتاباً يبتسمون فيه أن يأمر
ثمانية بأن يحلّي بينهم وبين ميرتهم ، ولكمهم رأوا في ذلك إدلالاً لهم ،
فتواصوا بالصبر انتظاراً للفرح — ومن أين يأتيهم ذلك الفرح بعد أن عادوا
الله ورسوله ! وبعثوا إلى ثمانية يسألونه أن يعدل عن قراره فقال لهم :

— إني أقسمت برب الكعبة لا يصل إليكم من الإمامة شيء مما تتمعون
به حتى تتبعوا محمداً عن آخركم .

إن ما يسألهم ثمانية إما هو شيء قد رفضوه وحاصوا في سبيله حرواً
وفقدوا الآباء والأبناء والأحبة لكيلا يقرؤا بالإسلام ودعوة ابن عبد الله ،

أفيخضعون لصعظ ثمامة دفعا للجوع ؟ إن المسلمين تحملوا الجوع أيام حصارهم في شعب أبي طالب حتى أكلوا خشاش الأرض وهم ليسوا أقل إيماناً بالهتيم من إيمان أصحاب محمد .

وصبروا على الجوع وراحوا يخلطون الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار ، إنه العلهز أسوأ الطعام . وما استطاعوا أن يحمّلوا ما احتمل المسلمون أيام الحصار فكتبوا إلى رسول الله — ﷺ — وقد جللهم الدل واستشعروا الهزيمة في أعماقهم :

« ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟ فقد قتلنا الآباء بالسيف والأبناء بالجوع . عهدنا بك وأنت تأمر بصله الرحم وتحث عليها ، وإن ثمامة قد قطع عما ميرتنا وأضر بنا ، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يحل بيننا وبين ميرتنا فافعل » .

فكتب إليه رسول الله — ﷺ — أن حل بين قومي وبين ميراتهم ، وحملت الخنطة من الإمامة إلى مكة ففرح الناس بها ، وقد فعل كرم محمد عليه السلام وشهامته في قلوب المكين الذين كان هواهم مع سبي الإسلام عليه لسلام فعل السحر ، فقد زادت في صدورهم دائرة النور وأصبحوا أكثر رغبة في أن ينطلقوا إلى رسول الله — ﷺ — ليشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

كان أبو سفيان بن حرب وحالد بن الوليد وحكيم بن حزام وصفوان ابن أمية محتممين عند الحرم وقلوبهم شتى ، وإن كان كل تفكير هم يدور حول محمد بن عبد الله وما جاء به من دين . فأبو سفيان يبتز ذكريات مجده وما فعله لتكون له السيادة في قومه ، إنه تزوج في قبائل العرب والعشائر وأصهر بنيه لسادات القوم وأدخل بناته على ذوى الحسب والجاه حتى يكون الأصهار والأسباء ذو عدد وذوى جاه وذوى قوة ليكسب بهم شيئا يضيف به سببا إلى الأسباب التي تمهد له السيادة والسلطان .

كانت رعاة قريش هدفه وكانت كل أمله ومحور تفكيره ومصدر أفعاله والمتحكمة في كل تصرفاته وعلاقته بالناس . وكان يحسب أن صحبة أبيه حرب بن أمية لبشر بن عبد الملك أحي أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ستعلى من شأنه في أعين قومه . ولما قدم بشر إلى مكة وتزوج الصهباء بنت حرب أخته أثلج صدره فما من أحد غيره في قومه قد ارتبطت الأسباب بينه وبين الملوك !

لما سافر إلى فارس ودخل على كسرى وعاهد ملوك الحيرة وارتفع شأنه ، ولم يعد في قريش من ينافسه الزعامة بعد أن مات أبو طالب والزيير ابن عبد المطلب وشيوخ الهاشميين . وقد تأكدت زعامته يوم أن أهدي ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحروا أعز قريش ، لها قدم وهو عروس بهد بنت عتبة وبلغها ما قال ملك اليمن فقالت له :

— لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك .

فقال لها :

— يا هذه دعى زوجك وما يختاره لنفسه ، والله ما عخرها عبرى إلا بحرته .

وظلت النحائر فى عقلها حتى خرج فى اليوم السابع وكان ذلك بمثابة تنويجه والاعتراف بزعامة على فريش بلا مازع .

واطمأن إلى السؤدد والسلطان وطن أن الزعامة قد انتزعت من البيت الهاشمى لتستقر فى البيت الأموى ، حتى إذا ما كادت تفتت فى الضمائر هذه الحقيقة قام محمد بن عبد الله يدعو إلى دين جديد ويقول إنه نى يأتى الوحى من السماء ، فقام فى وجه دعوته يقاومه فى ضراوة فقد أحس أن شرف النبوة لا يمكن أن يديه شرف ، ولو أن هذه الدعوة قد بقيت فى الأرض لمن يدرك بيت — مهما سما — ذلك الشرف الذى ناله البيت الهاشمى ، فأقسم أن لا يؤمن به أبدا ولا يصدق .

إبه يعلم أن محمدا صدوق لا يكذب ، ولكنه قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فراح يقاوم دعوته ويؤلب سادات قومه وسفهاءها على الهاشمى الذى سينتزع منه الرياسة والشرف ، فما كان يستطيع بشأته أن يتصور أن هناك ما وراء الملك وسلطان الأرض .

وأسلمت ابنته أم حبيبة فاستشعر مرارة الخزى والعار ، فدعوة محمد الهاشمى قد دخلت عقرداره ووجدت استحابة من إحدى فلدات كبد ، وزرع ذلك إيمانه الواهى بعدالة قضيته فلم يشأ أن يخدع نفسه واعترف فى عين ذاته لذاته أنه يقاتل ابن عبد الله حمية وكرهية أن يذهب شرفه وهاجرت ابنته أم حبيبة مع من هاجر إلى الحيشة فعادت تؤكد أن حبها الله ورسوله يفوق حبها أهلها وعشيرتها . إنها تركت الأهل والأوطان فرارا

بدينها خشية الفتنة فأعلت على الملأ أن ما جاء به محمد بن عبد الله يهون في سبيله الآباء والأبناء ، فجلبته مرة أخرى بالعار .

وكان القتال في بدر وإذا بأبي جهل وعتبة وسادات قريش يلقون مصارعهم ، وإذا بهزيمة حماة البيت تنتشر في القبائل ، وإذا بالخزن ينزل في فؤاد أبي سفيان حتى ليكاد أن يمزقه . وفي طلعات اليأس لمع بصيص من أمل ؛ ارتد عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة عن دين محمد واعتنق النصرانية دين الأحباش . إن هي إلا أيام حتى تعود أم حبيبة إلى دار أبيها باكية نادمة مستغفرة ، وستكون عودتها طعنة قاتلة للدعوة الجديدة . ولكن الأيام مرت والسنين كرت وأم حبيبة هناك في الحبيشة صابرة على ديها قد آثرت العزلة وقطعت عن قلبها جواذب الدنيا لتنجذب إلى السماء .

وطاف بدهش أبي سفيان بن حرب ما كان بينه وبين محمد وصحبه يوم أخذ فهمت نفسه أن تشرح ، ولكن سرعان ما تذكر تلك الريح التي قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم يوم الخندق وذلك الخميس الذي سرى في ذلك اليوم بين الناس بأن إله محمد قد منعه ، فاضطرب نفسه وخفق قلبه واربد وجهه فقدا يتلفت بعيون زائفة هنا وهناك حتى لا يفتن جالسوه إلى ما يعانى من كرب .

وجاشت الذكريات في وجدانه وكانت جميعها تحز نفسه وخزا أليما ، فقد أثارها ابنته أم حبيبة بعد أن جاء من الحبيشة من يخبره أن محمدا كتب إلى العجاشي أن يزوج بنت أبي سفيان وأنها قد وكلت خالد بن سعيد ليروجها من نبي الإسلام .

وتعلم أبو سفيان في مجلسه فلم يحتمل نار الغيظ التي اندلعت في

جوفه ، وزاد في حنقه أن الرسول الذي جاءه من الحبشة أخبره أن ابنته كادت تطير من الفرح لما علمت أن محمد بن عبد الله قد بعث بخطبها ، وأنها أعطت الجارية التي بشرتها سوارين ، وأنها قالت لها بعد أن قبضت الصداق : « كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدي شيء من المال ، وقد جاءني الله عز وجل بهذا » . فأبى الجارية أن تأخذ شيئا وردت السوارين وقالت : « إن الملك أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا » .

أم المؤمنين !؟ ابنته أم حبيبة تصبح أما لأعدائه ؟ لقد دارت به الأرض لما بلعه النباُ وبدل جهدا عظيما ليبدو هادئا ، ولكن الكلمات فرت من بين شفتيه فقال :

— هذا الفحل لا يجده أنفه .

* * *

وشرد حكيم بن حزام يفكر وهو حزين ؛ إنه يخشى إن ظهر محمد أن تذهب دار النبوة مكربة قريش ، إنه صاحبها وقد دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة ولم يدخلها أحد من قريش للمشورة حتى يبلغ أربعين سنة . ورأى الناس يطوفون بالبيت الحقيق فاستألف قواده شفقة أن يأتي يوم ينقطع فيه الطواف حول البيت ، ولكن سرعان ما انقشع خوفه لما رآه في أعماق نفسه ما جاء في قرآن محمد عن الحرم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين » . إنه يوقر البيت وقد جعله قبلة أتباعه ، ولكنه يسفه الآفة وسائلهم إلى الإله الأعظم .

أمر يد محمد أن يكفروا بؤد وسواع ويغوث ويعوق ونسر واللات والعزى ومناة وهبل وإساف ونائلة ، وأن يؤمنوا بأن لهذا الكون العريص

إلها واحدا لا شريك له وأنهم مبعوثون ليوم عظيم ١٩ إنه لا يستطيع أن يؤمن
أن الأجساد تبعث بعد أن تصبح ترابا وعظاما ، وراح ينشد مرثية أهل
بدر :

فماذا بالقلب — قلب بدر — من « الشيزى » تكلل بالسنام
يخبرنا الرسول : بأن سنحيا وكيف حياة أصدقاء وهام
إنه كان يحب محمدا زوج عمته خديجة ، وكان يهرع إلى دار الطاهرة
سيدة نساء قريش ليلقى محمدا إلى الأمين قبل أن يزعم أن الخبر يأتيه من
السماء ، أما بعد أن قال زوج عمته إنه رسول رب العالمين فقد ابتعد وتبرأ
منه ، فما استطاع أن يؤمن أن الله يبعث بشرا رسولا

وكان قلب صفوان بن أمية يطمح بالحقد على محمد ، إنه لا يستطيع أن
يسى أنه قد وتره وقتل أباه أمية بن خلف يوم بدر وقتل عمه أبي بن خلف
يوم أحد ، ولن تحمد النار التي تنلظى في أحشائه قبل أن يدرك منه ثأره ،
فوطن النفس على محاربة محمد ولو لم يبق في قريش على عداوته غيره .

كان يحز في نفسه أن الإسلام أخذ يتفشى في قريش وأن بعض الموتورين
قد نسوا ثأرهم وخرجوا إلى المدينة وأتوا ابن أبي كبشة وأعلنوا إيمانهم
برسالته ، وما كان يقادر على أن يتصور أن أنوار اليقين قد أشرقت في
قلوبهم . وكيف لمن أعمى الغضب بصيرته أن يظن أن ملكوت السماء ؟

جلس رسول الله ﷺ — يحدث أصحابه فأتقوا إليه السمع
 مستبشرين متفرحين في الله ، فقد أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفي الله ،
 يستشعرون هدوءاً نفسياً وإن كانت أفئدتهم ترتجف هرقاً من خشية الله .
 فقد عرفوا لذة النظر إلى الله والأس به وتصفية قلوبهم وتزكيتها وجلاها
 بذكره ، ففاضت عليهم الرحمة وانشرح صدورهم ، وأشرقت فيها
 الأنوار وانكشفت الأسرار وتألقت فيها حقائق الأمور ، فهم على نور من
 رحمهم قد توكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً .

كانوا يعيشون في فراغ ديني وفراغ سياسي ليس بينهم إلا الأحقاد
 والشحناء والبغضاء يخشون أن يتخطفهم الموت ، قد ران عليهم حزن
 أبدي ، تقشعر جلودهم كلما راودتهم فكرة الفناء ويريد شقاوتهم ذلك
 العبور الشديد بين العقل والوجدان ويحرك شجن أصحاب الصمائر الحية
 منهم ذلك الظلم الذي ينزله الأقوياء بالضعفاء وهضم الأغنياء لحقوق
 الفقراء . فلما اصطفى الله رسوله وآتاه الحكمة والعلم والكتاب المنور ،
 وهداهم ربهم إلى الصراط المستقيم إذا بهم يتحررون من الخوف والقلق
 ورهبة الموت ، فالتعالم التي تترس على الرسول من السماء تؤكد لهم أن
 الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر ، فخضدت أشواك الموت وفتحت
 أبواب الخلود لشباب دائم فرير العين . وكبحت جماح الطغيان ، وبدرت
 في سويداء القلوب الحب فحببت الأغنياء في الفقراء وحببت الفقراء في
 الأغنياء ، وقضت على ما كان يمكن أن يشأ من صراع بين الطبقات

وكان لهم في رسول الله أسوة حسنة ؛ إنه يعمل ولكنه لا يعمل للجمع المال بل لإسعاد البشرية جمعاء ، لا فصل لعربي عنده على عجمي إلا بالتقوى . إذا ما حصل على أموال وكثيرا ما أفاء الله عليه فقد كان ينفقها على الفقراء والمساكين لا يدخل بيته إلا بعد أن يتخلص من كل صفراء وبيضاء عنده ، فضمرت النزعات المادية التي كانت تسيطر على المجتمع المكى والمجتمع اليثري على السواء ، واشتدت الطاقات الروحية الإبداعية فانتسعت منابع الرحمة والعمل الصالح لوجه الله . وكانوا جميعا يعملون بعد أن لقنوا أن العمل عبادة ، ونصرة انظلموم عبادة ، ومساعدة الضعفاء عبادة ، وأن استقبال الناس بالبشر صدقة .

كانت ظلمات الجهل تجثم على يثرب ، وما كان يتنفس فيها إلا أساطير اليهود وبعض قشور من العلم الأول والكتاب الأول ، وكان العرب يربون إلى ذلك العلم مبهورين . فلما جاء الرسول الكريم إلى المدينة ووضع أسس مجتمع جديد يشرع له رب العالمين إذا بمدية الرسول تصح مدينة مثالية تفوق كل المدن العاضلة التي ما كان لها وجود إلا في مخيلة طائفة من الفلاسفة الحالمين ، وإذا بملكوت الله الذي ابتهل السيد المسيح في صلواته أن يأتي قد أصبح حقيقة واقعة في الأرض ينزل عليها العلم من العليم والحكمة من أحكم الحاكمين ؛ فإذا برعاة الإبل يتهاؤون ليكونوا رعاة الشعوب .

وما كان يستمد سلطانه من ملك عظيم أو إمبراطور جليل بل من رب العالمين ، فكانت كلمته قانونا فما يطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، وكانت أفعاله سنة ، فهم يقرعون في المساجد قول الله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن ﴾ (غزوة الخندق)

كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (١). وقد فُجِّرَ بأعماله ثورة اجتماعية تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وبذر بذور الروحانية التي كبحت جماح التحلل الاجتماعي ، وغرس في النفوس دعائم قوية قادرة على حمل أمانة العمل على بشر دين عالمي رسالته إسعاد البشرية والأخذ بأيدي الناس من عياهب القلق والفناء إلى رحاب الطمأنينة والخلود .

إنه رأى سلمان الفارسي يوم أن كانوا يحمرون الخدق قد عجز عن تحطيم الكدية التي اعترضته فنزل — ﷺ — إليه وأخذ المعول من يده وضرب ضربة فكسر ثلثها ، وهرئت برقة فخرج نور من قبل اليمن كالصباح في جوف ليل مظلم فكبر رسول الله وقال : أعطيت معاتج اليمن ، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله — ﷺ — وقال : أعطيت معاتج الشام ، ثم ضرب الثالثة فقطع بقيه الحجر وبرق برقة فكبر وقال : أعطيت معاتج فارس . وقد بات أصحابه منذ ذلك الوقت يؤمنون أنهم ورثة الفرس والروم .

لقد ابثق من المدينة ضوء وكان رسول الله — ﷺ — وصحبه على ثقة بأن ذلك الضوء سيغمر العالمين ، ولكن جيران المدينة من مكيين وخطمانيين وأسديين ويهود يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأفئ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . فكان عليه السلام لا ينتظر حتى يفجأه عدوه في عقر داره ، بل يعث السرايا شأن القائد المحك الخبير ليشتت الجموع قبل أن تتحرك ، ويلقي الرعب في قلوب أعدائه ، فما كان يؤمن بالسلام الموهوم وقد تعلم من القرآن أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض

لفسدت الأرض .

صار المسجد ملاذ المؤمنين من الفراغ قد وجدوا في تعاليم السماء خلاص نفوسهم البشرية ، وكان رسول الله عليه السلام يشعل طاقات إبداعية في المجتمع الذي كان هاجعا من أمد قريب ، ويرشد الناس إلى الطريق لينكشف للناس باب الفوز الأكبر .

أصبحت القلوب صالحة صافية تطلب الحق قد حسنت صلاتها بالله وبالأخريين ، ولا جرم فرسول الله يعلمهم الجهاد في الله ليهديهم الله سله ويقول لهم على الدوام : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . فاستطاع أن يؤلف بين العقل والوجدان ، وأن يقضى على الشعور بالوحدة ، وأن يجعل للحياة هدفا أسمى من جمع المال وتغذية الحياة المادية وأمجاد الأرض .

وكان رسول الله ﷺ — يتحدث أصحابه والحزن يعتصر قواده ، فقد وجد على عاصم بن ثابت وأصحابه أصحاب الرجيع وجدا شديدا ، فقد بعثهم عيونا إلى مكة يتحسسون أخبار قريش ليأتوه بها وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري .

إن عمه العباس بن عبد المطلب كان يبعث إليه بأخبار قريش وكانت حزاعة تحمل إليه أنباء أعدائه ، ولكنه كان يبعث أصحابه ليعرف أخبار مكة التي أبت أن تخفي بيه وبين العرب .

وراح عاصم وأصحابه يسرون الليل ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع — وهي ماء هذيل — نهر إليهم ما يقرب من مائة رام من بني لحيان فاقفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوه في منزل نزله ، فلما أحس عاصم والذين معه باللحيانيين صعدوا في جبل هناك فقال لهم اللحيانيون :

— انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحدا .

فقال عاصم .

— أما أنا فلا أنزل على دمة وعهد كافر .

فرموهم بالبل فقتلوا عاصما وستة منهم ، وبرل إليهم ثلاثة على العهد وهم حبيب وزيد وعبد الله بن طارق ، فلما أمسكواهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا خبيبا وزيدا وامتنع عبد الله وقال :

— هذا أول الغدر بعهد الله ، لا أصححكم .

والتفت إلى القتلى وقال :

— إن لي بهؤلاء أسوة .

فعا لجوه فأبى أن يصحبهم فقتلوه ، واطبقوا بحبيب وزيد ودخلوا مها مكة في شهر القعدة فاعوهم بأسيرين من هذيل كانا في مكة ، فحبس حبيب ورید إلى أن تنقضى الأشهر الحرم .

فلما انقضت الأشهر الحرم خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه في الخل ، فلما قدم للقتل قال لهم : دعوني أصلي ركعتين ، فتركوه فركعتين وقال لهم : والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع لردت . ثم صلبوه ليراه الوارد والصادر فيذهب بخبرها إلى لأطراف ثم قالوا له :

— ارجع عن الإسلام محل سيئتك وإن م ترجع لنقتلك .

قان :

— إن قتل في سبيل الله لقليل ، اللهم إنه ليس هنا أحد يبيع رسولك

عسى السلام فلهه أنت عسى السلام وبلعه ما يصعب يا .

كان رسول الله جالسا مع أصحابه فأحده ما كان يأحده عدد برول الوحي فسمعه أصحابه يقول :

— وعليه السلام ورحمة الله وبركاته .

فلما سرى عنه — ﷺ — قال :

— هذا جبريل عليه السلام يقرئني من حبيب السلام ، خبيب قتله

قريش .

لم ينس نبي الإسلام عليه السلام ما تلقى أصحابه من عذر بني لحيان فأظهر أنه يريد الشام ، وعسكر لغرة هلال شهر ربيع الأول سنة ست من مهاجره في مائتي رجل معهم عشرون فارسا واستحلف على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، ثم أسرع المسير حتى انتهى إلى بطن عُران وبينها وبين عُسفان خمسة أميال حيث كان مصاب أصحابه ، فترحم عليهم ودعا لهم ، فسمعت بهم بو لحيان فهربوا في ريوس الجبال فلم يقدر منهم على أحد ، فأقام يوما أو يومين فبعث السرييا في كل ناحية فلم يجدوا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عسفان ، ثم انصرف — ﷺ — إلى المدينة بعد أن عاب أربع عشرة ليلة وهو يقول :

— آيئون تائبون عابدون ، لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعشاء السفر

وكتابة المتقلب وسوء النظر في الأهل والمال .

ركب أبو ذر راحلته واطلق في الفضاء العريض وقد خلف غمار ورائه . إنه خارج إلى مدينة الرسول وقد عزم على أن لا يفارق نبي الإسلام عليه السلام بعد أن فاته خير كثير ، فهو لم يخرج إلى مياه بدر مع البدرين ولم يشهد أول انتصار للمسلمين ، ولم يدب بسيفه عن رسول الله ﷺ — يوم أحد ، ولم يعمل في الخندق مع العاميين . وإن ما نزل من القرآن في هذه المواقف العظيمة يتراقص على شفتيه ويجعل الدموع تترقق في مقلتيه . وراح يرن في وجدانه قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه ، إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنتوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله عفو رحيم » .

وراح أبو ذر يقلب وجهه في معبد الله وهو مشدوه؛ كانت الروابي والمصايب وسفوح الجبال والشواحي قد كسيت بالنوار الأصفر، وزادها روعة تلك الفضة التي كانت تنسكب على الأرض من القمر الذي اكتمل بدرا، والسماء الصافية الزرقاء التي كانت تلثم عند الأفق البعيد البساط الأصفر الذي يوج باللجين، فامتلاّت نفس أبي ذر بشوة، واستشعر أنه قريب من الله قربا بالمعنى والحقيقة والصفقة، وإذا به ينادي بكل وجوده : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ (١) .

* * *

وشرد أبو ذر يتذكر تلك الأيام التي كان يخرج فيها مع رفاقة من غفار لينس العارة على القوافل ويقطع الطريق ؛ إنه كان ينقض على المسافرين الآمنين انقصاض الليث على فريسته ، وكان الرفاق الذين يعيشون على السلب يغمروه بالمدح ولكن كان بين حبيبه قلب متأهب لاستقبال النور ، فما إن مد عينيه إلى مواقع النجوم وفكر ، سر السماوات والأرض حتى اهتدى إلى أن لهذا الكون ربا ، فهجر قطع الطريق وراح يصلى لله ويتوجه حيث وجهه الله ؛ قد استعد لمعرفة ربه بقلبه لا بجارحة من جوارحه .

وقد بلغه أن رجلا ظهر بمكة يرغم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء وأن قومه كذبوه وآدوه ومنعوا الناس عنه فلا يمر به أحد إلا حذروه إياه ، فشد الرحال إلى الحرم ، وقاده على بن أبي طالب إلى حيث كان رسول الله ﷺ .

ورن في ضميره صوت النبي عليه السلام وهو يقرأ عليه القرآن ثم قوله له :

— ممن أنت يا أخا العرب ؟

— من غفار .

إنه ليرى وهو يخط على راحلته في سكون الليل وجه النبي عليه السلام وقد أشرق بابتسامة خفيفة وهو يرفع بصره فيه ويصوبه تعجبا لما كان يعلم من غفار ، وداعب أذنيه قول النبي عليه السلام :

— إن الله يهدي من يشاء .

— إن أحداث تلك الأيام قد حفرت في عين ذاته ؛ إنه شهد وهو مستريح الضمير أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وإن رسول الله

ﷺ — قال له :

— يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بعثك طهورنا فأقبل .

ولكنه كان واثقا بربه معتزاً بدينه فقال :

— والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم .

وخرج إلى المسجد فقال :

— يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده

ورسوله .

فقاموا إليه ومالوا عليه وصربوه ، وأقبل العباس فأكب عليه ثم أقبل على

القوم فقال :

— ويلكم ! تقتلون رجلا من غمار وغمركم وممركم على غمار !

فأقلعوا عنه فذهب إلى رزم وعسل عنه الدم ، وفي صبيحة اليوم التالي

انطلق إلى الحرم ووقف وصاح بأعلى صوته :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش . إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

محمدا رسول الله .

فقاموا إليه وأشبعوه ضربا فخر معشيا عليه ، وأقبل العباس يواسيه .

العباس ؟ إنه في حيرة من أمر هذا الرجل ، إنه يخف لتخليص المسلمين من

أدى قريش ، وقد خرج مع ابن أخيه يوم العقبة ليأخذ له البيعة من

الأنصار ، وإن الرسل تمشي بينه وبين رسول الله عليه السلام بالأخبار .

وقد نهى رسول الله عن قتله يوم بدر !

وراح أبو ذر يتذكر يوم جاء رسول الله ﷺ — إلى غمار ، فقد

خرج الناس لاستقبال الرسول الكريم ، فلما رآه أبو ذر هتف : « هو والله

رسول الله » . فقال الجميع في فرح : « جاء نبي الله » . وجعل الولا

والصبيان والإماء يقولون : « هذا رسول الله قد جاء » .
 ونزل رسول الله عن راحلته وسار أبو بكر معه ، وقد أقبل الناس
 يسلمون على النبي الحبيب وفي الوجوه استبشار وفي العيون عبرات وفي
 الصدور فرح مياض ، وحلّس الرسول عليه السلام وقام أبو بكر يذكر
 الناس ، ثم قرأ النبي القرآن وراح يدعو الناس إلى الإسلام فأقبلوا يبأيعون .
 وطلب حفاف بن رخصه العفارى من النبي — ﷺ — أن يكتب
 كتابا لقومه ، فكتب عليه السلام لبنى عفار : أهدم من المسلمين لهم ما
 للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وأن النبي عقد لهم دمة الله ودمة
 الرسول على أموالهم وأنفسهم والنصر على من بدأهم بالظلم ، وأن النبي
 إذا دعاهم ليصروه أحابوه وعليهم نصره إلى من حارب في الدين ما بل بحر
 صوفة ، وأن هذا الكتاب لا يحول دون إثم
 ثم قال عليه السلام : « غفار غمر الله ها » .
 ونامت غفار التي كانت تعيش على السطو وقطع الطريق في رعاية الله ،
 والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *

ولاحت المدينة لعيني أنى ذر فحقق قلبه شوقا ، إن هي إلا مرحلة حتى
 يدخل المدينة التي اهتاحت بالقرآن وعمرت بالوحي والتنزيل وتردد بها
 جبريل وضجت جنباتها بالتقديس والتسبيح وانتشرت منها أنوار اليقين .
 إن بين ضلوعه لوعة وصباة وتشوقا متوقدا لجمرات الرسول ومدينة
 الرسول وأهلها الذين دعا لهم النبي — ﷺ — فقال : « اللهم بارك لهم
 في مكياهم وبارك لهم في صاعهم ومُدَّهم » .
 وورد أبو ذر المدينة فترجل ومشى ياكيا فقد بلع الانفعال عايته ، إنه

يرى مسجدا الرسول وإن هي إلا أن يجتاز باب الرحمة حتى يرى محمدا الطيب وتقدم على استحياء ودلف إلى المسجد فإذا سوارى من جنوع الحبل طرحت عليها العوارض والخصف والإذخر وإذا هو أقل من مائة في مائة ، وراح يتلفت في رهبة فإذا برسول الله ﷺ — جالس في مجلس المهاجرين عند الأسطوانة التي بعد أسطوانة التوبة إلى الروضة ، وهي عمود من عمد المسجد ارتبط فيه أبو لبابة لما خان الله ورسوله حتى تاب الله عليه .

ووجع قلب أبي در ، وسار وهو مأخوذ بروعة اللقاء حتى إذا قام على رأس المجالسين قال :
— السلام عليك يا رسول الله .

ورحب النبي عليه السلام بفتى عفار وجلس أبو در يصعق إلى سحر اليان حتى إذا حان أوان الصلاة قام بلال على مبارقة في دار حفصة أم المؤمنين يؤذن ، فأقبل الناس ليصوموا حلف رسول الله ﷺ ، وقام أبو در ليصلي أول صلاة مع نبي الإسلام والمهاجرين والأنصار .

وجاء الليل فانضم أبو ذر إلى أهل الصفة ، وكانوا قوما عاكفين على العبادة قد أعرضوا عن الدنيا وزينتها لا مارل لهم وما لهم مأوى غير المسجد ، يدعوهم الرسول إليه إذا تعشى فيفرقهم على أصحابه وتتعشى طائفة منهم معه ، وقد كان أبو در من هذه الطائفة .

وانكف الناس وطرح رسول الله ﷺ — حصيرا وراء بيت فاطمة ووقف في المخراب فكان يساره إلى باب عثمان ، وراح يصلي وأبو ذر يرقبه وقد ألقى إليه سمعه فإذا به عليه السلام يقرأ : ﴿ إن تعدسهم فإنهم عبادك

وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴿١﴾ .
 إن رسول الله عليه السلام يركع ويسجد بها طوال الليل حتى أصبح ،
 فقام أبو ذر إليه فقال :
 — يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع وتسجد
 بها .

فقال عليه السلام :
 — فإني سألت الله الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا
 يشرك بالله عز وجل .

وصار أبو ذر يمضي في المسجد البهار والليل ، يرى على بر أفي طالب
 وهو يقوم الليل عند الأسطوانة التي خلف أسطوانة التوبة ، فتوطلدت
 بينهما الصداقة وكان حبيبا لله وفي الله ، ويصفي إلى أحاديث رسول الله
 فيمتلئ حكمة ، ويشاركها بكر وعمر وعثمان وسلمان وسادات
 المهاجرين والأنصار مجالسهم فأشرقت أنوار المعرفة في قلبه فإذا هو على
 نور من ربه .

وذاث يوم دخل عمر المسجد وأبو ذر جالس وحده ، فقال عمر :
 — لم تجلس وحدك ؟

— اجلس أ الصاحب الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من
 صاحب السوء ، ومحل الخير خير من محل الشر ، والأمانة خير من
 الخاتم (٢) ، والخاتم خير من ظن السوء .
 ونال أبو ذر الحصوة عند النبي — ﷺ ، فكان عليه الصلاة والسلام

(٢) أو هي أكثر يظهر .

(١) المائة ١١٨ .

يبتدئه إذا حصر ويففقه إذا غاب . وذات يوم أتى أبو ذر رسول الله ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ، ثم أتاها وقد استيقظ ، فقال الرسول لما رأى أبا ذر :

— ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق ؟

— وإن زنى وإن سرق .

— وإن زنى وإن سرق !؟

— وإن رنى وإن سرق على رعم أنف أبي ذر .

خرجت قريش يوم الأحزاب وقائدها أبو سفيان بن حرب ،
 وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني
 فزارة ، والحارث بن عوف بن حارثة المري في بني مرة ، ومسر بن رحيلة
 فيمن تابعه من قومه من أشجع .

وكانت تتبع عيينة بن حصن عشرة آلاف فتاة فكان يعرف بالأحق
 المطاع ، فلما اشتد حصار الأحزاب للمسلمين بعث رسول الله —
 ﷺ — إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان
 فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ،
 فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة
 الصلح إلا المروضة في ذلك .

فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد
 ابن عباد فذكر ذلك لهما واستشارهما ، فقالا له :

— يا رسول الله أمرت به نصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من
 العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

— بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنسى رأيت العرب قد
 رمتكم عن قوس واحدة وكالوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم
 من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال سعد بن معاذ :

— يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة

الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى^(١) أو يما ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم :
— فأنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال :
— ليجهدوا علينا .

وهزم الله الأحزاب وحده ، وفتح المسلمون قريظة ، ثم خرج عليه السلام إلى بنى الحين يطلب بأصحاب الرجيع ، ثم قدم المدينة فلم يبق بها إلا لئالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن في خيل من غطفان على لقاح^(٢) لرسول الله — ﷺ — بالغابة^(٣) وفيها ابن أبي ذر وامرأته ليل ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة في اللقاح .

وغدا يريد الغابة سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي متوشحاً قوسه ونبله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس له يقوده . حتى إذا علا ثنية الوداع نظر إلى بعض خيول عيينة والذين معه فأشرف في ناحية سَلَع ثم صرخ :

— واصباحاه !

ثم خرج يشتد في آثار القوم وكان مثل السبع حتى لحق بالقوم ، فجعل

(١) القرى . ما يصنع للضيف من طعام .

(٢) اللقاح : الإبل الخواص ذات الألبان .

(٣) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام ، فيه أموال لأهل المدينة .

يردهم بالببل ويقول إذا رمى :

— خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرصع ^(١) .

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربا ، ثم عارصهم فإذا أمكنه الرمي رمى ، ثم قال :

— خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرصع .

فيقول قائلهم :

— أو يكمننا هو أول النهار .

ويبلغ رسول الله — ﷺ — صباح ابن الأكوع ، فصرخ في المدينة :

— العزع العزع ! يا خيل الله اركبي .

فترامت الخيول إلى رسول الله — ﷺ — ، وكان أول من انتهى إلى

رسول الله — ﷺ — من الفرسان المقداد بن عمرو حليف بنى رهرة ،

ثم كان أول فارس وقف على رسول الله — ﷺ — بعد المقداد من الأنصار

عباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل ، وسعد بن زيد أحد بني

كعب بن عبد الأشهل ، وسيد بن ظهير أخو بني حارثة بن الحارث ،

وعكاشة بن محصن أخو بني أسد بن خزيمه ، ومخرز بن بضلة أخو بني

أسد بن خزيمه ، وأبو قتادة الحارث بن ربيعة أخو بني سلمة ، وأبو عياش

وهو عبيد بن زيد بن الصامت أخو بني رريق ، فلما اجتمعوا إلى رسول

الله — ﷺ — أمر عليهم سعد بن زيد ثم قال :

— اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس .

وقال رسول الله — ﷺ — لأبي عياش

(١) الرصع : جمع راصع وهو القيم . والمعنى : اليوم يوم هلاك النكاح .

— يا أبا عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك فحق بالقوم ؟

— يا رسول الله أنا أفرس الناس .

ثم صرب الفرس فوالله ما جرى به خمسين ذراعا حتى طرحه ، فعجب أن رسول الله — ﷺ — يقول لو أعطيته أفرس منك وهو يقول أنا أفرس الناس . فأعطى رسول الله عليه السلام فرس أبى عياش معاذ بن معص ، فخرج الفرسان في طلب لقوم حتى تلاحقوا .

وكان أول فارس لحق بالقوم محرز بن نضلة أخو بى أسد بن خزيمه ، فوقف لهم بين أيديهم ثم قال :

— قفوا يا معشر بى اللكيعه ^(١) حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار .

وحمل عليه رجل مهم فقتله واستلب فرسه ، وتلاحفت الخيل فقتل أبو قتاده الخارث بن ربيع أخو بنى سلمة حبيب بن عينة بن حصص وغشاه برده ثم لحق بالناس .

واستعمل رسول الله — ﷺ — على المدية ابن أم مكتوم ، ثم أقبل في المسلمين فإذا حبيب مسجى يبرد أى قتادة فقال الناس :

— إنا لله وإنا إليه راجعون . قتل أبو قتادة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ليس بأبى قتادة ولكنه قتل لأبى قتادة وضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه .

(١) اللكيعه : اللعيمة .

وأدرك عكاشة بن محصن أوبارا وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد ، فانظمهما بالرمح فقتلهما جميعا واستنقذوا بعض اللقاح .
وسار رسول الله ﷺ — حتى نزل بالجبل من ذى قرد وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله عليه السلام به وأقام عليه يوما وليلة ، وقال له سلمة بن الأكوع :
— يا رسول الله لو سرحنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم .
فقال له رسول الله ﷺ :
— إنهم الآن ليغبقون ^(١) فى غطفان .
فقسم رسول الله ﷺ — فى أصحابه فى كل مائة جزورا وأقاموا عليها ، ثم رجع رسول الله ﷺ — قافلا حتى قدم المدينة .
وأقبلت بيلي امرأة ابن أذى ذر على العضباء من إبل رسول الله ﷺ —
— حتى أقبلت عليه فأخبرته كيف فرت من القوم فرغت ، قالت :
— يا رسول الله إلى قد ندرت لله أن أنحرها إن نجاني الله عليها .
فقسم رسول الله ﷺ — ثم قال :
— يس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرنيها ! إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا يملكين ، إنما هي ناقة من إبل فارجمي إلى أهلِكَ على بركة الله .

(١) يغبقون : يسهون اللبن بالمشى .

لما بنى رسول الله ﷺ مسجده بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من صاج ، ولما تزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بنى لها حجرة ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى عليه السلام . وتزوج عليه السلام زينب بنت حزيمة فبنى لها حجرة إلى جوار حجرة حفصة ، وماتت أم المساكين ، فلما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبى أمية راد الركب أسكنها حجرة أم المساكين ، فلما تزوج زينب بنت جحش بنى لها حجرة إلى جوار حجرات أمهات المؤمنين . وقد ضرب النبى ﷺ الحجرات ما بينه وبين القلعة والشرق إلى الشامى ولم يصرها فى غربيه . وكانت خارحة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد على أبوابها مسوح من شعر أسود ، ودرع الستر ثلاثة أذرع فى ذراع .

وكان بيت فاطمة حلف بيت النبى ﷺ — عن يسار المصلى إلى الكعبة ، وكان فيه حوخة إلى بيت النبى ﷺ . وقد مال إليها رسول الله عليه السلام وأحبها فكان يدخل عليها إذا عاد من سفره ويطل المكىث عندها قبل أن يدخل عن أزواجه ، أو ابنته زينب التى عاشت معه سنين بعد أن تركت زوجها أبا العاص بن الربيع ، أو يذهب لرؤية أم كلثوم فى بيت زوجها عثمان بن عفان .

كانت فاطمة شديدة الاعتزاز بأبيها فكانت تتهلل بالفرح إذا ما سمعت

من قائل أن أبنائها أشبه بأبيها ، وكانت تتغنى بذلك إذا ما رقصت أحدهم أو داعبته ، فلم يكن أحب إلى قلبها من أن يقال لها إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت مفطورة على التدبين ، ولا جرم فرسول رب العالمين وإمام المتدينين المتقين أبوها ، وأمها خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام التي وهبت حياتها وأموالها لإعلاء كلمة الله وبزوغ أنوار اليقين من دارها ، فورثت عن نبي الإسلام إرهاب الحس الديني ، وعن حاضنة الإسلام عمق الإيمان ونصاعة التصديق الذي لا يشوبه شائبة من شك ، فتشأت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين .

دخل عليها رسول الله ﷺ — فأكل عرقا فجاء بلال بالأذان فقام عليه السلام ليصلي ، فأخذت بثوبه فقالت :

— يا أبة ! ألا تتوضأ ؟

— ثم أتوضأ يا بنية ؟

— مما مست النار .

— أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟

وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء .

وأكرم رسول الله ﷺ — فاطمة إكراما عظيما ، فقال أكثر من مرة في أكثر من مناسبة :

— فاطمة سيدة نساء العالمين .

وقال إنها عذيلة مريم بنت عمران ، وأنها إذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش :

— يا أهل الموقف غصوا أبصاركم لتعبر فاطمة بنت محمد .

وما أكثر ما قال عليه السلام :

— يؤذيني ما يؤذيها ويفضيني ما يفضيها ، وإنها بضعة مني يريني ما رآها .

وقد أكل هذا التعظيم والبهجيل قلب عائشة بنت أبي بكر زوج النبي الأثيرة عنده ، ولم يخل قلب فاطمة من الضغن على بنت الصديق . وكان أول بدئه أن رسول الله — ﷺ — تزوج عائشة عقيب موت خديجة فأقامها مقامها ، فكان ذلك بداية كدر ابنة خديجة وتغير قلبها على عائشة . كانت فاطمة تكره ميل أبيها إلى امرأة عربية ، ولما كانت النساء محدثات الليل فقد مجحت الزهراء في أن تنقل ما في قلبها إلى قلب زوجها على بن أبي طالب ، كانت تكثر الشكوى من عائشة حتى إنها طلبت ذات يوم من أبيها أن يسد الخوخة التي كانت بين بيته وبينها حتى لا ترى عائشة ما يجري في دارها .

وكان جيران بيتها يأتين لزيارتها فكان ينقلن إليها كلمات عن عائشة ، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلن إليها كلمات عن فاطمة ، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها كانت عائشة تشكو إلى أبيها لعلمها أنها لا تستطيع أن تشكو فاطمة إلى رسول الله عليه السلام ، فحصل في نفس أبي بكر أثر ما .

وتزايد تقرير رسول الله عليه السلام لعلي بن أبي طالب وتقريره واختصاصه فأحدث ذلك حسدا له وغبطة في نفس أبي بكر عنه وهو أبوها ، وفي نفس طلحة وهو ابن عمها ، وهي تجلس إليهما وتسمع كلامهما وهما يجلسان إليها ويحادثانها فأعدى إليها مهما كما أعدتهما . وكان على عليه السلام ينص على أبي بكر سكوت النبي — ﷺ — إليه ،

وثأه عليه ويحب أن ينعرد هو هذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين ، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده فخاكدت البغضة بين هذين الفريقين .

ثم كان من أمر القذف ما كان ، ولم يكن على عليه السلام من القاذفين ولكنه كان من المشيرين على رسول الله ﷺ — بطلاقها تنزيها لعرسه من أقوال الشناة والمنافقين . قال له لما استشاره : — إن هي إلا شئع^(١) نعلك .

وقال له :

— سل الخادم وخوفها وإن أقامت على الجحود فاضربها .
وبلغ عائشة هذا الكلام كله وسمعت أضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة ، ونقل النساء إليها كلاما كثيرا عن علي وفاطمة وأنها قد أظهرتا الشماتة جهارا وسرا بوقوع هذه الحادثة لها ، فتفاقم الأمر وغلظ .

ثم إن رسول الله ﷺ — صالحها ورجع إليها ونزل القرآن ببراءتها ، فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قهر ويستظهر بعد أن غلب ويرأ بعد أن اتهم من بسط اللسان وفتات القول ، وبلغ ذلك كله عليا وفاطمة فاشتدت الحال وغلظت وطوى كل من الفريقين قلبه على الشأن لصاحبه .

وذاث يوم استدنى رسول الله ﷺ عليا فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان ، فقالت :

(١) الشئع : النمل التي تشد إلى زمامها .

— أما وجدت مقعدا لك إلا فخذى ؟

إنها لا تكنى عنه فهيحت ما فى نفس على .

وساير السبي عليه السلام عيا يوما وأطال مناجاته ، فجاءت وهى سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما وقالت :

— فمى أنتمأ فقد أطلتما ؟

فغضب رسول الله — ﷺ — ذلك اليوم ، وغضب على ولا شك وإن كان قد كم غضبه فى قلبه .

ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولادا كثيرة بنين وبنات ولم تلدهى ولدا ، وأن رسول الله — ﷺ — كان يقيم بنى فاطمة مقام بنيه ويسمى الواحد منها « ابنى » ويقول :

— دعوا لى ابنى .. وما فعل ابنى ؟

كان ذلك القول يلسع قلب عائشة فقد حرمت الولد من البعل ، ثم رأت البعل يتبنى بنى ابته من غيرها ويحنو عليهم حنو الوالد المشفق ! ولم تسغ عائشة مرارة الضرائر ، ولم تسترح من ألم حرمانها الأبناء ، ولم تعوضها كنيتهأ بأم عبد الله عن الحقيقة الأئمة التى كانت تتجرع غصصها كلما نظرت إلى أبناء الزهراء ، ولم تستطع معرفتها بأنها حبيبة رسول الله أن تمنح تلك الغيرة التى كانت تكابدها من بنت رسول الله عليه السلام ومن بعلها من الضرائر احميلات وذوات الأحساب .

كانوا بشرا فكانت أفئدتهم تحفق بالغيرة وتشرق لى نفس الوقت بأنوار اليقين ، إنهم يحاهدون بالعبادات لتصمية القلوب وتركيتها وجلاتها ومحو الصعات المذمومة ، فكانوا كثيرا ما يرتفعون ليطرقوا أبواب ملكوت السماوات ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من آدميتهم وما توسوس به

نعموسهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدوسهم وكانوا جميعا يحاولون أن يرسوا خطاه ، ولكن أين هم ممن اصطفاه ربه ليبلغ رسالته ويكون أسوة حسنة للمؤمنين ؟ إهم تعلموا من رسول الله عليه السلام الخير كله ، وإن عبد الله ابن عمر يتبع آثار النبي — ﷺ — في منارله فهو ينظر ماذا يفعل عليه السلام في كل أمر ليحاكيه ، وأين صلى ليصلي في ذات المكان ، وأين وقف يدعو ربه فيقف خاشعا يدعو الله ، وأين جلس يناجي الرحمن فيجلس في نفس المكان للمناجاة .

ورأى ابن عمر في يومه كأن بيده قطعة من إستبرق وكأنه لا يريد مكانا من الجنة إلا طارت به إليه ، ورأى كأن اثنين أتياه وأرادا أن يذهبا به إلى النار فطلقاهما ملك فقال :

— لا تُرْع .

فخليا عنه .

فذهب إلى أخته حفصة أم المؤمنين وقد وجب قلبه وقص عليها رؤياه وهو يرجو أن تعرف أخته من رسول الله — ﷺ — تأويل ما رأى ، فقصت حفصة على النبي — ﷺ — رؤياه فقال رسول الله — ﷺ :
— نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل فيكثر .
ولم يدع ابن عمر بعدها قيام الليل في حله ولا ترحاله .

كانت المدينة تشرق كل صبح ومساء بوحى السماء ، وكان رسول الله ﷺ — منارة النور قد التفت حوله رجال يقتبسون منه العلم والحكمة وأصواء الهداية إلى الطريق . وما كانوا رجالا ضعافا يعمرون من قيظ الحياة إلى الدعة والعطمانية والهنوء ، بل كانوا سادات في قريش وصفوة المدينة التي فتحت أبوابها طائفة لتستقبل الرسول الكريم في ترحيب وتهليل ، بعد أن فتح القرآن المهيد أفقديهم لما ألقوا إليه أسماعهم وقد برأت من الحسد نفوسهم ، ورجالا فقراء في أسمال بالية ولكس بين جوانحهم قلوبا كبيرة تهفو إلى أنوار اليقين . وكانوا جميعا على استعداد لأن يجودوا بأرواحهم وأموالهم وأن يقفوا في وجه الدنيا بأسرها في سبيل إعلاء كلمة الحق ، في وقت كان رسول الله عليه السلام يقول لهم لا أملك لكم نفعا ولا ضرا ولا أدري ما يفعل بى ولا بكم .

تنازل أبو بكر الصديق عن صيب خاطر عن كل ما كان ينتظره من مجد إذا ما قبل أن يكون سيد بنى تيم بعد أن هلك عبد الله بن جدعان ، وآثر أن يتبع النور وأن ينشق كل ما جناه من تجارته في سبيل إشراق النور . إنه ما إن ألقى سمعه إلى القرآن حتى انهملت عيناه وتسربل بالحشوع وارتدى بالحنن وتلاذت في قلبه الأنوار ، فهجر كل مجد ليقفو أثر مجد الله ، فكان الصاحب الأمين ورفيق المحجرة ، وقد جعل حركاته في تقوى الله ، وجعل الله ثقته ورجاءه فأصبح من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون .

وكان عمر بن الخطاب جبار الخاهلية يصب جام غضبه على المسلمين ، وذات يوم أقسم بألته وكل عزيز لديه أن يقتل الصائغ الذي فرق بين الناس فخرج يريد رسول الله عليه السلام ، وفيما هو منطلق والشرر يقدح من عييه قال له قاتل قوم بيتك قبل أن تسفك دم نبي الإسلام عليه السلام . فلما علم أن أخته قد أسلمت ذهب إلى بيت ختنته سعيد بن زيد فسمع مهممة فدخل عاصبا كالعاصفة يسأل عن هذه المهممة ، ويصرب أخته ويضرب زوجها . ولما يسيل الدم من رأس أخته تقول في شجاعة المؤمنين إنها كانت تقرأ القرآن ، فيطلب الصحيفة ليقرأ فيها فتقول له إنه نجس وأن عليه أن يتطهر قبل أن يمس كلام الله . ويخضع الحبار لامرأة مسلمة منحها الإسلام مصاء عزيمة انهارت أمامها عزيمة ابن الخطاب ، ودخل ليتطهر ثم خرج يقرأ في الصحيفة آيات الذكر الحكيم فإذا بدراء القرآن يشفى داء قلبه ، وإذا بالكفر يتبخر من نفسه ، وإذا يجدور الفضلال تقتلع من أعماقه ، وإذا بالعي يجثث من عين داته ، وإذا بالزيت الذي في مشكاة قلبه يصبى ويصبح نورا على نور ، فيخرج من دار أخته يسأل عن رسول الله ﷺ — لا ليهريق دمه بل ليعلى إسلامه وتصديقه لرسالة الرسول ويصفى إلى الذكر الحكيم ، فقد هدى إلى الصراط المستقيم .

وكان عثمان بن عفان يعدو ويروح بين أسواق الروم وأسواق الفرس وأسواق العرب ليجمع الأموال التي يشرف بها الرجال في قرش ، وقد صار من أغنياء الأمويين يعيش في أمن ودعة وسلام . ولكن ما إن مس أذنيه القرآن المجيد حتى تفتح له قواده وانشرح له صدره فأمس برسالة النبي عليه السلام وهانت الدنيا في عينيه ، وذاق حلاوة الإيمان والأنس برب العالمين ، وتحمل اضطهاد عمه الحكم بن العاص في صبر حتى إذا ما نقد

صبره هاجر إلى الحبشة فرارا بدينه وقد ترك أمواله وهجر تجارته ورحمة ربك خير مما يجمعون .

وتفتح قلب الصبي على بن أبي طالب على القرآن العظيم فعلم أنه الناصح الذي لا يمشي ، والهادي الذي لا يصل ، والمحدث الذي لا يكذب . وما حائس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان : زيادة في هدى أو نقصان من عمى ، وعلم أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى ، فاستشفه من أدوائه ، واستعان به على لأوائه ، وكرس حياته ليكون ربيبه ، واستعد ليبدل روحه في سبيله .

وبلال بن رباح عبد بنى حنظل الحنظلي يصفى ذات يوم إلى رسول الله عليه السلام وهو يتلو بعض ما أنزل إليه من ربه ، فإذا يور الله يستقر في سويداء قلبه فيقلب العبد الذليل إلى حر طليق وإن كان لا يزال في الأرض من طبقة العبيد . إنه في قرارة نفسه قد خلع كل عبودية إلا عبوديته لله وحده ، فلم عرف إسلامه وعذب أشد العذاب كان نشيده : أحد .. أحد ، وصبر على العذاب حتى إن ساداته في الأرض راحوا ياتمون به أن يذكر آلتهم بكلمة خير ليطلقوه فكان يقول : إن لساني لا يحسنه

كانت آيات الله اليينات النور الذي اتبعه ، الفصل بين الصلال والهدى ، فلم يفعل منذ أن أسلم عن قراءة القرآن صباحا ومساء فأحيا موات قلبه وأكسب ذاته عمقا وخصبا وثراء ، وبات لا يخشى العالم ، وكيف يخشى الناس وهو يحس بكل وجوده أنه مع الله وأن الله معه ١٩ وسعد بن أبي رقاد ، والريز بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطليحة بن عبيد الله ، شباب قريش وفخر بيوت شرفها ما إن أعاروا رسول الله عليه السلام سمعهم وأصتوا إلى كلام الله حتى انهلجت لقلوبهم

الحقيقة فأشرفت بالأموار ، وهجروا كل مباحح الدنيا في سبيل وجه الله ، وعكفوا على قراءة القرآن فقامت عيوبهم بالدمع ولم يروا أن أحدا ألقى أفضل مما أرتوا ، فصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله وضحوا بالأموال وراحة البال في سبيل سعادة البشر .

وكان مصعب بن عمير أعطر أهل مكة ، ما من فتى بمكة أنعم عند أبيه منه . كان مدللاً يرغل في الحرير ولكنه كان يهاب أمه خناس بنت مالك فقد كانت صاحبة شخصية قوية ترهب كل الناس .

وسمع مصعب أن محمد بن عبد الله يدعو في دار الأرقم إلى دين جديد فذهب إلى الصفا واستأذن في الدخول فأذن له ، فجلس يصغي إلى ما يقرأ رسول الله عليه السلام من آيات الله البينات ، فإذا بفؤاده يتألق بالنور ، وإذا بصدره ينشرح للإسلام ، فيسقط يده ليبايع رسول الله عليه السلام — ويعلم وهو متفرح في الله إسلامه .

ومنذ ذلك اليوم لم يستطع صبرا عن رسول الله عليه السلام فكان يأتيه ليلقى إليه سمعه ليسعد بعدوبة القرآن . فأُمسى يقوم الليل إذ الناس نائمون ، ويصوم النهار إذ الناس مفطرون ، ويغمره الحزن إذ الناس يفرحون ، ويجهش بالكاء إذ الناس يضحكون ، ويمتلئ بالخشوع إذ الناس يفتنون .

وأبصر به عثمان بن طلحة وهو يدخل خفية إلى دار الأرقم ، ثم رآه يصلي مع المسلمين فطار إلى أم مصعب وألقى إليها بآ إسلام ابنتها فثارت وحاولت أن تشي ابنها عن الدين الذي دخل فيه ، ولكن محاولاتها باءت بالإخفاق فما كان القلب الذي عرف النور ليرضى بالعودة إلى الظلمات ، فاستعانت خناس بنت مالك بعشرتها وحبت ابها في ركن من الدار إلى

أن يعود الصائى إلى دين آباه وقومه .

واشتد إيذاء قريش للمسلمين فقروا بدينهم إلى الحبشة ، وغافل مصعب أمه وحراسه ولحق بإخوانه المهاجرين وقد خفف من لوعته على راق الأهل والأوطان أنسه بالله وتلاوته القرآن العظيم .

وعاد بعض مهاجرى الحبشة إلى مكة وعاد مصعب مع العائدين ، ودخل على أمه وهو يرجو أن يشرح الله صدرها للإسلام فراح يتلو عليها القرآن . ولكن لا تعمى العيون ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فأصرت على الكفر والضلال .

ولم يقنط فقال لها وهو يحاورها :

— يا أمه ، إلى لك ناصح وعليك شفوق فاشهدى أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

فلجبت فى الكفر وأعرضت عه فآثر مصعب نور الله على حياة الدعة ورغد العيش ، فتركها وخرج وهو سعيد بما يحمل من قرآن عظيم ، وانطلق إلى يثرب ليفقه الأنصار الذين بايعوا رسول الله عند العقبة فى الدين .

وجاء أبو ذر من غفار يسمى إلى مكة ليقابل ذلك الرجل الذى يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء . فما إن ألقى سمعه إلى نبي الإسلام عليه السلام وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم حتى أشرق النور فى فؤاده وانشرح صدره وانكشف له سر الملكوت إنه جاء يطلب الهداية فعاد إلى غفار وهو يحمل النور ويتلو ما حفظ من الكتاب المنير ، فطوى لأمة ينزل عليها هذا ! وطوى لأجواف تحمل هذا ! وطوى لأئسة تنطق بهذا !

وقدم الطفيل بن عمرو الدومى مكة وكان رجلا شريفا شاعرا ليبييا ، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له :

— يا مطفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنم قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وأنا نحشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمع منه شيئا .
فما زالوا به حتى أجمع أن لا يسمع منه شيئا ولا يكلمه حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قعلبا فرقا من أن يبلغه شيء من قوله وهو لا يريد أن يسمعه ، فعدا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة فقام منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يُسمعه بعض قوله فسمع كلاما حسنا فقال فى نفسه :

— وأتكل أُمى ، والله إلى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما بمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى بأق به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

فمكث حتى انصرف رسول الله ﷺ — إلى بيته فاتبعه ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه فقال :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذى بكر مُف^(١) لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعتة قولنا حسنا ، فاعرض على أمرك .

فعرض عليه رسول الله ﷺ — الإسلام وتلا عليه القرآن فأحس كأن الجهل الذى ران على قلبه قد كشط ، وأنه ينظر إلى ملكوت السماء بعد أن هبت عليه نسيم الألطاف . إنه وهو الشاعر اللبيب لم يسمع قولاً

قط أحسن مما يتلوه رسول الله عليه السلام فأسلم وشهد شهادة الحق ورجع إلى دوس ليفتحها للإسلام بالقرآن المجيد .

ولقى رسول الله ﷺ — عند العقبة رهطاً من الخزرج فقال لهم :
— من أنتم ؟

— نفر من الخزرج .

— أمن موالي يهود ؟

— نعم .

— أفلا تجلسون أكلمكم ؟

— بلى .

فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأحسوا كأنما جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس ، فصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا :

— إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، فاستقدم عليهم فدعاهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبأك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

فلما قدموا الذنية إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ — ودعاهم إلى الإسلام وتلوا عليهم القرآن ، فأشرقت أنوار المعارف في قلوبهم وارتفعت عنها الحجب بلطف من الله تعالى فامتثلت صدورهم بأنوار اليقين ، وفسى الإسلام فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .

قام محمد بن عبد الله ﷺ — في مكة وحده أعزل من كل سلاح إلا سلاح القرآن ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويتلو

عليهم ما أنزل عليه من ربه ، فلما سمع أولو الألباب آيات الله البينات فاضت عليهم الرحمة وأشرق النور في أفئدتهم وتلألأت فيها حقائق الأمور فأعرضوا عن زخرف الحياة الدنيا وأقبلوا بكنه الهمة على الله فكانوا لله وكان الله لهم .

فتح عليه السلام القلوب المعلقة بالقرآن ، وما إن سمعت المدينة آيات الذكر الحكيم حتى فتحت أبوابها للوافد الكريم خاتم المرسلين . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ * هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ (١) 》 .

كان رسول الله — ﷺ — أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . إنه منع من السخاء والجود ما فاق به كل جواد ، وقد فتح الله به حصون اليهود وأنفله قوافل قريش فما اقتنى ديناراً ولا درهما . لا يأكل إلا الغليظ من الطعام ولا يبس إلا الخشن ويصبر على الجوع .
وكان — ﷺ — إذا سئل وهو مُعَلِّمٌ وعد لم يرد وانتظر ما يفتح الله .
إنه كان جالساً في مسجده فجاء رجل إليه يسأله ولم يكن عنده ما يعطيه فقال :

— اجلس سيرزقك الله .

ثم جاء آخر ثم آخر فقال لهما :

— اجلسا .

وجلس الرجال الثلاثة وقد مالت الشمس للغروب ، فجاء رجل بأربع أواق فأعطاه إياها وقال :

— يا رسول الله هذه صدقة .

مدعا الأول فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثاني فأعطاه أوقية ، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه أوقية واحدة فمرض بها للقوم فما قام أحد . فلما كان الليل دخل بيت عائشة ووضع الأوقية تحت رأسه وهرشه عباًؤه فجعل لا يأخذه النوم فيرجع فيصلي ، فقالت له عائشة :

— يا رسول الله حل بك شيء ؟

— لا .

— فجاءك أمر من الله ؟

— لا .

— إنك صنعت منذ الليلة شيئا لم تكن تفعله .

فأخرج الأوقية وقال :

— هذه التي فعلت بي ما تريد ، إلى حشيت أن يحدث أمر من الله ولم

أمضها .

ولم تعجب عائشة فهي تعرف إرهاب حسه وكرمه وجوده وخشيته

من الله ، إنه يقول :

— أبا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك ديننا فعلى ، ومن ترك مالا

فلورثته .

وكان أصحابه يحبونه حبا يعوق حبهم أهلهم وأبائهم ، ويطيعونه

طاعة لم ير ملك ولا حاكم مثلها من رعاياه وشعبه مهما بلغ حب الشعب

إياه ، ولا جرم فقد كان رسول الله ﷺ — على خلق عظيم يأتيه الوحي

من السماء . ولم يسمع ذلك الحب والتبجيل أصحابه من أن يسألوه عن

أشياء التماسا لطمأنينة النفوس . قالت له الأنصار يوم بدر وقد نزل بمنزل

لم يستصلحوه :

— أنزلت هذا المنزل عن رأى رأيت أم بوحي أوحي إليك ؟

قال :

— بل عن رأى رأيت .

قالوا :

— إنه ليس لنا بمنزل ، ارحل عنه .

ورحل عنه ورجل إلى حيث أشار أصحاب المكيدة والحرب .

(عزوة الخندق)

وقال له سعد بن معاذ وسعد بن عباد يوم الخندق وقد عزم على مصالحة عطفان ببعض ثمر المدينة .
— قالوا .

— لا والله لا نعطيهم بها ثمرة واحدة وأيدينا في مقابض سيوفها !
ولم يعصب لأيهما خالفا رأيه وما أشار به بل نزل على مشورتها وهو راضى النفس ، حتى جاء الله بالنصر .

وكان عليه السلام يفتي الظلم فيقول : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلطه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرح عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة . وكان يقول : الظلم ظلمات يوم القيامة

إنه عليه السلام سمع حصومة يباب حجرته فخرج إليهم فقال :
— إنما أنا بشر وإنه يأتى الخصم لعل بعصكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق مسلم فأبما هي قطعة من النار علياً حذها أو فليتركها .
وعلى الرغم من مقتله للظلم والظالمين فإنه كان يحب أن يخرج الناس عن ظلمهم فيقول :

— من كانت له مظلمة لأحد من عرصه أو شيء فليتحللل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم . إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حساسات أحد من سيئات صاحبه فحمل عليه .

وكان — عليه السلام — يتلو ما أنزل إليه من ربه : ﴿ وَحَرَاءَ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا ﴾
فمن عما وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولم ينتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويؤمنون

في الأرض بعير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور * ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وتري الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ^(١) .

وكان عليه الصلاة والسلام يحاول بكل ما أوتي من عزم أن يعطى كل ذي حق حقه وأن يرسي في الأرض أسس العدل ، فقد كان للأشعث بئر في أرض ابن عم له فاختصما إلى رسول الله عليه السلام ، فقال — ^{عليه السلام} — لأشعث :

— شهودك ؟

— ما لي شهود .

— فيمينه .

قال أشعث :

— يا رسول الله إذا يحلف .

وخشى رسول الله عليه السلام أن يحلف معدان بن الأسود ابن عم أشعث يمين فاجرة يذهب بها حق صاحب الحق ، فقال :

— من حلف على يمين يقطع بها مال امرئ هو عليها فاجر نقى الله وهو عليه غضبان . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا حَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ^(١) .

ولم يكن عليه السلام يقف عند حقوق الناس بل كان يحص على توفير حقوق الأبدان به الآبار والطرق والأرضين . كان يقول : إن لبيدك

عليك حقاً . وقال للأنصار :

— إياكم والجلوس على الطرقات .

فقالوا :

— ما لنا بذلك ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها .

— فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها .

— وما حق الطريق ؟

— عضن البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وكان عليه السلام — يقول : إمطة الأذى عن الطريق صدقة .

وجلس ذات يوم يتحدث أصحابه قال :

— يينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فمل فيها فشرّب ،

ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل :

« لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني » .

فمل البئر مملأً حقه ماء فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له .

فقالوا :

— يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً ؟

— في كل ذات كبد رطبة أجر .

وكان أصحاب الرسول عليه السلام يررعون الأرض بالثلاث والرابع

والصنف ، فقال السي — عليه السلام :

— من كانت له أرض فليزرعها أو يمسحها أخاه ، فإن أبى فليمسك

أرضه .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على العمل فيقول : إن الإنسان

ليؤجر إن قامت الساعة وفي يده عمل فأتمه . ويقول : إن الإيمان هو العمل ، بل ذهب إلى أن الإنسان يعمل في الآخرة . إنه كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية فقال :

— إن رجلا من أهل الحمة استأذن ربه في الزرع فقال له . أأنت فيما شئت ؟ قال : بلى . ولكني أحب أن أزرع . فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الحبال ، فيقول الله تعالى : ذلك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء .

فقال الأعرجي :

— والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإهم أصحاب زرع ، وأما نحن فلمنا بأصحاب زرع .

فضحك النبي — ﷺ .

وإنه — ﷺ — جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، فكان يوصي الإنسان بوالديه إحسانا . وقد سأله ذات يوم عبد الله بن مسعود كاتم سره .

— أي العمل أحب إلى الله ؟

— الصلاة على رقتها .

— ثم أي ؟

— ثم بر الوالدين .

— ثم أي ؟

— الجهاد في سبيل الله .

وجاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال

— يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟

— أمك .

— ثم من ؟

— أمك .

— ثم من ؟

— أمك .

— ثم من ؟

— ثم أبوك .

وقال رجل للبي — ﷺ :

— أجاهد .

— لك أبوان ؟

— نعم .

— ففهما فجاهد .

وقال رسول الله — ﷺ :

— إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه .

— يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟

— يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه .

وقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه .

— ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟

— بلى يا رسول الله .

— الإشرak بالله وعقوق الوالدين .

وكان مكثا فجلس فقال :

— ألا وقول الزور وشهادة الزور ، ألا وقول الزور وشهادة الزور .

فما زال يقولها حتى قيل لا يسكت .

وجاءت إلى أسماء بنت أبي بكر أمها وكاتب مشركة ، فذهبت أسماء إلى رسول الله ﷺ — فقالت :
— أصلها .

— نعم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يهاكم الله عن الدين لم يقاثر بكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرههم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ * إنما يهاكم الله عن الدين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿ (١) .

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ — وكان عنده الحسن بن علي ، فقبل رسول الله عليه السلام الحسن فقال الأعرابي :
— تقبلون الصبيان ؟ فما قبلهم .

فقال النبي ﷺ :

— أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وكان عليه السلام يرى أن حسن العهد من الإيمان . إنه كان يذكر خديجة بنت خويلد حاضنة الإسلام على الدوام . وكان إذا دبح الشاة يهدي أحبائها منها حتى إن عائشة أم المؤمنين كانت تقول :

— ما عرت على امرأة ما عرت على خديجة ، وقد هلك قبل أن يتزوجني بثلاث سنين لما كنت أسمع يذكروها .

وكان عليه السلام يقول :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله

واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت

ويقول :

— والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن .

قبل :

— من يا رسول الله ؟

— الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال عليه السلام :

— ما زال يوصيى جبريل بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وكان يعسم أصحابه أن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن الله يحب الرفق في الأمر كله ، وأن من يشمع شعاعة حسنة يكن له نصيب منها ، ومن يشمع شعاعة سيئة يكن له كفل منها ، ولم يكن عليه السلام فاحشا ولا متمعشا وكان يقول :

— إن من أخيركم أحسنكم خلقا .

واستأذن رجل على النبي — فلما راه قال :

— بشس أخو العشيورة وبشس ابن العشيورة .

فلما جلس تطلق النبي — ﷺ — في وجهه وابسط إليه . فلما اطلق

الرجل قالت له عائشة :

— يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلعت في

وجهه وانبطت إليه .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا عائشة متى عهدتني فاحشا ؟ إن شر الناس منزلة يوم القيامة من

تركه الناس اتقاء شره .

كان عليه السلام أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد مرع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قِبَل الصوت فاستقبلهم النبي ﷺ — قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول .

— لن تراعوا ، لن تراعوا .

وهو على فرس لأبي طلحة عري ما عليه سرج في عنقه سيف ، فقال :
— لقد وجدته بجر (١) .

وما سئل عليه السلام عن شيء قط فقال لا ؛ فقد جاءت امرأة إليه بیردة فقالت :

— يا رسول الله أكسوك هذه .

فأخذها النبي ﷺ — محتاجا إليها فلبسها ، فراها عليه رجل من الصحابة فقال :

— يا رسول الله ما أحسن هذه فأكسنيها .

— نعم .

فلما قام النبي ﷺ — لأمه أصحابه قالوا :

— ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ — أخذها محتاجا إليها ثم سألته إياها ، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمعه .

— رجوت بركتها حين لبسه النبي ﷺ — لعل أكف مني .

وخدم أس النبي ﷺ — فما قال له أف ! ولا لم صنعت ؟ ولا ألا صنعت ؟ وكان عليه السلام في مهمة (١) أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى

الصلاة ، وكان يقول :

— لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا الله ، حتى أن
يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله ، وحتى
يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وكان ينهى أصحابه عن الطعن فيقول :

— إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تحسسوا
ولا تحاسدوا ولا تداوروا ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

وكان عليه السلام متورعا لله وأشد الناس خشية لله ، وكان أشد حياء
من العذراء في حذرهما ، فإذا رأى شيئا يكرهه عرف في وجهه ، وكان
يقول :

— الحياء لا يأتي إلا بخير .

وقد مر على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء يقول :

— إنك لتستحي ، قد أضربك .

فقال رسول الله ﷺ :

— دعه فإن الحياء من الإيمان .

وكان عليه السلام يحب التخفيف واليسر على الناس ، وقد قالت
عائشة أم المؤمنين :

— ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم

يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه ، وما انتقم لنفسه في شيء قط
إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها الله .

وكان يقول :

— يسروا ولا تعسروا ، وسكروا ولا تنفروا .

وبال أعرأى في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

— دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا^(١) من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين .

وأخبر عليه السلام أن عبد الله بن عمرو يقوم الليل ويصوم النهار ، فدخل عليه فقال :

— ألم أتخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار !

— بلى .

— فلا تفعل ، قم ونم وصم وأفطر ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لميك عليك حقا ، وإن لزورك^(١) عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا .

وكان عليه السلام يقول :

— ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس .

مر رجل على رسول الله ﷺ — فقال لرجل عنده جالس :

— ما رأيك في هذا ؟

— رجل من أشرف الناس ، هذا والله حري ، إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع .

فسكت رسول الله ﷺ — ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ :

— ما رأيك في هذا ؟

— يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حري إن خطب

(١) أى تزورك وضيئك .

ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا .

وبينا الصحابة جنوس مع النبي — ﷺ — في المسجد دخل رجل على

جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ، ثم قال لهم :

— أيكم محمد ؟

والنبي — ﷺ — متكئ بين ظهرانيهم فقالوا :

— هذا الرجل الأبيض المتكئ .

فقال له الرجل :

— ابن عبد المطلب .

فقال له السبي — ﷺ :

— قد أجبتك .

— إلى سائلك فمشدد عليك في المسألة ، فلا تجذ علي في نفسك .

— صل عما بدا لك .

— أسألك بربك ورب من قبلك الله أرسلك إلى الناس كنهم ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟

— اللهم نعم .

— أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أعنيائنا فنقسمها على

فقرائنا ؟

— اللهم نعم .

— آمنت بما جئت به .

وأتى عتيان بن مالك ، وهو من أصحاب رسول الله — ﷺ — من شهد بدرا من الأنصار ، رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي ، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم ، أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم ، ووددت يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأأخذة مصلي .
فقال له رسول الله — ﷺ :

— سأفعل إن شاء الله .

فغدأ رسول الله — ﷺ — وأبو بكر حين ارتفع النهار ، فأستأذن رسول الله — ﷺ — فأذن له ، فلم يجلس حين دخل البيت ، ثم قال :
— أين تحب أن أصلي من بيتك ؟

فأشار له إلى ناحية من البيت ، فقام رسول الله — ﷺ — فكرر ، فقاموا فصفهم فصلى ركعتين ثم سلم .

وحسبه على حزيمة^(١) صعوها له ، فجاء في البيت رجال من أهل الباز دوو عدد فاجتمعوا فقال قائل منهم :

— أين مالك بن الدخشن ؟

فقال بعضهم :

— ذلك مناعق لا يحب الله ورسوله .

فقال رسول الله — ﷺ :

(١) الحساء من الدسم والدقيق .

— لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ؟

— الله ورسوله أعلم ، فإننا نرى وجهه ونصيحته إلى المسافقين .

قال رسول الله — ﷺ :

— فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله

كان رقيق القلب عن خلق عظيم فتعلقت به القلوب وهفت إليه .

﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من

حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل

على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (١) .

كان القرآن المجيد يرل على رسول الله — ﷺ — فيشرع للناس عباداتهم وسلوكهم ويقود حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويفرس في نفوسهم عقيدة سمحة تحكم الوجدان وواقع الحياة ، فصار الدين نبض المدينة وروح مجتمعها وباعث نشاطها الحى الخلاق .

وصار القرآن مصدر كل حركة والإشعاع الذى تقتبس منه الأهدة النور الذى يرشدها إلى طريق الرشاد فى الدنيا والآخرة : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقائستين والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم معرة وأجرا عظيما . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل صلالا مبيا ﴾ (١) .

وأصبح القانون الإلهى الذى لا يأتىه لباطل من بين يديه ولا من خلفه هو الشريعة التى يتبعها المسلمون ، فإذا بالجمع القبلى الذى كان يسوده الفردية والتباغض والتشاحس يغدو أمة متأسكة اتبعت فى أبنائها نقطة روحية ونقطة فكرية فتحت القلوب لأنوار اليقين ، فظهرت ينابيع الحكمة فى الأهدة على الأكسن وفى السلوك .

وقد نصح وحى الله أن يكون في بضع سنين مجتمعا متكاملا غاية التكامل ناضحا غاية النضج ، لم تعرف له طفولة أو شباب بل فحولة بلغت غاية رشدها العقلى ورشدتها الروحى . ولا غرو فما كان مجتمعا من صرع البشر يحاج في تطوره إلى أجيال وقرون بل كان من صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون .

عُدل كتاب الله المناح التفكيرى للمؤمنين وقضى على كل صراع بين مطلق البيعة وشريعة الله من شاء أن يستقيم . كانت يثرب موئل صاحبات الرايات الحمر وكان شباب الجزيرة العربية وشيوخها الماجنون يشلون إليها الرجال ليعمو بالبغايا من سادات الأوس والخزرج وبنات اليهود ، فنزل القرآن الكريم يحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فاقترعت ثقيفة صاحبات الرايات الحمر واجتثت من المدينة عادة إكراه السادات إماءهم على البغاء رجاء عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم .

وكانت القوافل تأتى بالخمور من الشام وما كان مجلس من مجالس العرب يخلو من الشراب ، وكان شعر الشعراء حتى المسلمين منهم يفيض بالخمريات ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) . كسر المسلمون دنان الخمر وأهريقوا في الطريق فحجرت في طرقات المدينة أهازجها ، وحرمت على المؤمنين .

وكانت البيعة تحتقر المرأة لا تسنكر وأدها صغيرة ولا طردها من البيت

زوجة في الخيض : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ۝ يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (١) . فجاء القرآن ليرد للمرأة كرامتها في عالم لا يعرف لها كرامة : ﴿ واستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ (٢) . ولم يكن لها حق الملك ولا التصرف فيما تملك ، وما كانت بورث فما كانت تقاتل في سبيل شرف القبيلة فجاء الكتاب المنير ليقرر لها حقوقاً رغم ألف العرف والتقاليد وما جبلت عليه البيئة : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ (٣) .

وكان الكرم للرهو والفخر والأحاديث والذكر وما كان ينبع من وجدان حي ، وما كان الأغنياء يتصورون أن لفقراء حقاً معلوماً في أموالهم ، وما خطر لهم على قلب أن الأموال التي يحرمونها مال الله وأهم مستحلهم فيها ، فجاء القرآن يشرع لهم في أعز ما يملكون ، في ربة الحياة الدنيا ، فقبلوا ما جاء من عند الله طائعين دون صراع بين الطبقات ودون حمائم من الدم لانتزاع الحقوق : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى قلته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلاً يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (٤) .

وقد حضهم رسول الله ﷺ — على العمل وفتح لهم أبواب التجارة

(٢) النساء ٧ .

(١) النحل ٥٨ — ٥٩ .

(٤) المائدة ٥ .

(٣) آل عمران ١٩٥ .

وقال : تسعة أعشار الرزق في التجارة فترك لهم حرية العمل دون أن يخشى استبداد الأموال في تسير دفة الحكم ، فقد نظم الله للمجتمع العملاق الذي أقامه في المدينة طريقة التصرف في ثمرة العمل ، فزين للمسلمين الإنفاق : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ويبفقوا مما رزقناهم سر وعلاية ﴾ (١) . ﴿ ويسألونك ماذا يبفقون قل العفو ﴾ (٢) . ووعد الذين يكتزون الذهب والفضة بعذاب أليم : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا يبفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » يوم يحسب عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجوهم وظهورهم هذا ما كترتم لأنفسكم فبدقوا ما كنتم تكتزون ﴾ (٣) .

ومرض على الأغنياء الزكاة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها ﴾ (٤) . ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ (٥) ﴿ ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ (٦) ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٧) .

وإن الله قد أوحى إلى رجال المدينة الفاضلة التى أقامها في الأرض فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (٨) . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ (٩) .

(٣) التوبة ٢٤ — ٢٥

(٦) فاطر ٦٨ .

(٩) النور ٢١ .

(٢) البقرة ٢١٩

(٥) الأعلى ١٤ .

(٨) الأنبياء ٧٣

(١) إبراهيم ٢١

(٤) التوبة ١٠٢

(٧) النور ٣٧ — ٣٨

وشرع نظام التوريث لتفتيت الثروات لكيلا يتكدس المال في أيدي قلة من الأغنياء فيتعطل عن تأدية رسالته : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم لذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آبائكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما . ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، وله الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثلث مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصي بها أو دين مصار وصية من الله والله عليم خليم . تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك العوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ (١) .

وكان مطلق البيعة أن تكون الكلمة العليا لرعي القبيلة يحكم في الناس حسب هواه أو حسب العرف والتقاليد إن أراد أن يعرف عنه العدل بين الناس ، فجاء الإسلام وركبه الأول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبدأ بنفى الربوبية عن كل خلقه ليثبتها لله وحده فصار للناس

إله واحد وسيد واحد له وحده حق التشريع ورسم منهج الحياة لعباده ؛
وشهادة أن محمدا رسول الله هي شهادة تصديق بأن الأوامر والنواهي التي
جاءت في القرآن العظيم هي من عند الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا
لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (١) . فلم يكن مطلق البيعة ليحول
بين شهادة الحق وأقعدة الناس فتحرروا من اتحاد بعضهم لبعض أربابا ولم
يشهدوا إلا بربوبية الله وحده لا شريك له .

وكانوا يصفون إلى ساداتهم نظرة لإجلال وإكبار يقيسون عظمتهم
بمقدار ما عندهم من أموال أو هم من نفود ، حتى إذا ما برل لقرآن على
رسول الله ﷺ — أظهروا العجب . ﴿ وقالوا بولاي هذا القرآن
على رجل من القرنين عظيم ﴾ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم
معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعا بعضهم فوق بعض درجات ليتحد بعضهم
بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ (٢) .

وكانت البيعة لا تقر رواج العيد من سيادة شريفة ، وكانت ترى في مثل
ذلك الزواج ثلما للشرف وحرمان الكرامة وعاراً تحمله الأحيال ، ولما كان
رب الناس حائق البشر يريد أن يرسى قواعد حقيقة أن الناس سواسية وأهم
لآدم وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فقد أمر رسوله أن يروح
أمة عنده ريب بت حش الشريعة التي تروى بسبها إلى عبده ريد
ابن حارثة . فلما أرسل عليه السلام إلى أهلها يخطبها لزيد عضت وعصوا
فأنزل الله تعالى . ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله
أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل
ضلالا مبينًا ﴾ (٣) فقالت ريب سمعنا وطاعة لله ورسوله ،

وتزوجت زينب بنت جحش الشريفة ذات الحسب من زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ — فكسرت تقليدا جائرا يحط من كرامة الإنسانية ، وأخذت بيد الإنسان لترفعه إلى قمة البشرية . وكانت البيعة تنفر أشد النفور من رواج السيد من مطلقة من نباه ، وقد تبنى رسول الله ﷺ — زيدا وزوجه ابنة عمته بأمر الله ، وإن زيدا يأتيه يطلب منه أن يطلق زوجته فكان رسول الله عليه السلام يقول له : — أمسك عليك زوجك

وكان الله يريد أن يفصل ضمائر المؤمنين مما وقر فيها من عادات الجاهلية وأن يعيد للبشرية كرامتها وأن يكافئ ريب بنت جحش على طاعتها لأوامر الله ورسوله فأنزل : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْكَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى رَيْدَ مَا وَطَرَا رُوجَاكَهَا لَكَيْلَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (١) .

جاء الإسلام لمحو آثار شطط الجاهلية من النفوس ثم يسائر الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، وما كان ليبقى بالانطق البيعة إذا ما كان ذلك المنطق يتعارض مع الفطرة بل كان يبحث من نفوس المؤمنين كل عرف أو عادة أو تقليد يحط من شأن البشرية بأمر سماوى . فلم يجد لأحد في الإسلام من أمر بل لله الأمر جميعا ، له مقاليد السموات والأرض يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم .

وقد شرع الله للمسلمين ما وصى به كل المؤمنين في كل العصور ، فلم تكن تعاليم الله تعرف التطور والعبادة ثابتة ثبات الإله والعقيدة ثابتة والقيم الأخلاقية ثابتة . وقد قال عالم العيب والشهادة العزيز الحكيم : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ييب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الدين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بيسكم لله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير . والدين يحتاجون في الله من بعد ما استحيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعيهم عصب وهم عذاب شديد . الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل أساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون بها ويعلمون أنها الحق ألا إن الدين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يررق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾ (١) .

كان محمد ﷺ — خاتم النبيين أمره الله أن يبلغ رسالته وأنزل عليه قرآنا كتب الله على نفسه أن يحفظه بعد أن ضيع الناس كل ما مرل على الرسل من ربهم . ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون ﴾ (٢) . وقد جعل الله صحابة محمد من حير البشر ليحفظوا في صدورهم كتابه حتى

يحب وقت التدوين : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم
المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ۝ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم
الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ (٣) .

تحقق كيان الإنسان في المدينة وأشرقت فيها الأنوار ، وقد عميت عنها قلوب القبائل المخاورة لها وحسبت أن نور الله إن هو إلا ثورة على معتقدات الآباء وتسفيه أحلامهم حق عليهم إجمادها ، فكانت تلك القبائل تحاول أن تجمع الجموع لتشن هجوما على الصابئين . ولكن رسول الله ﷺ — كان يبعث سرايا قبل أن يتمكن أعداؤه من أن يتجمعوا لينقى الرعب في قلوبهم صيانة لذلك المجتمع الناشئ الذي سيحمل الأمانة إلى العالمين .

بلغ رسول الله ﷺ — أن بنى أسد فد جمعوا جموعهم عند ماء العمر ليسيروا إلى المسلمين فلم ينتظر عليه السلام حتى يمشوه في عقر داره ، فوجه إليهم عكاشة بن محصن الأسد في أربعين رجلا ، فخرج يسرع في السير إلى أن وصل إلى ماء العمر فوجد القوم علموا بهم فهربوا .

و لم يجد عكاشة والذين معه في دارهم أحدا ، فبعث عكاشة شجاع بن وهب طليعة يطلب خيرا ويرى أثرا ، فانطلق شجاع ثم عاد يخبر أنه رأى أثر نعم قريبا فانطلقوا حتى وجدوا رجلا نائما فسألوه عن خبر الناس فقال :

— وأين الناس ؟ لقد لحقوا بعليات بلادهم .

— فالنعم ؟

— معهم .

فضربه أحداهم بسوط في بده فقال :

— تؤمنوني على دمي وأطلعكم على نعم لني عم لي لم يعلموا عسيركم

إليهم ؟

— نعم .

فأمنوه فانطلقوا معه ، فأمر في الطلب حتى خافوا أن يكون ذلك غدرا منه لهم فقالوا له :

— والله لتصدقنا أو لنضربن عنقك .

— تطلعون عليهم من هذا المحل .

فلما طلّعوا منه وجدوا بعضا روائح فاعاروا عليها فاستاقوها فإذا هي مائة بعير . وشردت لأعراب في كل وجه ولم يطلبوهم وانحسروا إلى المدينة بتلك الإبل وقدموا على رسول الله ﷺ — ولم يلقوا كيذا .

وفي شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجرة بلغه — ﷺ — أن بني ثعلبة وبني عوال من ثعلبة يجمعون جموعهم ليعيروا على أطراف المدينة ، فبعث محمد بن مسلمة في عشرة نفر لينحسروا الأحيار ، فلما بلغوا ذا القصة وهي موضع قريب من المدينة نزلوا البيوت التي بهم ، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن مسلمة وأصحابه وأمهوهم حتى ناموا وأخذقوا بهم فما شعروا إلا وقد خالطهم لقوم ، فوثب محمد بن مسلمة فصاح في أصحابه :

— السلاح .. السلاح .

فوثبوا وقرأوا في جوف الليل ساعة ، ثم حل القوم عليهم بالرمح فقتلوهم . ووقع محمد بن مسلمة جريحا فصرخوا كعنه فلم يتحرك فطوا موته فجردوه من الثياب وانطلقوا ، ومر بمحمد وأصحابه رجل من المسلمين فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

فما سمعه محمد بن مسلمة بستر جمع تحرك له فأخذه وحمله إلى المدينة ،
 فعند ذلك بعث رسول الله ﷺ — أبا عبيده بن الخراح في أربعين رجلا
 إلى مصارعهم فلم يجدوا أحدا ووجدوا نعما وشاء فأخذوا بها إلى المدينة
 وأحدثت بلاد بني ثعلبة وأمار ووقعت سحابة بالمراض إلى ثعلمين ،
 والمراض على ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فسارت بنو محارب وثلعة
 وأمار إلى تلك السحابة واجتمعوا أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرمى
 منها على سبعة أميال من المدينة ، فبعث رسول الله ﷺ — أبا عبيدة
 في أربعين رجلا من المسلمين حين صلوا المغرب ، فمشوا ليلتهم حتى وافوا
 ذا القصة في عماية الصبح فأغاروا فأعجزوهم هربا في الجبال . وأصاب
 أبو عبيدة رجلا واحدا فأسلم فتركه ، وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه
 ورثة^(١) من متاعهم وقدم المدينة بذلك ، فحمسه رسول الله ﷺ ،
 وقسم ما بقى عليهم .

وكان بنو سليم حلفاء قريش لا ينفكون عن جمع اجموع لشن الغارات
 على أطراف المدينة ، وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من حبير وكانوا
 يعيشون على الغارات والقتال . ففي شهر ربيع الآخر سنة ست من الهجرة
 بعث رسول الله ﷺ — زيد بن حارثة إلى بني سليم ، فسار هو ومن معه
 حتى ورد اجموع ناحية بطن نخل عن يسارها ، وبطن نخل من المدينة على
 أربعة برد ، فأصابوا عليه امرأة من مريضة يقال لها حليلة ، فدلتهم على محلة
 من محال بني سليم فأصابوا فيها نعما وشاء وأسرى فكان فيهم زوج حليلة
 المريضة فلما قفل زيد بن حارثة بما أصاب وهب رسول الله ﷺ —

(١) الرثة . سقط المتاع .

للمزينة نفسها وزوجها ، فقال بلال بن الحارث المازني في ذلك :
لعمرك ما أنخسى المسول ولا وت

حليمة حتى راح ركبهما معا

وبلغ رسول الله أن عيرا لقريش قد أقبلت من الشام ، فبعث ريد بن حارثة في سبعين ومائة راكب ليعترضها ، وكان فيها أبو العاص بن الربيع شاردًا يهكر في روجه رينب بنت محمد التي فرق بينه وبينها الإسلام . ست سنوات قد مضت مد آخر مرة رأى فيها امرأته يوم أن خرجت بعد أن عاد من الأسر في بدر .

إنه يذكر والأسى بملأ قلبه يوم أن جاءه أشياخ قريش وساداتها بعد أن رعم محمد أن الخبر يأتيه من السماء وقالوا له :
— فارق صاحبك وعن نزوجك أي امرأة من قريش .
فقال لهم :

— لا والله إني لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لي بامرأتى امرأة من قريش .

إن المشهد لا يرال حيا في وجدانه وإن الدموع لتبلبل روحه كلما تذكر رينب ، فهو يحبها بكل مشاعره وبيض حياته .
ولولا أن تعيره قريش لهاجر إليها وترك تجارته وأمواله .
إنه وقع في الأسر يوم بدر فجاء أخوه عمرو بن الربيع في فدائه فقال لحميه :

— بعثنى رينب بنت محمد هدا في فداء زوجها أحيى أبا العاص بن الربيع .

كانت قلادة حديجة وهبتها استه ليلة زواجها ، قلادة غالية حبيبة ما إن رآها رسول الله — ﷺ — حتى حقق قلبه رقة ورحمة ، إنها ذكرته بحاضنة الإسلام وسيدة نساء قريش وبعثت في نفسه أحب ذكريات حياته ، فقال في صوت مشحون بالانفعال :

— إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا .

وهز تأثر نبي الإسلام عليه السلام قلوب المؤمنين فقالوا :

— نعم يا رسول الله .

وعاد ابن هالة بنت خويلد أخت حديجة أم المؤمنين إلى مكة ليرسل زينب مع زيد بن حارثة ورفيق له ليصحبها إلى أبيها بالمدينة ...

وأحاط زيد بن حارثة والذين معه بعير قريش فلم ير القرشيون إلا أن يسلموا أنفسهم وتجارعتهم لأصحاب محمد وكان فيها عضة كثيرة لصفوان ابن أمية وأن يحقوا دماءهم ، فقد كانوا أهون من أن يقتلوا رجلا قد أطلت من أعينهم المون فساروا مطاطئي الرعوس يرجون عدل محمد — ﷺ .

وراح أبو العاص بن الربيع يمكر وهم مطلقون إلى المدينة ، فهناك زينب حبيبة الفؤاد من يهفو إليها كل كيانه فاختلطت المشاعر في جنبات صدره . إنه لا يدري أيجزن أم يفرح ؟ أم يقطب الحيين أم تفتر عن فمه اهتسامة ؟ أيسير المحروني أم يطير على حناج الشوق إلى الحبيبة ؟

إنه يعرف أين تعيش فيما طالما سأل عنها كل من رار المدينة من أصحابه ، إنها هناك في دور محمد وإن قلبه سيرشده إليها دون رسول . ولاحت لعينيه المدينة ومسجد النبي وقد ألحقت بها دور نسائه وإن كان الظلام يلف كل شيء ، فقد صار يرى بعين بصيرته ويسمع بوجدانه حميف أناميه .

وترامى في جسات المدينة صوت بلال وهو يؤذن بالفجر فحلف ريد بن حارثة والدين معه لوصولوا خلف الرسول وتركوا غير قريش في حراسة عدد قليل من المسلمين ، فراح أبو العاص بن الربيع يتلفت ثم انسل في عماية الصبح إلى دور الرسول ﷺ —

ووقف عليه السلام في المحراب واصطف المسلمون خلفه ، فلما دخلوا في الصلاة إذا بصوت زيب يدوى في المسجد ويهتف السكون :

— أيها الناس إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع .

وقصيت الصلاة وسلم رسول الله ﷺ — وأقبل على الناس وقال .

— هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء من هذا .

ثم انصرف — ﷺ — فدخل على ابنته وقال :

— قد أجزنا من أجزت . المؤمنين يد على من سواهم يحير عليهم

أدناهم ..

وسأله أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ، فصمت عليه السلام قليلا

ثم قال :

— أي بنية ، أكرمي مثواه ولا يخلص إليك فينك لا تحين له .

كانت مسلمة وكان مشركا وقد حرم الله نكاح المؤمنات على

المشركين . وراح كل منهما يروى إلى الآخر وفي القلب شوق وفي الصدر

لوعة لا يحول بينها وبينه إلا حد الله ، ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم

نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ (١) .

وخرج رسول الله ﷺ إلى السرية وقال لهم :

— إن هذا الرجل ما حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا . فإن تحسبوا وتردوا عليه الذى له فإيا أحب ذلك ، وإن أبيتم فهو في الله الذى فاء عليكم فأنتم أحق به .

— بل يرد عليه ما أخذ منه .

وردت إلى أبى العاص بن الربيع أمواله فخرج إلى مكة وهو يذكر ما قيل له في المدينة ، قال له قائل : يا أبا العاص إنك في شرف من قریش وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ، فهل لك أن تسلم فتضم ما معك من أموال أهل مكة ؟

أجل ، إنه ابن عم رسول الله ﷺ — فهو يلتقى معه في جده عبد مناف ، وهو روج ابنته . ولكن ما قيل له لم يكن ليتفق مع من قال فيه رسول الله ﷺ : إيا صاهرنا أبا العاص فنعلم الصهر وجدناه . إنه عرف في قومه بالأمين كما عرف عيه السلام بذلك من قبل فما كان ليقبل ما عرض عليه فقال :

— بشما أمرتموني ، أفتح ديتي بالفدر وعدم الوفاء !

واحتل كل و—دانه ما لقيه من محمد ﷺ ، إن ما عومل به ما كان ليخطر له على قلب ، أكرم أهل البيت مشواه ، قالوا له قولاً لبنا وقال له عليه السلام قولاً معروفاً أصاء بالأنوار سويداء فؤاده ، إنه يحس بكل كيانه أن محمداً ﷺ — أشعل سراح عقله وأرشده إلى الطريق

إنه رأى في المدينة الشرف والكرامة والرفعة والسمو الروحي وبور الله . قد أذهله ما صار إليه مستضعفو مكة بالأمس فقد أصبحوا رهبانا بالليل فرسبا بالنهار ، تتلأأ في وجوههم الأنوار ، تعرف فيها نظيرة النجم . إن

كل شيء يسير في يسر ولين بينا حاسة الشرف تهلر كالوحش الضارى في مكة وإن كانت كل الأفعال لا تمت إلى الشرف ؛ غصب هادر ودعاء تسيل ونسوة تملأ القلوب والفساد قد استشرى في سادات مكة ، إن محمد بن عبد الله قد أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

ودخل أبو العاص بن الربيع أم القرى وطاف بالبيت العتيق وهو يستشعر كأنما خلق خلقا آخر . هات في عينيه آلهة آبائه وأجداده ، رآها لأول مرة حجارة لا تملك لنفسها نفعا أو ضرا فإذا بنفسه تنقاصر ، وإذا بعرق الخجل يتفصد من كل كيانه ، وإذا به يحاهد لتسمو روحه فوق كل ما حوله من ماديات لتقرع أبواب المنكوت لعل نسائم الألطاف تهب وتنكشف الحجب عن قلبه .

ودهب إلى أهل مكة وقد استوى بصره وأرشد إلى الطريق فأدى كل ذى حق حقه ، ثم قام فقال :

— يا أهل مكة هل بقي لأحد منكم مال لم يأخذه ؟ هل وفيت دمتي ؟ —
— اللهم نعم ، فجزاك الله حبرا فقد وجدناك وفيا كريما .

فقال وهو متفرح في الله :

— إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما معى عن الإسلام عبده إلا حشية أن تظنوا إلى إنما أردت أن أكل أموالكم .

ثم خرج إلى المدينة مشرح الصدر لا يطمع في مال ولا سلطان ولا جاه بل يريد وجه الله ، إنه يريد نعمة لا رحمة فيها ولذة لا كدر فيها ، إنه في شوق إلى الله بعد أن داق حلاوة الإيمان . فمن لم يدق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ومن لم يشتق لم يطلب ومن لم يطلب لم يدرك ومن لم يدرك

بقي من المحرومين .

إنه يسير في معبد الله يفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسعائه فصار ذلك ألد عنده من كل عيب . ويات يستشعر أنه لا يزاحم الناس في دنياهم ولو اهتدى أهل الأرض جميعا ما زاحموه في لذته بل رادت لذته بمشاركتهم له في الأسى بربه ، وإنه ليحس أنه تحرر من كل شر ، من عبودية الأهواء والعرائز والجهل . إن ذاته قد تحررت مذ أن عرف ما يريد وماذا يريد واتضحت له حقيقة الطريق .

أشرق وجوده بالاندماج في الوجود بكل حرته ، وأضحى ثابت الحنان ثبات الأرض التي تطويها راحلته ، يحس من أعماق أعماق ذاته وجود قوة متعالية ترعاه وتحميه وتبارك خطاه ما دام يشتد على الصراط المستقيم .

كان جوهر وجوده الإنساني يتألق بالأنوار ، إنه اعتنق الإسلام بعد تدبر وتأمل وتمكيز ، اعتنقه بمحض حرته بعد أن تخلص من ربة ما ورثه من سحافات ، ومن الضرورة العمياء التي فيها يعلب الانفعال على الفعل ، واهتدى إلى أن الفضيلة عزم والرذيلة جهل والحكمة معرفة قوانين الوجود والعمل على أن تطابق الإرادة الباطنية تلك القوانين .

إنه يحس لأول مرة وفاقا بين قلبه وعقله وهداية إلى محبة الناس أجمعين ، وأن الحياة دون الله لا معنى لها ، وأن ملكوت الله هو ميدان العمل المثمر الوحيد . كانت حياته قبل أن يشرق فؤاده بالأنوار ضياعا فأصبحت له رسالة ألا وهي الارتفاع بالنفس البشرية إلى النبع الروحي مصدر كل سعادة وإلهام .

وبلغ المدينة وقد محق كل زائف في نفسه وثبت الحق وتلقى الضياء
الرباني ، فاتجه إلى دور الرسول عليه السلام فاستقبل بالترحاب . وكانت
زينب بنت سبي الإسلام عليه السلام أكثر الناس فرحا بعودة أبي العاص بن
الربيع بعد أن أرشد إلى الطريق وتلقى الحكم من السماء وأصبح من
الراشدين

تولى هرقل حكم الإمبراطورية الرومانية فأهمل روما واستقر في بيزنطة وخاض غمار معارك رهيبة مع دولة الفرس ، فعد أن تهب الساسانيون بيت المقدس وغزوا مصر استطاع هرقل أن يكر عليهم وأن يطردهم من الأراضي التي استولوا عليها ، ومنذ ذلك الوقت صار هرقل ينتقل بين قصوره في بيت المقدس والقسطنطينية فازدهرت الحضارة في الشام وفي بصرى خاصة واصطبغت بالصبغة الهيبسية^(١) .

وكان هرقل قاسيا مع اليهود يضطهدهم أشد الاضطهاد منذ تلك النبوءة القائلة بأن الإمبراطورية سيدمرها شعب محن . ولم يصل إلى هرقل أن محمدا — ﷺ — يوم كان المسلمون يحفرون الخندق كان قريبا من سلمان الفارسي وهو يضرب في ناحية من الخندق فعلمت عليه صخرة ، فلما رآه يضرب ورأى شدة المكان عليه نزل عليه السلام فأخذ المعون من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى ، فقال سلمان :

— بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟
قال عليه السلام :

(١) اليونانية والرومانية .

— أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

— نعم .

— أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق .

إن رسول الله ﷺ — والمسلمين مد ذلك الوقت وهم يتطلعون إلى الشام ، وما كان عليه السلام لتشعله الأحداث المحلية عما يجري في بلاد الشام وبلاد الفرس وأرض اليمن ، فقد كان يبعث رجالا من أصحابه إلى تلك البلاد ليعودوا إليه بأنبائها .

كانت العلاقات طيبة بين دحية الكلبي وهرقل فقد كان دحية تاجرا يحوب الآفاق ، وكثيرا ما ذهب بتجارته إلى بصرى وببيت المقدس ، وكان يدخل على هرقل يقدم إليه الهدايا ويعود من عنده بالدمقس وأجود أنواع الحرير .

وأسلم دحية وأصبح صحابيا جليلا ، وكان جبريل كثيرا ما يأتي رسول الله عليه السلام في صورته ، فلما أراد نبي الإسلام — عليه صلوات الله وسلامه — أن يعرف ما يجري في الشام بعث دحية الكلبي إلى هرقل بغفر كتاب ، فدخل دحية على هرقل فاستقبله بالترحاب وأجازه بمال وكساه .

وأقبل دحية من عند قيصر يحمل الهدايا وتجاره كانت له ، حتى إذا كان بواد يقال له شنان أعار عليه الهيد بن عارض وابنه عارض بن الهيد الصليحيان^(١) في ناس من جذام يحسمي فقطعوا عليه الطريق وأخذوا ما

(١) الصليحيان : بطن من جذام .

معه ، فلم يتركوا عليه إلا الخلق من الثياب .
كان رهط رفاعة بن زيد قد أسلموا وأجابوا رسول الله ﷺ ،
وكانت منازلهم قرية من المكان . فلما سمعوا بما حاق بدحية نفروا إلى
الهيبد وابنه وفيهم من بنى الصبيب النعمان بن أبي جعال حتى لقوهم
فاقتلوا .

وانتمى قرة بن أشقر الصُّفاري ثم الضلعي فقال :
— أنا ابن لبني .

ورمى النعمان بسهم فأصاب ركبتة وقال :
— خذها وأنا ابن لبني .

ثم استنفذوا لدحية متاعه ، وقدم دحية على رسول الله ﷺ —
فأحبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل وردَّ معه دحية ،
فكان زيد يسير الليل ويكس النهار ومعه دليل من بنى عذرة ، فأقبل بهم
حتى هجم بهم مع الصبح على القوم فأغاروا عليهم فقتلوا فيهم فأوجعوا ،
وقتلوا الهيبد وابنه وأغاروا على ماشيتهم وبعمهم وسائلهم فأخذوا ألف بعير
 وخمسة آلاف شاة ومن النساء والصبيان مائة .
ولما سمع بو الصبيب بما صنع زيد ركبوا وجاءوا إليه ، وقال له رجل
منهم :

— إنا قوم مسلمون .

فقال له زيد :

— اقرأ أم الكتاب .

فقرأها ولم يصدقه زيد .

كان رفاعة بن زيد الحذامي قد أسلم في نفر من قومه فراحلوا إلى رسول

الله — ﷺ — ، وأنخروه بما فعل بهم زيد ، وقال رفاعه :

— يا رسول الله لا تحرم علينا حلالا ولا تحل لنا حراما .

فقال عليه السلام :

— كيف أصنع بالقتل ؟

— أطلق لنا من كان حيا ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين .

— صدق .

فقالوا :

— ابعث لنا رجلا لزيد .

فبعث — ﷺ — معهم عليا كرم الله وجهه بأمر ريدا أن يحل بينهم

وبين حرمهم وأموالهم ، فقال علي :

— يا رسول الله إن زيدا لا يطيعني .

فقال صلوات الله وسلامه عليه :

— خذ سيفي هذا .

فأحذه وتوجه ، فلقى علي كرم الله وجهه رجلا أرسله ريد مبشرا على

ناقة من إبل القوم ، فردها على كرم الله وجهه على القوم وأردفه خلفه .

ولقى ريدا فأبلغه أمر رسول الله — ﷺ — ، وعند ذلك قال له ريد :

— ما علامة ذلك ؟

— هذا سيفه — ﷺ — .

فعرف ريد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا فقال :

— ما كان معه شيء فليرده ، فهذا سيف رسول الله — ﷺ — .

كانت المدينة تنصهر لتكون عاصمة دولة عالمية تقوم عل دين يدعو إلى وحدانية الله ويتفق مع مطلق الحياة ويقود إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، فبينما وحى السماء يزل على الأرض يرشد لناس إلى علاقتهم بالله وعلاقة بعضهم بعض ويظم حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كان رسول الله — ﷺ — مما وهبه الله من حذق سياسى ونبل وسماحة وكرامة يعنى بتربية النفوس وتربية الخيل ليعد جيشا يرهب به عدو الله وعدو الإصلاح المنشود للبشر .

إبه غزا القلوب بأمانته وحلقه العظيم وفتح الأفتدة بالقرآن المجيد والتف حوله حير البشر من المهاجرين والأنصار ، ولكن أعداء الإصلاح الذين يخشون أن تدول دولتهم وأن ترول منافعهم تحالفوا ليطفئوا نور الله ، فكان على قائد الهضة الحديدة أن يدافع عن مدينته الفاصلة التى وجدت على الأرض بتأييد من الله ، فراح يعد الرجال إعدادا روحيا وإعدادا عسكريا ليدبوا عن النور الذى هبط عليهم من السماء ويستشهدوا طائعين في سبيله .

قد نبح رسول الله — ﷺ — في غرس الفضائل في النفوس ، وألزم المؤمنين بالصدق والعفة والوفاء والإخاء وإفشاء السلام والمحبة ورعاية الحقوق والاهتمام بأمور المسلمين ، فقال عليه السلام : « من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء » . فكان المسلم للمسلم ناصحا آمينا يؤثره على نفسه ولو كانت به حصاصة .

وعلم عليه السلام أتباعه أن يدعوا الناس إلى ما فيه صلاحهم بالبر متبعين شرع الله الذي شرع لهم : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ^(١) . ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ^(٢) .

وقد تعلم المسلمون من القرآن الكريم ومن الرسول العظيم أن لا إكراه في الدين ، فلم تتحرك جيوش المسلمين ولم تبث المرايا لإرغام الناس على الدخول في دين الله بل للدفع عن النفس وفهر الظلم والفتن . ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ ^(٣) .

بل لقد تعلم المسلمون من القرآن اخذ أن يروا من ليس على دينهم وأن تكون الصلوات بينهم طيبة ما داموا لا يحاولون أن يقطعوا سور الله بأفواههم : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ ^(٤) .

وتعلم المسلمون من وحى الله أن خير الأمور الوسط ، وأن لا حير في التزم ، ولا حير في التحرر والانطلاق بلا حدود ، وأن الله قد جعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ ^(٥) .

أقام سلمان الفارسي أياما مع أبي الدرداء في دار واحدة ، وكان أبو

(١) المحل ١٢٥ (٢) فصلت ٣٤ (٣) البقرة ١٩٣

(٤) المتحنة ٨ — ٩ . (٥) البقرة ١٤٣ .

الدرء يقوم الليل ويصوم النهار ، وكان سلمان يأخذ عليه ذلك التطرف في العبادة . وذات يوم حاول سلمان أن يشئ أبا الدرداء عن الصوم المتصل في غير رمضان ، فقال له أبو الدرداء :

— أتمنعني أن أصوم لربي وأصلي له ؟

فقال له سلمان :

— إن لعينيك عليك حقا ، وإن لأهلك عليك حقا ، صم وأفطر وصل

وم .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ — فقال :

— لقد أشبع سلمان علما .

وكان عليه السلام يحض أصحابه على أن يطلبوا العلم أينما كانت مابعه : « الحكمة صالة المؤمن يأخذها أيما وجدها » . وأن يأمرُوا بالعدل والإحسان . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ويبهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾ (١) ويقول عليه السلام بأصحا : « أحسن إلى من أساء إليك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، تكس مؤمنا حقا » .

إنه عليه السلام يبعث الروح الإسلامية في أصحابه ، يبين حق الله وحق المجتمع وحق الراعي وحق الرعية فيقول : « إن الله يرضى لكم ثلاثة : أن لا تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن ثنأصحو من ولاء أمركم » . ويرشد أصحابه إلى ما أمر به الله لتسود العدالة والعلاقات الطيبة بين الناس : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا

تعاونوا على الإثم والعدوان ﴿١﴾ .

وكانت السياسة التي يسفى أن يسير عليها ولاية المسلمين ترسم في المدينة الفاضلة توصحها آيات الله البيات وسنة الرسول عليه السلام ، فعلى الحاكم أن يبحث عن أصلح الناس للعمل ليقلده دون النظر إلى مودة أو قرابة : « من ولي من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من هو أصح للمسلمين منه فقد حان الله ورسوله » . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية أو سبق في الطلب بل قد يكون ذلك سبب معه ، فقد دخل قوم على رسول الله فسألوه ولاية فقال :

— إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبة .

ولا يجوز للحاكم أن يعدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لقرابة بينهما أو ولاء أو صداقة أو موافقة في مذهب أو طريقة أو جس ، أو لرشوة يأخذها من مال أو منفعة ، أو لعداوة بينهما ، فإن فعل فقد حان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما سعى عنه أحكم الحاكمين . ﴿٢﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تحونوا الله والرسول وتحونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴿٣﴾ .

وكان عليه السلام يحدث أهل الصفة كل ليلة يرشدهم إلى الطريق . إنه راح ذات ليلة يحدث أبا در عن الولاية على المسلمين فقال له :

— إنها أمانة ، وإنما يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها .

وقال عليه السلام :

— إذا ضيعت الأمانة انظر الساعة .

قيل :

— يا رسول الله وما إضاعته ؟

— إذا وسد^(١) الأمر إلى غير أهله .

وقال عليه السلام :

— كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والولد راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته

ولم يكتف عليه السلام بذلك بل قال :

— ما من راع يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة .

وترجع الأمانة إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمنا قليلا وترك خشية الناس ، وقد شرعها الله لكل حكم على الناس : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوا ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾^(٢) .

وكان عليه السلام يقدم فى إمارة الخروب الرجل القوى الشجاع وإن كان بين المسلمين من هو أصلح منه فى الأمانة والصدق . وقد نبى عليه السلام أبا ذر عن الإمارة والولاية فقال له :

(١) وسد الأمر إلى فلان : أسد إليه القيام بتصرفه

(٢) المائدة ٤٤ .

— يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمّن
على اثنين ولا تولّين مال يتيم .

ويقدم في ولاية القضاء الأعلّم الأتقى الأكفأ ويقول : « إن الله يحب
البصر الناقد عند ورود الشبهات ، ويحب العقل عند حلول الشهوات » .
وكان يحض أصحابه على العدل . « أحب الخلق إلى الله إمام عادل
وأعضهم إليه إمام جائر » . وكان يقول سبعة يظلهم الله يوم
لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب شأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق
بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على
ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت
امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين ،
ورجل تصدق بصدقه فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »
وقال صلوات الله وسلامه عليه :

— أهل الجنة ثلاثة : سلطان مُقسط ، ورجل رحيم انقلب بكل دى
قربى ومسلم ، ورجل غنى عفيف متصدق :

— وكان القرآن الكريم يهذب النفوس لتقوى على أن تنهض بصالح
الأعمال . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ
الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُسْلِمِينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ فِي
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۚ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ *
وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۚ وَالَّذِينَ
هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ مِنْ
مَلُومٍ ۚ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى

صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون ﴿١﴾ .

وقال السي — عليه السلام : « أد الأمانة إلى من ائتمت ، و لا تخ من خاكت » .

وقال عليه السلام : « المؤمن من أمه المسلمون على دمائهم وأمواهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » .

وراح عليه السلام يصع أسس جباية الخراج والعشور والصدقات وعلاقة الإمام بالناس ، ويحذر أصحابه والأهل دون الأهل ، وأن لا عمل بعد الأجل ، فيزين هم مادرة الأجل بالعمل ، ويقول : « إذا أراد الله بقوم حيرا استعمل عليهم الخلاء ، وجعل أمواهم في أيدي السخاء . وإذا أراد الله بقوم بلاء استعمل عليهم السخاء ، وجعل أمواهم في أيدي المحلاء . ألا من ولي من أمر أمي شيئا فرفق بهم في حوائجهم رفق الله به يوم حاجته ، ومن احتجب عنهم دون حوائجهم احتجب الله عنه دون خلته وحاجته » .

﴿ واعلموا أنما عنتم من شيء فإن لله حمسة وللرسول ولدى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) . وكان عليه السلام يضرب للفارس ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وللراجل سهم ، ترعيا للناس في ارتباط الخيل في سبيل الله ، فقد كانت الرسان السلاح

الذى يقود إلى النصر .

وكان الخمس مردودا على احتاجين ، وما كان عليه السلام يدخل داره قبل أن يفتق حراما معه من صفراء ويصاها . وكان يقسم الخمس على خمسة أسهم : لله وللرسول سهم ، ولدى القرى سهم ، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم .

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذئ القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ (١) .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أعمر لنا وإلحوانا الدين سقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (٣) .

صار الفء بين هؤلاء جميعا تقسم عليهم الأموال المتداولة ، أما الأرضين فقد ترك للإمام أن يتصرف فيها بما يحقق مصالح المسلمين في أيامه ومن بعده .

وراح عليه السلام ينظم الصدقات فقال : ﴿ في كل أربعين شاة شاة إلى

مائة وعشرين ، فإذا رادت فشاتان إلى مائتين ، فإذا رادت ثلاث شياه إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت فقى كل مائة شاة شاة . وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة .

وفي خمس من الإبل شاة ، وفي عشر شاتان ، وفي خمس عشرة ثلاث شياه ، وفي عشرين أربع شياه ، وفي خمس وعشرين بست محاص إلى خمس وثلاثين ، فإن زادت ففيها اية لبون إلى خمس وأربعين ، فإن زادت ففيها حقة إلى ستين ، فإن زادت ففيها جذعة إلى خمس وسبعين ، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة ، فإن رادت على مائة وعشرين ففي كل خمسين حقة وفي كل أربعين بست لبون ، ولا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية .

وكان عليه السلام يرسم سياسة تحصيل الصدقات والزكاة ويحرص المسلمين على دفعها .. ما مانع الزكاة بمسلم ، ومن لم يؤدها فلا صلاة له . وقال عليه السلام : « العامل على الصدقة باحق كالغاري في سبيل الله » . فالذي يجمع الصدقة دون أن يعمل منها شيئا يكون في مثل الجهاد ، فعليه السلام يرغب الناس في العمل في جباية الصدقات ولكنه لا يترك لهم الحيل على الغارب بل يشهد ضمايرهم ويخوفهم الله ، فقد بعث عبادة بن الصامت على الصدقة فقال له :

— اتق الله يا أبا الوليد ، لا تحيء يوم اقيامة بيعير تحمله على رقبتك له رعاء^(١) أو بقرة ها حوار أو شاة لها ثواح .
— يا رسول الله إن هذا هكذا ؟

(١) الرغاء: صوت البعير ، والحوار : صوت البقرة ، والثواح: صوت الشاة .

— إى والذى نفسى بيده إلا من رحم الله .
 — والذى بعثك بالحق لا تأمر على اثنين أبدا .
 وكان عليه السلام لا يحب أن ينفر الناس ، فإنه عليه السلام بعث رجلا
 ليأخذ من الناس الصدقة لما أنزل عليه أن يأخذ منهم الصدقات ليظهرهم
 ويذكرهم بها ، فقال له :
 — لا تأخذ من حررات^(١) أنفس الناس شيئا ، خذ الشارف^(٢)
 والبكر وذات العيب .
 فذهب الرجل يجمع الصدقات حتى جاء إلى رجل من أهل البادية ،
 فذكر له أن الله تعالى أمر رسوله — ﷺ — أن يأخذ الصدقة من اناس
 يذكهم بها ويظهرهم بها ، فقال له الرجل :
 — قم فخذ .
 فذهب فأخذ الشارف والبكر وذات العيب فقال له الرجل :
 — والله ما كان في إبل أحد قط يأخذ شيئا لله قبلك . والله لتحتارن .
 أمر — ﷺ — بأخذ الشارف والبكر وذات العيب ولكن الرجل في
 البادية بعد أن أشرق في قلبه نور اليقين أبى إلا أن يحتسب وأن يجود بأطيب
 ما عنده راضية نفسه ، فقد نجح الإسلام في أن يعلم الناس أن : ﴿ مثل
 الدين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سابل في كل
 سنبل مائة حبة والله بضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون
 أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا متأن ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم
 ولا أخوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومعرفة غير من صدقة

(١) حررات : خيار أموال الناس . (٢) الشارف : المسة .

يتبعها أدى والله غنى حليم * يأبى الدين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأدى كالذى يعق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمشته كمثل صموال عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدر على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتبليتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها صاعين فإن لم يصبها وابل فطبل والله عما تعملون بصير ^(١) .

لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق بصاع فقال بعض الناس :
— إن الله لغنى عن صاع .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال :
— يا رسول الله مالي ثمانية آلاف جئت بك بنصفها فاجعلها في سبيل الله ،
وأمسكت نصفها لعيالي .

فقال رسول الله — ﷺ :

— بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت .

وتصدق عاصم بن عدي بن العجلان مائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقييل الأنصاري بصاع من تمر .

وقال :

— يا رسول الله بت ليلتي أجز بالحرير أخبلا حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخر .

فأمر رسول الله — ﷺ — أن ينثره في الصدقات ، فلمزهم ^(٢) المفاقون وقالوا :

— ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله غنيان عن صاع أنى عقيل ولكنه أحب أن يزكى نفسه .

فلم يترك الله المارقين ليعيثوا فسادا في المدينة التي تنهياً لتكون عاصمة حبر أمة أخرجت للناس ، بل أنزل على رسوله آيات تفصحهم ونسد عليهم سبل الفساد وينذرهم بالعقاب : ﴿ الذين يلმرون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والدين لا يجدون إلا جهدهم فيسحرون منهم سحر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ (١) .

وكان — ﷺ — لا يفرق بين القوى والضعيف عندما يقسم الغنائم بين الذين شهدوا الواقعة ، فإن سعد بن أبى وقاص الزهري رأى له فضلا عى من دونه فقال :

— يا رسول الله ، الرجل يكون حامية القوم يكون سهمه وسهم غيره سواء ؟

— ثكلتك أمك ابن أم سعد . وهل تررقون وتصبرون إلا بضعفائكم ؟

إنه يجاهد الظلم الواقع من الولاة والظلم الواقع من الرعية ، هؤلاء يأخذون ما لا يحل وهؤلاء يمنعون ما يجب . وقد قال — ﷺ — : « هدايا الأمراء غلول » وقال : « مطل الغنى ظلم » . وقال : « من شفع لأخيه شفاعة فأهدى له عليها هدية فقبلها فقد أتى بابا عظيما من أبواب الربا » . و « السُّحت » (٢) أن يطلب الحاجة للرجل فيقصي له فيهدى إليه فيقبلها » .

(٢) السُّحت : الحرام .

(١) التوبة ٧٩ .

وكان عليه السلام يرى أن تبليغ السلطان حاجة الناس وسيلة من وسائل كف الظلم عنهم وعمل يؤجر المرء عليه ، فقد قال : « أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام » .

وما ضرب رسول الله — ﷺ — بيده خادما له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، فإن انتهكت حرمة الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم الله . إنه لا يقبل شفاعته في حد من حدود الله ، ويقول : « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضار الله في أمره ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مسلم دّين ما ليس فيه حبس في ردعة^(١) الخيال حتى يخرج مما قال » . قيل : « يا رسول الله وما ردعة الخيال ؟ » قال : « عصارة أهل النار » .

وقال أصدق القائلين : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل^(٢) منها وكان الله على كل شيء مقبلا ﴾^(٣) .

وكان نبي الإسلام عليه السلام إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أو في حاجة لنفسه أو صاه بتقوى الله تعالى وبمن معه من المسلمين خيرا ، ثم يقول :

(١) الردعة : اللطين .

(٢) النساء ٨٥ — الكفل : الضعف من الأجر أو الإثم .

(٣) مقبلا : شهيدا وحفيظا ومقتلرا .

— اغزروا باسم الله وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغفلوا ولا
تعدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .

وكان يمقت العصبية ودعوى الجاهلية ، وقد قيل له :

— أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه في الحق ؟

— لا ، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه في الباطل . مثل الذي

ينصر قومه في الباطل كيعبر تردى في بحر فهو يجرب بذبه .

كان الفلاسفة يظنون لأخيلتهم العنان ويتصورون مدنا فاضلة لم تخرج
عن دائرة الأحلام وما كانت تلك المدن لتحقق العدالة المطلقة للبشر ، فقد
عوملت النساء معاملة السائمة في بعض تلك الجمهوريات وظل العبيد
يرسفون في قيود الرق ، فما كان الفلاسفة الذين هموا في الخيال بقادرين
على أن يتخلصوا مما كانت عليه الدنيا في أيامهم وما أقرته من نظم ظالمة ،
ولم يجد الضعفاء مكانا آمنا في تلك المدن التي شيدت في الهواء . وقد عجز
المسكرون الخاملون عن أن يصيقوا الهوة السحيقة بين الفقراء والأغنياء أو أن
يحققوا التوافق بين العقل والمزاج . ولكن مجتمع المدينة كان مجتمعا حقيقيا
لا أثر للوهم فيه ، يسير على منحى إلهي لا يغفل لحظة عن فطرة الإنسان
وقدرته وواقع الحياة ، لا يكلف الله فيه نفسا إلا وسعها ، ويفتح الأبواب
أمام الناس ليجاهدوا في سبيل الهدى والسمو حتى يقرعوا أبواب
الملكوت : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ (١) .

إله مجتمع قد بين أركانه من فطر الناس وترك للجهد البشري أن يحقق
بناء ذلك المجتمع في حدود طاقته ويعون الله ، فالله قد شرع لهذه الجماعة

ويبين لهم الطيب والخبيث ويرين لهم الإيمان والسير في طريق الله على هدى نور الله ، ليتحرروا من عبودية الناس وليعبدوا الله وحده . وقد أرسل إليهم رسولا منهم ليكون لهم أسوة حسنة وليأخذوا ما جاءهم به ولينتهوا عما نهاهم عنه ، وكان رسول الله — ﷺ — على علم بأوامر الله ونواهيه : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ (١) . وكان على علم بطبيعة النفس البشرية ، فلم يكلف الناس شططا ، بل كان اليسر سبيلا فأخذ بيد هذه الجماعة وفجر جميع ما فيهم من طاقات بقاء وقوى حيوة وحررهم من رقة الشهوات المدمرة فتسنى بهم قمة البشرية ، ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

(١) الجاثية ١٠٨ .

(٢) آل عمران ١٠٤ .

كان عليه السلام ينام على فراش من آدم حشوه ليف ، وإذا بصوب بلال يساب في الفجر يديا يدعو الناس إلى الصلاة ، ققام — سكينة — وإذا بشفتيه تتحرر كان بذكر الله فما كان يجلس ولا يقوم إلا بذكر الله تعالى ، وتوضأ ثم راح يسرح لحيته بمشط ، ثم خرج ليؤم المسلمين وقد أرخى لعناته عذبة بين كتفيه ، وكان يلبس قميصا ارتفع إلى نصف ساقيه وكمه إلى الرسع . وأقبل على مسجده المسلمون من غابة المدينة ومن سافلتها وهم يسبحون الله وقام الجميع للصلاة ، فوقف أهل الصفة في مكانهم حلف المصلين فقد كانوا حرس رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه . وقضيت الصلاة فجلس عليه السلام عند أسطوانة المهاجرين والتف حوله أبو بكر وعمر وعلى وعثمان وريد بن حارثة وعمار ، وراح الحسن والحسين يغصوان بين أبيهما وجدتهما العظيم والمهاجرون والأنصار يداعبونهما وقد تفتحت لهما القلوب ، ولا جرم فهما سبطا رسول الله الحبيب .

وراح عليه السلام يعطى كل من جالسه حقه لا يحسب جلسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وجاء إليه رجال يسألونه حاجاتهم فلم يردهم إلا بيا أو ما يسرهم من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه حلم وحياء وصبر وأمانة لا ترع عنده الأصوات .

كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بعمظ ولا غليظ القلب

ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يخيب فيه مؤمله ، قد تطهر من ثلاث : المرء والإكثار وما لا يمس به .
وكان لا يدم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرتجى ثوابه . إذا تكلم أطرقت جلساؤه كأن على رءوسهم الطير ، فإذا سكنت تكلموا ولا ينزعون عنده ، إن تكلم أنصتوا له حتى يفرغ ، وكان لا يقطع على أحد حديثه ، وكان يقول في السراء :

— الحمد لله المتعم المتفضل .

وكان يقول في الضراء :

— الحمد لله على كل حال .

وكان يسلم على العبيد والإماء والصبيان ، وكان يمارح الصغير ويلعب الوليد ويمارح العجور ولا يقول إلا حقا . جاءته امرأة فقالت :

— يا رسول الله احملى على حمل .

فقال عليه السلام :

— إنما أحملك على ولد الناقة .

— لا يطيقنى .

— لا أحمك إلا على ولد الناقة .

— لا يطيقنى .

فقال لها الحاضرون :

— وهل الحمل إلا ولد الناقة ؟

وجاءت له امرأة أخرى فقالت :

— يا رسول الله زوجى مريض وهو يدعوك .

— لعل زوجك الذى فى عينه بياض .

فرجعت وفتحت عين زوجها فقال ما :

— ما لك ؟

— أخبرني رسول الله ﷺ — أن في عينك بياضا .

— وهل أحد إلا وفي عينه بياض ؟

وقالت له امرأة أخرى :

— يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة .

— يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فبكت المرأة فقال لها :

— أما قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنِ انشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ۖ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۚ

عُرْبًا أَثَرَابًا ﴾ ^(١) .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ — يضحكون والإيمان في قلوبهم

مثل الجبال الرواسي ، وكان نعيمان من أولع الناس بالمزاح والضحك ،

وكان رسول الله عليه السلام يرى فعالة ويسمع أقواله فيفتخر ثغره عن

الابتسام .

وكان — ﷺ — يوجب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويقول :

— لو دعيت إلى كراع لأجبت .

وكان يحصف نعله ، ويحلب شاته ، ويركب الحمار ردفا ، ويرقع

الثوب ، ويطحن مع الخادم ويأكل معه ، ويحمل بضاعته من السوق ،

ويصافح الغني والفقير ، ويخالط أصحابه ويمأذنهم ويمأذنهم ، ويلعب

صبيانهم ويجلسهم في حجره ، وما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته

(١) الواقعة ٣٥ — ٣٧ .

الإقال : ليك .

ودخل عليه صلوات الله وسلامه عليه رجل فقام بين يديه فأخذه رعدة من هيبة ، فقال له :

— هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

إنه أوتى حوامع الكلم وإنه يحدث أصحابه ليفقههم فى دينهم ويبر لهم الطريق ، إنه يقول :

— أتانى جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، واحبب ما شئت فإنك مفارق ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس .

وكان يعلم أن الطمع وطول الأمد معسدة للناس ، فكان يعط أصحابه ليزهدهم فى الدنيا فيقول :

— ابن آدم عندك ما يكفيك ، وأنت تطلب ما يطغيك ، ابن آدم لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع ، ابن آدم إذا أصبحت معافى فى جسدك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فعلى الدنيا العفاء .

وكان على الدوام يرشدهم إلى مكارم الأخلاق فما أُرْسِ إلا ليتمم مكارم الأخلاق ، فيقول :

— اتق الله حينما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وحائق الناس بحلق حسن .

اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تفرع من ديوك فى إناء المستسقى ، وأن تلقى أحاك ووجهك إليه مبسط . وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من الخيلة ولا يحبها الله . وإن امرؤ شتمك وعبرك بأمر

ليس هو فيك فلا تعيره بأمر هو فيه ، ودعه يكون وباله عليه وأجره لك ،
ولا تنسب أحدا .

اتقوا المحارم تكن أعبد الناس ، وارص بما قسم لك تكن أغنى الناس ،
وأحس إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن
محببا ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .
اتقوا الله في الصغيفين المملوك والمرأة .

اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة .
إذا أتاك الله مالا فليز أثره عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده
حسنا ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس .

إذا أتى على يوم لا أرداد فيه علما يقرنى إلى الله تعالى ؛ فلا بورك لى
فى طلوع شمس ذلك اليوم .

وكان أبو بكر وعمر عن يمينه وعن يساره ، وكان عليه السلام يقول
لهما .

— الحمد لله الذى أيدنى بكما .

وكانا إذا اجتمعنا فى مشورة ما خالفهما ، فأبو بكر لا يريد من دنياه
إلا إعلاء كلمة الله ، إنه يخشى على رسول الله — ﷺ — أكثر مما يخشى
على نفسه ، فهو لما رأى القافة^(١) وعتيان قريش يساهمهم وسيوفهم وقوفا
على فم العار عند الهجرة اشتد حزنه وقال :

— إن قتلت فإني أنا رجل واحد ، وإن قتلت يا رسول الله هلكت
الامة .

(١) القافة : قصاصو الأثر .

فقال له عليه السلام :

— لا تحزن إن الله معنا .

وأنزل الله سكينة عليه وهاجر مع رسول الله عليه السلام إلى المدينة وشهد معه المشاهد كلها ، وسمع الناس وهم يتلون ما نزل فيه من القرآن فاغرو رقت عيناه بالدموع ، وكان يطرق حياء كلما سمع رسول الله عليه السلام يتحدث ، قال عليه السلام :

— ما أحد عندي أعظم من أبي بكر ، وأسأنى بنفسه وماله وأنكحني ابنته .

فكاد الصديق يدوب حياؤه . إنه أنفق أمواله في سبيل الله وفي بصرة رسوله حتى إن نبي الإسلام عليه صلوات الله وسلامه قال :

— إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبأ بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبأ بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام .

ولا غرو فقد قال عليه السلام فيه :

— مثل أبي بكر مثل اللبن في الصفاء ، ومثل أبي بكر كالغيث أينما وقع نفع .

وقال :

— ما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر .

فبكي أبو بكر وقال :

— هل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله ؟

كان أبو بكر وعمر وزيري رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان رسول الله عليه السلام يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر ، فلم يرفع أحد منهم بصره إلا أبو بكر

وعمر فإيهما كانا ينتظران إليه ويتسلمان إليه ويتسما إليهما .
 كان أبو بكر يجلس إلى جوار رسول الله فيبدو كأنه ملك في رى
 مسكين ، وكان عمر بن الخطاب يجلس إلى جوار النبي عليه السلام كأنه
 جيل ، إنه مع الحق حيث كان . وقد قال فيه عليه السلام :
 — عمر معي وأنا مع عمر ، والحق مع عمر حيث كان .
 إنه قال يوم أن أسلم :

— يا رسول الله ألسا على الحق إن متنا وإن حييا ؟
 — بلى والذي نفسى بيده ، إنكم على الحق إن متم وإن حييم .
 — يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟
 — يا عمر إنا قليل وقد رأيت ما لقينا .
 — والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست
 فيه بالإيمان .

ثم خرج في صفيح حمزة في أحدهما وعمر في الآخر له كديد ككديد
 انطحين حتى دخلوا المسجد ، فطمرت قريش إلى عمر وإلى حمزة فأصابته
 كآبة لم يصبهم مثلها ، فسماه رسول الله — عليه السلام — يومئذ الفاروق .
 إنه كلما تذكر أنه كان يصارع الفتيان في سوق عكاظ ويمشى إلى
 صاحبات الرايات الحمر يكي ، وكان يذني يده من النار ويقول :
 — يا بن الخطاب هل لك على هذا صبر ؟

ويكي فقد أرهف الإسلام شعوره حتى إنه كان إذا أعجبه شيء من
 ماله تصدق به ، وكان كثيرا ما يتصدق بالسكر فقيل له في ذلك فقال :
 — إني أحبه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَنْ تَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا

تحبون ﴿١﴾ .

إن جبار الجاهلية قد سما حتى رفعت الحجب بينه وبين الملكوت لما ألقى الله في قلبه أنوار اليقين . وقد كان الصديق والفاروق مستشاري نبي الإسلام وقد قل عليه السلام فيهما :

— أبو بكر وعمر منى بمزلة السمع والبصر .

وكان عثمان بن عفان من حواربي رسول الله ﷺ ، ولما زوجه رسول الله عليه السلام بنته أم كلثوم قال لها :

— إن بعثت أشبه الناس بك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

ودخل عثمان على النبي عليه السلام وركبته يادية ، فغطى رسول الله ﷺ ركبته فقبل له :

— دخل عليك أبو بكر وعمر وعلى فلم تغطها .

فقال رسول الله ﷺ :

— إني لأستحيي ممس استحييت منه الملائكة .

وكان يقال له ذو النورين لأن النبي ﷺ — زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم .

وكان شديد الحياء حتى إنه ليكون في البيت والباب مغلق عليه فما يضع الثوب عه عند الغسل ليفيض الماء ، ويمسحه الحياء أن يقيم صلبه .

وكانت عيره تأتي من الشام وهي ألف بعير موسوقة برا وريتا وربيبا فيتصدق بها ويدخل بيته يأكل الخل والزيت ، وكان إذا مر على مقبرة بكى حتى تبتل لحيته .

وكان علي بن أبي طالب ربيب النبي عليه السلام لا يفارق مجلسا من مجالس الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . إنه يتلقى منه العلم ويحاول أن يقوم أثره في مكارم أخلاقه وكرمه وتواضعه . كان يصلي الظهر ذات يوم في مسجد الرسول فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئا ، فرفع السائل يديه إلى السماء وقال :

— اللهم اشهد أني سألت في مسجد نبيك محمد — ﷺ — فلم يعطني أحد شيئا .

كان علي في الصلاة راکعا فأومأ إليه بخصره اليمنى وفيها خاتم ، فأقبل السائل فأخذه من خصره وذلك بمرأى من النبي — ﷺ — ، فرفع رسول الله — ﷺ — طرفه إلى السماء وقال :

— اللهم إن أخى موسى سألك فقال : ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ ويسر لي أمري ﴾ واحلل عقدة من لساني يفقهو قولي ﴾ واجعل لي وزيرا من أهلي ﴾ هارون أخى ﴾ اشدد به أزري ﴾ وأشركه في أمري ﴾ ^(١) فانزلت عليه قرآنا : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ﴾ ^(٢) . اللهم وإني محمد بيك وصفيك ، اللهم فاشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واجعل لي وزيرا من أهلي عليا اشدد به طهرى .

فما استتم دعاءه حتى نزل عليه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل وقال :

— يا محمد اقرأ : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ ^(٣) .

وكان يقول :

— مفتاح الجنة الصبر . مفتاح الشرف التواضع . مفتاح الكرم التقوى . من أراد أن يكون شريفا فليزِم التواضع . لا شرف لمخيل ، ولا همة لمهين ، ولا كنز أعنى من القناعة ، ولا مال أذهب للعاقبة من الرضا بالقوت .

إبه نام في هراش النبي — ﷺ — وقد اجتمعت فريش على قتل النبي عليه السلام ، يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، وقد حارب يوم بدر أعداء الله في شجاعة نادرة ، وقد أصابه يوم أحد ست عشرة ضربة ، وقتل يوم الخندق عمرو بن عبدود. إنه فارس البهار راهب بالليل جمع بين فصاحة اللسان وبتر الحسام .

وكان على يعرف مكانته في قلب ابن عمه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يعرف حب رسول الله للزهراء فقال له ذات يوم :
— يا رسول الله أينا أحب إليك أنا أم فاطمة ؟

قال :

— فاطمة أحب إلى منك ، وأنت أعز على منها .

وكانت عائشة أم المؤمنين تقول :

— ما رأيت أحدا أشبه سمحا ولا هديا ولا حديثا برسول الله — ﷺ —

من فاطمة ، وفي قيامها وقعودها .

كانت سيدة نساء المسلمين وكانت صالحة تقضى نهارها وليلها في العبادة ، وكانت الأموال تأتي إلى أبيها وإلى زوجها من فيء الله فلا يدخلان دورهما قبل أن ينفقا في سبيل الله ما ساقه الله إليهما . فكانت في عاية من ضيق العيش لتكون أسوة لفقراء المهاجرين والأنصار وتنبئها للغاملين على

أن الدنيا ليست مطعم نظر الكاملين .
 دخل عليها ذات يوم زوجها على بن أبى طالب وهى تطحن فقال لها :
 — قد جاء أباك خدّم كثير فاذهبي فاستخدميه .
 ثم أتيا إليه جميعا فاطمة أحب أهله إليه وعلى بن أبى طالب من سأل الله
 أن يشدد به أزره ، فقالت فاطمة :
 — يا رسول الله لقد طحنت حتى كلت يدي ، وقد جاءك الله بسعة
 فاخدمنا .

فقال :

— والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بعلونها من الجوع .
 وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم سلمة بنت زاذ
 الركب ورينب بنت جحش فى دور النبى يتلقين عنه العلم . وما كان أحد
 أعلم بفقهه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، ولو جمع علم عائشة إلى علم
 جميع أزواج النبى — ﷺ ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل .
 كان عليه السلام يعلم رجال المهاجرين ونساءهم ورجال الأنصار
 ونساءهم كيف تكون الحياة الفاضلة على الأرض ، ويشرح لهم المنهج
 الدينى للحياة ، ويغير بالقُدوة الحسنة والوصايا العلية نفوسهم ، فقد أنزل
 عليه : ﴿ إِنْ اللَّه لَا يَغِير مَا يَقُوم حَتَّى يَمُوتُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ ﴾ (١) . إنه
 يحاهد الصعف البشرى والهوى البشرى فى يموس الناس لتكون كلمة الله
 هى العليا فتتحقق فى الأرض عدالة السماء .
 إنه يعرس فى أصحابه القيم التى تقوم عليها الحياة ، ويرسم لهم المنهج

الذى يحقق كرامة الإنسان ويمنحه حرية ويطلقه من العبودية لغير الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَكُمُ شَهَادَتُكُمْ عَلَى آلَا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

إنه يضع الأساس السليم لقيام نظام للحياة البشرية على دعائم طبيعية يقوم عليها صرح مساعدة الناس في الدنيا والآخرة محققا غاية الوجود الإنساني ؛ فهو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى من لدن خالق الوجود العليم بحقيقة الوجود وبحقيقة الإنسان

إنه يقود الفطرة البشرية لتتأسق مع باموس الوجود ، وإنه ليرشد البشر إلى التوافق مع الكون حتى لا يحطم الإنسان على صخرة العناد والضياغ ، ويشقى في تيه القلق والشك ، ويتمرق في فيافي الخيرة ، ويتدنى في مهاوى الاضطراب .

إنه يملأ النفوس بالعمة والكرامة ومكارم الأخلاق ، ويرحمهم من ذلك الخواء المرير المدمر ، ثمرة المتاع الحسى وفراغ الحياة والعقم الروحى والأخلاق المحررة المنحللة التى تعد لدتها فى أحضان لرديلة لخطات ، ثم تصبح أسيرة الأهواء والشور والآنام .

إنه ينقل البشرية من وادى الديموع ، من أرض الضياغ ، من ديا الشقاء ، من كهوف الخوف ، إلى رمرفات الطمأنينة ، وطيبات السعادة ، وصراط السلام ، إنه يحطم الحواجز النفسية بين الإنسان وبين الله . إنه يعد رعاة الإبل ليكونوا رعاة الشعوب وفى قلوبهم نور وفى أيديهم كتاب منير .

الروح الإسلامية تسرى في المدينة ، وصحابة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ينظرون إليه بعيون مفتوحة ويلقون إليه آذانا واعية . فهو المصطفى لهداية البشرية ، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، والقُدوة التي يقتدى بها الذين يريدون أن يسيروا في طريق الفكرة الإسلامية الصحيحة التي لا يأتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فمحمد رسول الله — ﷺ — يفيض عليهم كل يوم من إنسانيته ، ويقتنم دروسا في نظافة الحياة الزوجية وفي سمو الأبوة ، وفي رأفة الحاكم وعدله وحزمه ، وفي عداله القاضي ، وفي براعة القائد ، وفي كفاح المحاهد ، وفي خشوع المتعبد ، وفي مزج الدنيا بالآخرة وربط الأرض بالسماء ، فقد جعل العمل عبادة والعبادة عملا ووجد بين الفكر والوجدان ، فأصبح أصحابه يسرون بأجسامهم على الأرض وأرواحهم متعلقة بالسماء .

وكان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يفعل عن حماية اندية حتى لا تسمح للكافرين فرصة أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فكان إذا سمع بأن قبيلة تجمع الجموع لتعير على المدينة لا ينتظر حتى يتحدر الحاققون إليه ويتحوا في أصحابه ، بل كان يبعث إليهم السرايا ليلقي الرعب في قلوبهم ويشتت شملهم ، وقد جاء الخبر إلى رسول الله عليه السلام أن أم قرفة تسبه وأنها تحرض بنى فزارة على قتاله ، فلما تيقن — صلوات الله وسلامه عليه — بعث أبا بكر الصديق إلى فزارة .

كانت أم قرفة في شرف من قومها وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً

كلهم لها محرم ، وكان لها اثنا عشر ولداً ومن ثم كانت العرب تضرب بها
المثل في العزة فتقول :

— لو كنت أعز من أم قرفة ١٤

وكان لها ابنة من أحسن العرب أفاص الناس في وصف حسناتها ،
وكانت ذات جمال حقاً إلا أن قلبها كان يمتلئ حقداً على نبي الإسلام عليه
السلام مثل قلب أمها . ولا غرو فقد كانت الأم تعذى ابنتها بكرهية
الإسلام وأهلها .

وخرج أبو بكر الصديق والذين معه إلى بني فزارة بوادي القرى ، حتى
إذا صلوا الصبح أمرهم فشوا الغارة فوردوا الماء ، فدار قتال بين أبي بكر
والمسلمين وبين بني فزارة ، وامتألت جنابات الوادي بالتكبير وسقط
الفزاريون صرعى . فلما رأت أم قرفة أن الدائرة تدور على قومها أخذت
ابنتها والذراري وراحوا يهرولون نحو الجبل .

ورأى مسلمة بن الأكوع الطائفة التي ولت الأدبار فحشى أن يسبقوه
إلى الجبل فأدركهم ورعى بسهم بينهم وبين الجبل . فلما رأوا السهام وقفوا
فدنا مسلمة منهم فإذا بأم قرفة عليها قشع من آدم (فروة خلقة) معها ابنتها
من أحسن العرب ، فجاءهم يسوقهم إلى أبي بكر فنفله ابنتها .

وعادت السرية بالأسرى إلى المدينة وما كشف مسلمة لبنت أم قرفة
ثوباً . وذكر له — ﷺ — جمالها فتذكر أسيراً مسلماً كان في أيدي قريش
قطاعت بذهنه فكرة أن يسأل مسلمة أن يهب له المرأة فيبعث بها إلى قريش
ليعدي الأسير المسلم الذي كان في أيدي المشركين .

وانتقى عليه السلام بمسلمة بن الأكوع في السوق فقال له :

— يا مسلمة ما جارية أصبتها ؟

— يا رسول الله جارية رجوت أن أفدى بها امرأة منا في بنى فزارة .
وانصرف رسول الله عليه السلام يفكر ، إن مسلمة يريد أن يفدى
امرأة من أهله بينت أم قرفة وهو يريد أن يفدى بها أسيرا مسلما بين يدي
فريش ، وراح يقارن بين الفداءين فرجحت كفة فداء أسير مكة ، والتقى
رسول الله في السوق بابن الأكوخ فقال له :
— يا مسلمة هب لي المرأة لله أبوك .

— هي لك يا رسول الله .
فبعث بها رسول الله — ﷺ — إلى مكة ففدى بها ذلك الأسير .
وقال عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف :
— تمهز فإني باعثك في سرية من يومك هذا ومن الغد إن شاء الله
تعالى .

ثم أمره أن يسرى من الليل إلى دومة الجندل في سبعمائة ، فراحوا
ينجھرون وعسكروا خارج المدينة ، فلما كان وقت السحر جاء عبد
الرحمن بن عوف إلى رسول الله — ﷺ — وقال :
— أحبيت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك .

وسار عبد الله بن عمر لسمع وصية رسول الله — ﷺ — لعبد الله بن
عوف ، فما كان عبد الله يحب أن يفوته فعل أو قول لمحمد — صلوات الله
عليه وعلى آله ، فإذا فتي من الأبصار أقبل يسلم على رسول الله —
ﷺ — ثم جلس فقال :

— يا رسول الله أى المؤمنين أفضل ؟

— أحسنهم خلقا .

— وأى المؤمنين أكيس ؟

— أكثرهم للموت ذكرا وأحسبهم له استعدادا قبل أن يزل بهم ،
أولئك الأكياس .

ثم سكنت العنى فأقبل رسول الله — ﷺ — فقال :
— يا معشر المهاجرين خمس حصال إذا نزلت بكم — وأعود بالله أن
تدركوهن :

بانه لن تظهر العاشقة في قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون
والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا .

وما نقص المكياال والميزان في قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من
الثمرات وشدة المؤنة وحور السلطان لعلمهم يذكرون .

وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولولا البهائم لم
يسقوا .

وما نقض قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم
فأخذ ما كان في أيديهم .

وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بيهم .
وكان على رأس عبد الرحمن بن عوف عمامة غليظة فنقضها رسول الله

— ﷺ — بيده ثم عمه بعمامة سوداء وأرعى بين كفيه منها أربع أصابع
أو نحوها من ذلك ، ثم قال :

— هكذا يا بن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف .
ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه ، وقام — ﷺ — فحمد الله

ثم صلى على نفسه ثم قال :
— اغز باسم الله وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر ولا تغل ولا تغدر ولا

تقتل وليدا فهذا عهد الله وسنة بينكم فيكم .

ثم قال — ﷺ — له :

— إذا استجابوا بك فتزوج ابنة ملكهم .

وسار عبد الرحمن بن عوف ومن معه إلى دومة الحندل ليدعو أهلها إلى الإسلام ، إلى نور الله ، إلى المبادئ السمية التي اعتنقها من قبل دومة بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن ، تلك المبادئ التي طمسها أساطير الشعوب .

وكان الأمل يراود عبد الرحمن في أن يستجيبوا الدعوة الحق فقد اعتنق ملكهم النصرانية من قبل لما اتصحت له أن ما تدعو إليه المسيحية أسمى من اجاهلية التي رأت على ملكه ، فمثل ذلك الرجل الذي يبحث عن الحقيقة دون تعصب لمعتقدات الآباء من اليسير أن يفتح فؤاده لبور الحق .

وقدمت سرية عبد الرحمن بن عوف دومة الحندل فذهب إلى قصر ملكهم الأصمغ بن عمرو الكلبي وهو يتلفت . كانت مدينة حصينة كأنها قلعة في الصحراء . إنها شهدت معارك طاحنة بين بنى إسماعيل والأشوريين ، وإن السعمائة الذين معه لا قدرة لهم على دك حصون المدينة فما جاء ليغزو الحصون بل ليغزو القلوب ، فإذا ما نجح في أن يفتح أفئدة الناس فما أيسر أن تدبى له المدينة كلها بالولاء .

واجتمع الأصمغ بن عمرو الكلبي وحاشيته ورجال دينه بعبد الرحمن بن عوف وصحابة الرسول عليه السلام ، وعرض عبد الرحمن على القوم الإسلام فاحتقنت الوجوه بالدم ورجرت الثورة في الصدور ، وقال فائل في غضب :

— ليس بيننا وبينكم إلا السيف .

و لم يفعل عبد الرحمن وجعل يسرد على مسامعهم مبادئ الإسلام فإذا

ملكهم الأصعب بن عمرو الكلبي يمثل بنفسه الشعور الذي امتلأ به الجاشي لما قرأ عليه جعفر بن أبي طالب القرآن . إنه يحس في أعماقه أن ما جاء به محمد عليه السلام وما جاء به السيد المسيح من مشكاة واحدة .

وأرعى الليل ستره والحوار دائر بين أتباع محمد وأتباع المسيح والأصغر ابن عمر الكلبي يصغى وقد انفعل بأقوال الرجال الذين جاؤوا من المدينة وأعجب بفعلهم ، فما شعلتهم المناقشات عن ذكر الله .

وفي اليوم التالي انعقد المؤتمر الديني : أصحاب محمد عليه السلام يتلون القرآن العظيم فيهرق القلوب ويجعل الدموع تفيض من الأعين ، ويشرحون مبادئ العقيدة السمحة فإذا بها عقيدة ميسرة تحض على مكارم الأخلاق وتأخذ بيد الناس إلى قسم البشرية .

ودخل الملك الأصغر بن عمرو الكلبي لينام ولكن النوم جافاه فأيات الله البينات تدوى في عين ذاته وتشغله عن النوم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَ لَكُمْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون * وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُون * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَى اللَّهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٢) .

وطلت الآيات تتردد في نفسه وهو شارد يفكر فيحس أن ما سمعه في يومه قد أنار له الطريق وأرشده إلى السبيل ، وأنه ولا ريب الدين الذي دعا إليه كل الرسل والأنبياء ، وأنه الخنيفية السمحاء . وفي ظلمات الليل رأى بعين بصيرته أنوارا بهر كل الأنوار ، أنوار تستقر في القواد وتنعكس منه لتفيض على الوجود ضياء ربانيا يغمر عالم الملكوت . يشاهد به ما وراء الحواس .

وفي اليوم التالي عاد عبد الرحمن بن عوف وقلة من أصحابه إلى قصر الملك ، وجاء الملك ورهبانه وخاصته وكان متطلق الوجه يرنو إلى المسلمين في عطف بعد أن استقر في وجدانه أنهم حزب الله .

وراح المسلمون يقرعون القرآن فأطرق الأصمغ بن عمرو الكلبي ينصت فيستشعر كأن القراءة تنسكب في قلبه بالأنوار ، وأطبق الرهبان الشفاه فقد ألقوا السمع إلى ابن عوف وهو يرتل القرآن ترنيلا فيمس في نفوسهم أنوار الإيمان ، ومات الجدل بعد أن جاءهم برهان من ربهم فما يقصه القرآن من أنباء الرسل ومن أنباء ما قد سبق قد ثبت الإيمان في قلوبهم ، فما كان لبشر مهما تفقه في الدين أن يكون عنده كل هذا العلم ، إنما العلم عند الله وإنما محمد نذير مبين .

وقال الملك الأصمغ بن عمرو الكلبي في انفعال شديد وقد كسا الإيمان

وجهه :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

وتهللت وجوه المسلمين بالبشر وخفقت القلوب بالفرح ، وراح الرهبان ينطقون شهادة الحق فطمرت الدموع من أعين عبد الرحمن بن عوف والذين معه ، فقد كان إسلام القوم أحب إليهم من قتالهم والانتصار عليهم وأسر الذراري وسوق النعم . فقد بعث محمد عليه السلام هاديا ولم

يبعث جايبا .

وأسلم الأصم بن عمرو وأسلم معه ناس كثيرون من قومه ، وأقر من أقام على كفره بإعطائه الجزية عن يد وهم صاغرون .

وأرسل عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ — يخبره بإسلام القوم فابشرح صدره عليه السلام ، فقد كان يسره أن يدخل الناس في دين الله ، ولكن إسلام الأصم بن عمرو والكسي كان شيئا آخر له خطره فقد أصبحت قلعة حصينة في طريق الشام والعراق يخفق في حناتها نور الله ، وستكون دومة الجندل نقطة ارتكاز عندما يأتي ذلك اليوم الذي يتحقق فيه وعد الله بأن يرث المسلمون ملك الفرس وملك الروم .

وأراد رسول الله ﷺ — أن يشد الأواصر بين أصحابه وبين الكليبيين ، فكتب عليه السلام إلى عبد الرحمن بن عوف أن تزوج بنت الأصم ، فلما جاء إليه الكتاب لم يتردد فقد قال له عليه السلام يوم بعثه : « إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم » وما هو ذا عليه السلام يبعث إليه بكتاب يأمره فيه بأن يتزوج بنت الأصم ، ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ﴾ (١) .

وتزوجها عبد الرحمن بن عوف وهي أول كلبية بكحها قرشي ، ومكث في دومة الجندل وقد هدى الله به أقواما ، ثم قدم بها المدينة وقد ربط الأسباب بين دومة الجندل والمدينة .

كان علي بن أبي طالب ربيب رسول الله ﷺ — يتلقى عنه الحكمة والعلم ويتحذره أسوة ، وكان ابنه الحسن يدعو أبا الحسين ويدعوه الحسين أبا الحسن ويدعوان رسول الله ﷺ — أباهما ، وكناه رسول الله عليه السلام أبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها ، وقال له رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :
— أنت يعسوب (١) الدين والمال يعسوب الظلمة .

وهاجرت أمه فاطمة بنت أسد مع المهاجرين وكان رسول الله — صلى الله عليه وآله — يكرمها ويعظمها ويدعوها أمي ، وأوصت إليه حين حضرتها الوفاة فقبل وصيتها وصلى عليها ونزل في لحدها واصططجع معها فيه بعد أن ألبسها قميصه ، فقال له أصحابه :

— إنا ما رأيناك صنعت يا رسول الله بأحد ما صنعت بها ؟
فقال :

— إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبر بي منها .

لم يس رسول الله ﷺ — صبيح أبي طالب به ، وإنه ليدكر على الدوام تلك الأيام التي كفله فيها عمه بعد موت جده عبد المطلب ، وكلما نظر إلى علي كرم الله وجهه تذكر أيام أن وقف أبو طالب إلى جواره يشد أزره ويمنع عنه أذى قريش ويقول له : قل ما أحبت . وإن لم يدخل في دير

(١) يعسوب : ذكر النحل وأميرها .

الله .

لم يعترض عمه على إسلام علي بل قال له اتبعه فإنه يدعوك إلى مكارم الأخلاق . وكان علي في حجره عليه السلام فصار له أبا روحيا ينهل من علمه أشرف العلوم ويقتبس منه الفضائل وسحر البيان ، ويقنّدي به في شجاعته وسخائه وجوده ، فرسول الله عليه السلام رئيس انفضائل وينوعها ، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ وله اقتفى وعلى مثاله احتدى . كان على الشجاع الذي ما فر قط ولا ارتاع من كتيبة . ولا بارز أحدا إلا قتله ، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية ، كانت ضرباته وترا . وكانت العرب تفتخر بوقودها في الحرب في مقابلته ، وكان رهط قتلاه بفتحرون بأن قاتل الأجابة على كرم الله وجهه ، قالت أخت عمرو ابن عبد ود ترثيه :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبدا ما دمت في الأبد
لكن قاتله من لا سطر له وكان يدعى أبوه بيضة البلد
ما صارع أحدا قط إلا صرعه ، وكان يصوم ويطوى ويؤثر براده وفيه أنزل . ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيًّا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ إنما يطعمكم لوجه الله لا تريد منكم جزاء ولا شكورا ﴿ (١) .

وكان يسقى بيده لتخل قوم من يهود المدينة حتى ثخن جلده ، ويتصدق بالأجر ويشد على بطنه حجر ، إنه على الخلق الذي يحبه الله السحاء والوجود ، ما قال لا لسائل قط .
وكان أحلم الناس عن ذنب بعد رسول الله عليه السلام وأصفحهم عن

مسيء ، لا تصدر أفعاله إلا عن الدين والورع ، ولا حرم فهو ريان على ادوام من حكمة يسوع الحكمة وموارد علم رسول الله عليه — صلوات الله وسلامه .

وكان سيد المجاهدين ، قُتل في عروة بدر سبعون من المشركين قتل على نصفهم . وجدل صناديد قريش في أحد ، وترك عمرو بن عبد ود فارس قريش يوم الخندق كأمس الدبر . وكان لا يجارى في الفصاحة ولا يبارى في البلاغة ، وكان طلق الحيا دائم البشر لين الجانب شديد التواضع ، ولا عرو فهو يرى إمام المتواضعين ينام على الحصى ، وكان مُهابا .

ما شيع من طعام قط ، وكان أخشن الناس مأكلا وملبسا يأتمد إذا التمد بجمل أو ملح ، فإن ترقى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل ، وكان يأبى أن يحمل بطنه مقابر الحيوان ! كان يحفظ القرآن وكان من أسد الناس رأيا وأصحهم تدبيرا ، متقيدا بالشرعة لا يرى خلافا ، حشنا في ذات الله ، زوجته سيدة نساء العالمين ، والحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة . إنه قرّة عين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنه عليه السلام لم يعبده عن المخاطر بل كان يدفعه إلى الجهاد في سبيل الله ، فخاتم الأنبياء كان على اليقين من أن المرء لن يصيبه إلا ما كتب الله له .

كانت خبير تعل بالحق على نبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه لما أجلى بنى قينقاع وبى النصير عن المدينة نزل أغلبهم على يهود خبير ، ولما أصدر سعد بن معاذ حكمه في بنى قريظة بأن تقتل الرجال وتقسّم الأموال وتسبى الدرارى والنساء قُتل حُبي بن أخطب سيد بنى اسضير فيمن قتل ، فكان بنو النصير يتحرقون شوقا إلى الثأر من صبادى

اليهود .

كان اليهود في خير يعلمون أنهم أهون من أن يشنوا حرباً على المسلمين ، وكانوا يرون أن تأليب القبائل عليهم هو لوسينة التي تمكنهم من الثأر من قشة الأحبة .

وبكر ذكرى خروج ساداتهم إلى قريش لتزيين قتال المسلمين كانت ثورقهم ، فلم تتمكن جيوش الأحزاب من استئصال شأفه أعدائهم بل كانت وبالا على حبي بن أخطب وعلى بني قريظة بله على اليهود أجمعين ، فلم يعد لهم حصون ولا معاقل ولا أطام في المدينة ، فرأوا أن يستعيبوا بحراهم وأن يشنوا على المسلمين هجوماً على عرة فتكون لهم المادرة فيحققون ما عجزوا عن تحقيقه في كل ما سبق من تدبير .

أرسلوا رسلهم إلى بنى سعد بن بكر بمدك فراحوا يفاوضهم على أن يمدوهم برجال الحرب المسلمين على أن يجعلوا لهم تمر حبير في تلك السنة ، فأسال العرض لعاب بن بكر فقبلوه وراحو يعدون العدة للسير مع يهود حبير إلى المدينة ، وهم يحلمون بهزيمة المسلمين وقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذراري والنساء .

وبيع رسول الله ﷺ — أن لبني سعد جمعاً يريدون أن يمدوا به يهود حبير ، فبعث ربييه الحبيب على بن أبي طالب في مائة رجل ليهجموا ذلك الجمع في عقر دارهم ليشتمهم ويلقى الرعب في قلوبهم قبل أن يتدفقوا على مدينة الرسول .

سار على في مائة رجل من أصحاب الرسول في شعبان سنة ست من الهجرة إلى بنى سعد بن بكر بمدك وكان بينهما وبين المدينة ست ليال ، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى لا يحسوا بخروجه ، إلى أن نزل برجاله محلاً

بين خير وفدك ، فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال :
— لا علم لي .

عشدوا عليه فأقر أنه عين لهم خرح يتسم الأخبار وقال :
— أخبركم على أن تؤمنوني .

فأمنوه فدلهم فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة ،
وهربت بنو سعد بالدراري والنساء . فعزل على رضى الله عنه صفى^(١)
رسول الله — ﷺ : لقوحا تدعى الحفدة^(٢) ، ثم عزل الخمس لله
ورسوله وقسم الباقي على أصحابه .

وامتلأت المدينة بالبعير والشاء ، وكان نصيب الله ورسوله الخمس :
مائة من الإبل وأربعمائة شاة وإمها لشيء كثير لو أمسكها عليه السلام
لأغنته ، ولكنه وزعها جميعا على فقراء المسلمين . ولم يدخل على كرم الله
وجهه على روجه وأبنائه إلا بعد أن تصدق بتصبيه كله على الفقراء
والمساكين ، فقد كان له في رسول الله أسوة حسنة ، فهو يرجو الله واليوم
الآخر .

(١) الصفى : ما يختاره الرئيس لعمه قبل القسمة

(٢) الحفدة : السريحة .

كانت قريش تتأهب لرحلة الصيف وكان سادات قريش يجتمعون في دار الندوة وفي الحرم وتحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، فأبو سفيان بن حرب رعيم القافلة كان كسير القلب فقد جاءته الأنباء بأن ابنته أم حبيبه قد ركبت السفينة لتنتقل مع المسلمين الذين كانوا في الحيشة إلى المدينة ؛ إنها ستزف إلى محمد عدوه اللدود وإن هذه الزيجة لتزول الأرض تحت قدميه . وكان يزيد في قلقه أنه خارج إلى الشام في رحلة طويلة وسيغيب عن مكة شهورا لا يدري ما قد يقوم به ابن عبد الله ، فمد أن أحفقت الأحزاب في القضاء على ابن أبي كبشة وحزبه فالإسلام يزحف في كل مكان ، ومحمد يضرب أعداءه كلما فكروا في أن يجمعوا له الجموع فهو يسير إليهم ويشتمهم قبل أن يتحركوا لقتاله . فمن يدري قد يرحف محمد إلى مكة في غيابه ويضع يده على قلب جزيرة العرب الباطض فيصبح زعيم العرب بلا مازع ، ويعلو بيت بني هاشم يبا يصير بيت بني أمية في الظل .

كانت الرعامة هي شغل أبي سفيان الشاعل وكانت الدنيا هدفه ، إنه لا يريد أن يصدق أن محمدا — صلوات الله عليه وسلامه — رسول من عند الله وإن كان يعلم أنه صدوق لا يكذب ، وأنه قاتله حتى لا يفقد مكانته في قريش فقد جاء محمد أمرا لا يبقى معه شرف فقاتله حمية وكرامة أن يذهب بشرفه .

وكان حكيم بن حرام قد أشرف على الستين . إنه ولد قبل قدوم أصحاب الفيل وهو يعقل حين أراد عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله حين

وقع ندره ، وشهد مع أبيه الفجار ، وقتل أبوه حزام بن خويلد في القجار الآخر . وكان حكيم يكنى أبا خالد وكان له من الولد عبد الله وحالد ويحيى وهشام ، وأمهم زينب بنته العوام بن خويلد . كان صاحب دار الندوة وكان شريفا في قومه ، وإن ذلك الشرف أسدل غشاوة على عين بصيرته فلم ير النور الذي بهر عمته خديجة بنت خويلد حاضرة الإسلام وأم المؤمنين ، والربير بن العوام ، وسادات قريش من المهاجرين .

إنه كان يعجب في نفسه من تلك المكانة التي بلغها الفتى زيد بن حارثة في الدين والحديد ، إنه اشتراه بضاعة من سوق عكاظ ووهبه لعنته خديجة ، فلما تزوجت محمد بن عبد الله وهبته له فتبناه ابن عبد الله ، وكان ذلك شيئا يعرق تصور حكيم بن حزام .

كان حكيم يحسب أن أمر الغلام اليقعة^(١) الذي اشتراه بأربعمائة درهم سيقف عند حد التبنى ، وما خطر له على قلب أن الرجل القصير الآدم أفلس الأنف قد يأتي يوم يتزوج فيه من عقيلة من عقيلات بيوت الشرف في مكة .

إنه لما سمع أن زيد بن حارثة تزوج زينب بنت جحش ، وأن المسلمين يقولون إن ذلك الزواج قد جاء الأمر به من فوق سبع سموات كاد يطيش له ، فقد كان يرى أن الفتى أهون من ذلك ، وأن محمد بن عبد الله قد وصم أشراف قريش بعار لن تمحوه الأيام ، هداة قريش كانوا يعتقدون أنهم خلقوا من طينة أشرف من طينة العبيد بله من كل البشر !
وكان حكيم شارد اللب فقد كانت مخاوف أبن سفيان تراوده ، فمس

(١) اليقعة : الغلام راهق العشرين من عمره .

يدري قد ينجأ ابن عبد الله أم القرى بالهجوم وهم عاثبون عبا ؟
ومر به رجل وهو يشرف على وضع بصاعته على ظهور الإبل فقال له :
— ما المال يا أبا خالد ؟
قال :

— قلة العيال .

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يستشعر في قرارة نفسه
قرب هبوب عاصفة على بيت الله . كان أحار رسول الله — ﷺ — من
الرضاعة ، أربعته حليمة أيما ، وكان يألف ابن عمه ، فلما بعث رسول
الله — ﷺ — عاداه وهجاه وهجا أصحابه ، فكث ما يقرب من
عشرين سنة ماصبا لرسول الله لعداء لا يتحلف عن موضع تسير فيه
قريش لقتال رسول الله — ﷺ .

كان أبو سفيان بن الحارث شاعر البيت الهاشمي بعد الزبير بن عبد
المطلب وأبي طالب ، وكان ككل الشعراء معجبا بشعره فلما أُرسل على ابن
عمه القرآن المجيد تحرك حسده . فما يتلوه عجب لا هو بالشعر ولا هو
بزممة الكهان ، إنه يعرف طريقه إلى قلوب الناس . فعادى ابن عمه حتى
لا يذهب مجد الشعر والشعراء ، ولج في العداوة لما سحر القرآن بالشعر
والشعراء . كان كل ما يشغله مجده ، وكان كأتى سفيان بن حرب يعرف
أن ما جاء به ابن عمه لا يبقى معه شرف .

وكان العباس بن عبد المطلب وحالد بن الوليد يتشاوران فهما شريكان
في التجارة ، ويقرضان بى ثقيف أموالا بالربا ، وكان العباس يكتُم إسلامه
وكان يتعامل بالربا في حرمه بعد الإسلام .

وكان العباس أكثر سادات قريش المحتممين عبد الحرم اطمئنانا . إنه

يرى انتشار الإسلام في القبائل فيشع ذلك صدره ، وقد استشعر بالمرح لما هاجر نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم إلى المدينة ليعلن إسلامه .

كان نوفل يكسب أبا الحارث بابه الحارث ، وكان أسن من أسلم من بني هاشم ، وكان أسن من عميه حمزة والعباس وأسن من إخوته ربيعة وأبى سفيان وعدد شمس بن الحارث .

أسر نوفل بن الحارث بيدر فقال له رسول الله ﷺ :
— افد نفسك يا نوفل .

قال :

— مالي شيء أفدى به يا رسول الله .

— افد نفسك برماحك التي بمجدة .

— أشهد أنك رسول الله .

وأسلم نوفل بن الحارث وكان شريك العباس وكانا متفاوضين في مال متحابين . فلم يحزن العباس صخرة نوفل بل شكر الله أن هداه للإسلام ، ولولا أنه في مكة يتحسس الأحبار لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لهاجر إلى المدينة ، فهناك الأختة زوجه أم الفضل وابنه عبد الله .

وكان ربيعة بن الحارث أسن من عمه العباس بسين . إنه لم يحضر بدر مع المشركين ، كان غائب بالشام . ثم قدم بعد ذلك على رسول الله ﷺ — مهاجرا أيام الخندق ، وقد تهلل العباس بالمرح لإسلامه وإن أحصى سروره بين جبيهه .

وكان عقيل بن أبى طالب فيمن أسر يوم بدر وكان لا مال له ، وقال رسول الله عليه السلام في ذلك اليوم :

(عروة الخندق)

— انظروا من ههنا من أهل بيتي من بى هاشم ؟
فجاء على بن أبى طالب عليه السلام فطفر إلى العباس ونوفل وعقيل ثم
رجع فناداه عقيل :

— يا بن أم على ، أما والله لقد رأيتنا .

فجاء على إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله رأيت العباس ونوفلا وعقيلًا .

فجاء رسول الله — ﷺ — حتى قام على رأس عقيل فقال :

— أبا يزيد قتل أبو جهل .

قال عقيل :

— إذا لا تنازع في تهامة إن كنت أئحنت القوم وإلا فاركب أكتافهم .

كان العباس يحب ابن أخيه سى الإسلام عليه السلام ، وقد آمن برسالته
وإن أخفى ذلك عن قومه وبقي بينهم يعد عليهم حركاتهم ومسكاتهم
ويبعث بها إلى رسول الله — صبرات الله وسلامه عليه .

وكان يعلم أن خراعة مسلمهم وكافرهم يحبون محمداً عليه السلام ،
فكان يجد فيهم خير عون على تبليغ رسالته إلى المدينة ، إنه وهب لابن أخيه
مولاه أبا رافع وقد هاجر أبو رافع إلى المدينة بعد بدر ، وشاهد مع الرسول
— ﷺ — أحداً والخذق والمشاهد كلها .

كان العباس مطمئن الفؤاد بينا كان شريكه خالد بن الوليد قلقاً يشترك
في حروب قريش ضد رسول الله — ﷺ — بروح القائد الحربي ، فهو
فارس قد تخلق بأخلاق الفرسان ، إذا حاص عمار معركة لم يكن له هم
إلا أن ينتصر ، ولكنه إذا ما فكر في الانقسام الذي طرأ على المخزوميين بعد
أن جاء الإسلام كانت الحيرة تتجاذبه لا يدرى أى الفريقين على صواب .

كان أبوه الوليد بن المعيرة ينقضى سمعه إلى رسول الله عليه السلام وكان يعجب بالقرآن ، وقد اتهمه سادات قريش أكثر من مرة بأنه صباٌ ودحل فيما جاء به محمد بن عبد الله ، ولكن أنه مات على دين آبائه فصار خالد لا يدري أكان أبوه على حق بما مال إلى لإسلام أم كان على حق لما مات على دين الآباء والأجداد ؟

وكثيرا ما كان حياله يسرح في المحزومين الذين هاجروا إلى المدينة يبصروا تحت راية الإسلام ، نخرج مسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد مهاجرين إلى محمد فطلبهم ناس من قريش ليردوهم فلم يقدروا عليهم ، فلما كانوا يظهر الحرة انقطعت أصبع الوليد فدميت فقال :

هبل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما تقصيت
قد هزه ما قال أحوه أثناء هجرته ، ولكن ما كان من عياش بن أبي ربيعة
كان أعمق أثرا في نفسه ، فأبو جهل قد ذهب إلى المدينة واحتل على أخيه
حتى عادته إلى مكة ، فقام إليه بنو محروم وبنو ربيعة يضربونه بالسياط
ويقولون لسادات قريش :
— هكذا افعلوا بالصائبين من رجالكم .

وحبس عياش في مكة وطل قله يهفو إلى المدينة وإلى رسول الله حتى وافته الفرصة ففر إلى المسلمين . إن خالد كلما فكر فيما كان من الوليد بن الوليد وسمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة يستشعر حيرة وتلقى في نفسه بدور الشك في أمته . أكان هؤلاء السادة يتحملون الاصطهاد وآلام العربة والحفوة بينهم وبين أهلهم لو كان دين الآباء خيرا مما يدعوهم إليه محمد بن عبد الله ؟

وأحسن خالداً أسمى لما طاف بذهبه موت الوليد . إنه ليرى الباعى وقد جاء إليه بقول : انقطع فؤاد الوليد فمات بالمدينة فبلعته أم سلمة ابنة أوى أمية زاد الركب فقالت :

يا عين فابكى للوليد بس الوليد بس المعيرة
مثل الوليد بس الوليد أوى الوليد كهى العشيرة
فقال رسول الله — ﷺ : لا تقولى هكذا يا أم سلمة ولكن قولى :
﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ (١) .

وراحت آيات من القرآن ترن فى أعوار نفس خالد بن الوليد وهو فى حيرته لا يدرى أيصم عنها أذنيه أم يلقي إليها سمعه .

وكان هار بن الأسود بن عبد المطلب حالسا فى نادى قومه يمد عينيه إلى العبد الذين يحملون السلع ليضعوها على ظهور الإبل . إنه عادى رسول الله — ﷺ — ونصب له وآذاه ، وإبه كلما حلا بنفسه تذكر يوم أن بعث محمد بن عبد الله إلى رينب ابنته من يقدم بها من مكة فعرض لها فى نفر من قريش فنحس بها وقرع ظهرها بالرمح وكانت حاملا فأسقطت ، فردت إلى بيوت بنى عبد مناف .

لقد جاءت إليه الأنباء أن محمداً ما بعث سرية قط إلا قال : إن ظفرتم بهيار فاقطعوا يديه ورحليه ثم اضربوا عنقه ، فكان جلده يقشع من الخوف كلما صافت بفكره ذكريات ذلك اليوم ، ودوى بين جسيه وعيد رسول الله — ﷺ . وكانت محاوله تربو كلما هجس فى نفسه هاجس أن محمد بن عبد الله ما توعد أحدا إلا نعد فيه وعيده ، إنه قال لأبى بن خلف

يوم أن هدده أبى بالقتل : أنا أقتلك إن شاء الله ، وقد قتله يوم أحد . أصبحت حياة هبار بن الأسود جحيما ، بات يخشى أن يتعد عن مكة حتى لا تظفر به سرايا محمد بن عبد الله فتقطع يديه ورجليه ثم تضرب عنقه . وأصبح مهددا بالقتل حتى وهو في عقر داره ، فأنصار محمد يزحفون على أعداء نبهم ويقتلونهم في فراشهم .

كان حويطيب بن عبد العزى العامري بأسر الوجه . إنه يجلس بين سادات قريش شارد اللب فهو يعلم أن ما يدعوا إليه محمد بن عبد الله حق ، ولقد هم بالإسلام غير مرة ولكن الحكم بن أبى العاص عم عثمان بن عفان يعوقه وينهاه ويقول :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك وتصير تابعا ؟

ما كان من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم أكره لما هو عليه منه ، ولقد شهد بدرا مع المشركين فرأى عبدا فقال في نفسه : « هذا رجل ممسوع » . فاهزموا إلى مكة وهو يفكر فيما رأى وقريش تسلم رجلا رجلا وهو بهم يأمر يسلم نولا خشيته من الحكم بن أبى العاص ومن أن يعذبه مثل العذاب الذي أنزله بعثمان بن عفان ابن أخيه .

وكانت بينه وبين أبى ذر العفارى حلة^(١) . إنه يثق في أبى ذر وفي رجاحة عقله ، وقد رآه يوم أن أسلم وأعلن إسلامه على الملأ في الحرم وما ناله من أذى قريش وهو ثابت على الحق ، فكان يتمنى لو أوتي شيئا من شجاعة صديقه ليثور على الحكم بن أبى العاص بله على قريش كلها ويشهد شهادة الحق لا يخشى في الله لومة لائم ، إنه يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل

(١) حلة : صبة حميدة .

إلا ما يريد .

وأقبل الناس من الدور لتوديع الأحبة الخارجين إلى الشام ، وخرجت هند بنت عتبة ومعاوية بن أبي سفيان ، وأميرة بنت أبي سفيان وزوجها حويطب بن عبد العزى ، ويزيد بن أبي سفيان وعنته بن أبي سفيان وعمرو ابن أبي سفيان ، وصحرة بنت أبي سفيان وزوجها سعد بن الأحنس بن شريق الثقفي — وهو الذي قال فيه السي — عليه السلام : أبعد الله فإنه كان يبغض قريشاً — وأصهار أبي سفيان وأنسابه لتوديع شيخ بني أبي سفيان ابن حرب فكادوا أن يمضوا الفضاء ، فنظر أبو سفيان إليهم وهو سعيد وقد رقت على شعثيه ابتسامة زهر .

وكثر العناق واستيقظت أرق المشاعر في القلوب وحررت الدموع إلى العيون ، وشغل الناس عشايرهم حتى كادوا أن يغيروا عن الوجود ، وأدب مؤدد القوم حى على الرحيل ففصلت العبر ، وانطلق ألف بعير وثلاثمائة رجل من التجار ومر الأحابيش الدين يحرسون القافلة إلى سوق بصرى يداعب الذهب الأصفر أخيلة الشيوخ ويحسم الشباب بينات بنى الأصفر . ووقف الرجال والنساء والولدان والإماء والعبيد يرصدون القافلة المسابة في الصحراء نحو الأفق البعيد تحمل الأحبة وأعز ما يملكون ، وقد وقف معهم من وكل إليهم أمر الناس : سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى وحروة بن مسعود وبديل بن ورقاء سيد خراة ، لا يدرون ما يغيب لهم القادر من معاجآت ﴿ فقل إنما العيب لله فانتظروا إلى معكم من المنتظرين ﴾ (١) .

كان بنو النضير يعيثون في خيبر على أمل أن يأتى اليوم الذى يثأرون فيه من نبي الإسلام والمسلمين على ما نال اليهود من هوان وتشريد ، وكان يهود خيبر متشوقين للتأثر من المسلمين لمقتل سيدهم أبى رافع بن سلام بن أبى الحقيق فأمروا عليهم أسير بن رزام وكان أكثرهم مقتا لرسول الإسلام عليه السلام ، فقال :

— إلى صانع بمحمد ما لم يصنعه صحابى .

فقالوا له :

— وما عسيت أن تصنع ؟

— أسير في غطفان فأجمعهم لحربه

— نعم ما رأيت .

فساروا لحقد ينهش قلبه في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ، فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فوجه إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر سرا يسأل عن خبر أسير بن رزام وعمرته .

كانت خيبر دولة قائمة بذاتها قد اجتمع فيها شمل اليهود فسراحت تراودهم أحلام السيطرة على الجزيرة العربية بهل العالم بأسره ، وكانت الخطوة الأولى لتحقيق آمالهم أن يقصوا على القوة الناشئة في المدينة ثم ينتشروا في الأرض ليفرضوا سلطانهم على العالمين .

وكانت نبوءة منحمى الرومان التى تقول إن الدولة الرومانية سيقضى

عليها شعب محتون قد نشرت بينهم ، فشدت أزر أحلامهم وجعلتهم يتحملون ما يزل عليهم من اضطهاد في صبر عجيب ، فقد أقتنعهم أحارهم أن ذلك الاضطهاد هو تطهير لفسوسهم ليكونوا مستحقين أن يضع « يهوه » مصائر العالم في أيديهم .

وكانت المسافة بين خيبر والمدينة تريد على مائة ميل بقليل ، فراح عبد الله بن رواحة ومن معه يطوون الأرض فبلعوا خيبر بعد خمسة أيام ، فإذا بحصونها تحرسها قد قام في وسطها حصن هائل يتحدى أسلحة الأعداء من رماح وقسي وسهام وسيوف .

وراح عبد الله بن رواحة يسأل في حرص عن خبر أسير ويدرس أطماعه فعلم أن أهدافه هي أن يصبح زعيم اليهود في خيبر وأن تستمر له الزعامة دون مازع ، ففي خيبر أحلاط من بنى قريظة وبنى قينقاع وبنى الضير وفيهم من يطمع في سيادة اليهود . ﴿ نحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ (١) .

وقدم عبد الله بن رواحة على رسول الله ﷺ — فأخبره بما رأى وما سمع وبما دار في رأسه من أفكار ، فندب رسول الله ﷺ — الناس للخروج إلى خيبر للاجتماع بأسير ، فانتدب له ثلاثون رجلا وأمر عليهم عبد الله بن رواحة .

وانساب الرجال في الصحراء يفكرون فيما أوصلهم به رسول الله ﷺ — وفيما رسم لهم من تدبير ، حتى إذا ما دخلوا على أسير في حصنه

قالوا :

— نحن آثمون حتى نعرض عليك ما جئنا له ؟

— نعم . ولى منكم مثل ذلك .

— نعم . إن رسول الله — ﷺ — بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك

على خير ويحسن إليك .

فطمع في ذلك ، فاستعمال محمد عليه السلام إياه على خير لإقرار منه بزعامته ودليل على أنه لا يريد أن يحوص حربا مع اليهود ، وإن هذه المهادنة ستترك أمام اليهود فرصة التأهب للانقضاض على المدينة في غفلة من أهلها ، فجمع مستشاريه وروح ياقش معهم ما عرضه المسلمون عليه فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا :

— ما كان محمد ليستعمل رجلا من بني إسرائيل .

— بلى قد مل الحرب .

وراح أسير يحاول أن يقنع اليهود أن محمدا عليه السلام قد مل الحرب ، فقد انقضت ست سنين مذ أن هاجر إلى المدينة وهو ممتشق الحسام^(١) يخوض غمار عروات ويبعث سرايا ليدافع عن محتمعه الجديد . إنه يعنى المصالحة وترك القتال .

كان أسير يحاول أن يقنع مستشاريه ولكنه في الحقيقة كان يحاول أن يقنع نفسه ، وراح طمعه بمدح بالحجج التي تؤيد هواه فرجحت كفة الخروج . فحرح وحرح معه ثلاثون رجلا من يهود مع كل رجل مهم رديف من

(١) امتشق الحسام : نزع من عمده لضرب به .

المسلمين .

كان عبد الله بن أنيس رديفا لأسير فراحا يتناجيان والرواحل تحمّل السير إلى المدينة والشمس والقمر يتبادلان احتلال رقعة السماء ، وأسير يفكر فيما عرض عليه المسلمون فيجد أنه قد خرج في أثر سراب وأنه يجرى وراء آمال كاذبة ، مدم على حروجه معهم فأهوى بيده إلى سيف أنيس ففطن أنيس له وقال :

— أعذر عدو الله ؟ أعذر عدو الله ؟ أعذر عدو الله ؟

واستل أنيس سيفه فضربه به فأطاح عامة محذة فسقط ، وكان بيده محدش من شوحط فصرت به أنيس على رأسه فشججه ، ورأى المسلمون العذر من أسير فمالوا على اليهود فقتلوهم إلا رجلا واحدا أعجزهم جريا . ودخل اليهودي خبير وهو يصيح فالتف حوله اليهود يسمعون منه ما حاق بأسير والدين معه ، فقال الدين أشاروا عليه بعدم الخروج :

— نصحنه فأبى إلا أن يخرج .

وراح الرجال والنساء في الدور يتحدثون بما حاق بأسير وصحبه ، وكانت صفمة بنت حُثَي بن أخطب عروسا بكنانة بن الربيع فغدا كنانة يتحدثها عما فعل محمد بأبيها وباليهود وكان حديثه يقطر سما ، ولكن صفمة لم تفعل بذلك الحديث فقد كانت في قرارة نفسها تعتقد أن العذر كان يبدأ من قومها وأن سيد العرب كان في كل مرة يرد السهم المصوب إليه إلى نحو الغادرين .

كان أبوها سيد بني الضير وقد خرج ليقب قریش على المسلمين ، ولم يكف بأن دفع الأحراب إلى حصار المدينة بل راح يزين لبى قريظة نقض

العهود فكان وبالا على اليهود . وكانت عند سلام بن مشكم القرطبي الشاعر ؛ إنه كان يهجو محمدا ويمحش في القول ، وكانت حليلة عافية فاصدة فكانت تعارض زوجها وتقول له إن ذلك امحاء لم يعود إلا بالشر على اليهود ففارقها ، فخلف عنهما كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق التنضري الشاعر .

وكان احوار يشتد بينها وبين كنانة فقد غاظه منها أنها لا تحقد على أعداء اليهود مثل بنات جيسها . إنها لا تنقاد لعواطف البعض والكرامية العمياء ولكنها تنظر إلى الدوافع والعواقب وتحاول أن تكون مصفة . إنها تعيره بذلك اليوم الذي دهوا فيه إلى قریش لتأليبهم على المسلمين فقد قال هم سادات قریش :

— يا معشر يهود إنكم أهل لكتاب الأول والعلم مما أصحنا مختلف فيه
نحن ومحمد ، أفديسا خير أم ديه ؟
فقالوا دون نخجل :

— بل ديبكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .
كانت مرهفة الحس فمدت أن علمت مما كان من سادات قومها في ذلك اليوم وهي نستشعر أن قومها ليسوا على الحق ، فلو كانوا على الحق ما كذبوا ولا نافقوا ولا زعموا أن الوثنية أفضل من عبادة الله وحده .
حرح روحها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق يسمى في غطمان ويحضرهم على قتال بني الإسلام على أن لهم نصف تمر خبير ، وأعلمهم أن قریشا قد بايعوهم على ذلك ، فأجابه عينة بن حصص المزاري ، وحسرت الأحزاب عشرة آلاف مقاتل لا يشك أحد منهم في النصر المبين .

وقد انتهت العروة بعودة العرب إلى بلادهم وقد هاروا من العيمة
بالإياب ، وقتل أبيها الذي كان شؤما على اليهود . إنه منذ تلك الأيام وهي
تري أن قومها على الباطل وأنهم يحادون الله ورسوله أولئك في الأدلين .
وبانت صفة فرأت في المنام أن قعرا وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها
على زوجها فقال لها :

— ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدا .

ولطم وجهها لطمعة خضر عيبها منها .

راح ثراة مكة يشدون الرحال إلى الطائف ليمضوا فيه الصيف لينعموا بطيب هوائه وطيب هواكه ، حتى يأتي أوائل الخرج فيخرجوا إلى سوق عكاظ وبينها وبين الطائف ليلة .

وعاد عروة بن مسعود الثقفي إلى داره بعد أن ودع حماته أبا سفيان بن حرب وشيوخ قريش الخارجين إلى الشام فخفف إليه شيوخ ثقيف وشبابها يلقيون إليه أسماهم ، فقد كان سيدهم وكانوا يطعمون في أن يكون رسول الله لما قام محمد بن عبد الله في مكة يقول إنه رسول الله ، ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (١) .

كانوا ينتظرون بعث رسول فلطالما حدثهم أمية بن أبي الصلت شاعرهم عن قرب ظهور نبي وأنه ليرجو أن يكون ذلك المبعوث ، فلما ظهر محمد بن عبد الله في مكة حسدوه وأبوا تصديقه ، فقد كبر عليهم أن يكون من غيرهم بعد أن تبيثوا للشرف المرتقب فيهم . وهل بعد الرسالة من شرف ؟

كانوا يعيشون على أمل أن يبعث أمية بن أبي الصلت فيهم ، فلما حادت الرسالة عنه لم يروا أحدا أحق بها من سيدهم عروة بن مسعود أو عقبة بن ربيعة ، أما محمد بن عبد الله فتنى بنى هاشم فلم يحظر لهم على بال ، فلما جاء إلى الصائف يعرض عليهم الإسلام قعدوا على جانب الطريق الذي يسير

فيه وراحوا يرضخون رجليه بالحجارة حتى مالت دماؤه تروى الرمال ،
فاذا بآء من الجهد لم تأخذهم به رأفة بل يذهب إليه رجال مهم ليقبوا
صلبه ليستأنفوا رصخ رجليه بالحجارة وهم يضحكون .

كان تعديهم لنبي الإسلام عليه السلام حديث نواديهم ، حتى إذا ما
هاجر عليه السلام إلى المدينة ودارت بينه وبين قريش حروب وارتفع ذكر
رسول الله عليه السلام حفتت أصوات الاستهزاء وأشرقت أنوار اليقين في
بعض القلوب ، وتزعزع الإيمان باللات إلهة الطوائف التي كان القرشيون
يحجون في الموسم إليها في صدور بعض الثقفين ، وكان المغيرة بن أبي شعبة
من خامرهم الشك في قدرة آلهتهم .

كان المغيرة دميما أعور وكان عروة بن مسعود عم والده وبكنه كان
يقول له يا عم ، وكان المغيرة من سَدَنَةِ^(١) اللات ولكن بذور الشك في
الأصنام قد ألقيت في عين ذاته فحظر له أن يتعد عن المعبد ليتحرر من تلك
الصلوات التي تؤلم روحه .

علم المغيرة أن رجالا من بنى مالك من ثقيف سينطلقون إلى مصر
ليقدموا إلى المقوقس هداياهم فراودته فكرة الخروج معهم ، فذهب إلى
عمه يستشير في ما افقته فآشار عليه بعدم ذلك ، فكيف يقل عروة أن
يفادر أحد سدنة اللات معبده ؟

وتأهب ثلاثة عشر رجلا من بنى مالك للخروج ، وراح المغيرة يستعد
للخروج معهم إلى مصر فقد استولت الفكرة على كل مشاعره : وحن
وقت الرحيل فانطلق الرجال ومعهم المغيرة وإن كان عروة بن مسعود

(١) السدنة : الخدم .

لخروجه كارها .

وراحت العير تسير على طريق الساحل والمعرة يرقب أمواج البحر
وشروق الشمس وغروبها وحروح القمر من الحاق إلى أن يكتمل بدرا
وتألق بحوم السماء وتتابع الليل والنهار ورعرة الرياح وهبوب السيم ،
ففظن إلى أن اللات والعري وماء والأصنام التي تكدست في جوف
الكعبة أهون من أن تخلق هذا الكون ، ودوى القرآن في وحدانه :
﴿ أفرايتم اللات والعري ﴾ وماء الشائنة الأخرى ﴿ أنكم الذكر وبه الأنثى
﴿ تلت إذا قسمة صيري ﴾ إن هي إلا أسماء سميتموها ثم وآؤكم ما أنزل
الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأفس ولقد جاءهم من
ربهم الهدى ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ فله الآخرة والأولى ﴿ وكم من ملك في
السموات لا تفي شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء
ويرضى ﴾ إن الدين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴿
وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يعنى من الحق شيئا ﴿
فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾ ذلك مبينهم من
العلم إن ربك هو أعلم بمن صلب عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴿ والله ما
في السموات وما في الأرض ليحجرى الدين أساءوا عما عملوا ويحجرى الدين
أحسنوا بالحسنى ﴾ (١) .

كانوا يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا القرآن وكانوا
يصفقون ويشدون الأشعار إذا ما راح أحد المسلمين يتنوى أى الذكر
الحكيم . « وقال الدين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والعوا فيه لعلكم

تعلبون » . ثم انتشر ما أنزل الله في بيوت العرب فكان المؤمنون يقرعون خاشعين تفيض أعينهم من الدمع بينا الكافرون يقرعون مستهزئين .
ويلع الركب الفرما بشق الأنفس ، فتقدم مهم جباة المكوس وكانوا من الرومان الأشداء ، فلما سألوهم عما يحملون قالوا :
— هدايا للمقوقس .

فحصوا عما معهم وأخذوا منهم حق هرقل ثم فتحوا لهم الطريق ، فاسابوا في الصحراء يحدون السير تداعبهم الآمال أن يصلوا إلى النيل .
وراحت الصحراء الغربية تطوى تحت أرجل الرواحل . إنها صحراء قاحلة لا زرع فيها قاسية عينة فظة ، هدما سفوا النيل هرعوا إليه يمشون ما معهم من شاك ويروون ظمأهم ويشدون أنفاسا من الهواء الرطب ، ثم يملون أعينهم إلى الحقول الخضراء فيستشعرون كأعما قد خففوا من جديد .

وسار الرجال الثمانية مع النيل فاصدين منف ، فكانوا يزلون في المدن التي قامت على شاطئ النهر العظيم . كان الوقت رمى القيضان وكان الفلاحون مهمكين في إقامة الجسور ، وعلى الرغم من ذلك وجد المغيرة من مجادته من المصريين فإذا بالقلوب تفيض بالكراهية والبغضاء لحكومة الإمبراطورية الرومانية وإن كان الشعاع يدينان بالمسيحية ، كان المصريون يعتقدون مذهب الساطرة بينا لرومان كانوا على مذهب اليعاقبة وكانوا يعتبرون مصر بقرة حلوبا تحمل حيراتها إلى القسطنطينية .

وسمع المعيرة سادل اللات عن المسيحية ووحدة طبيعة المسيح واللاهوت والناسوت ووحدة الإرادة فحمر عن أن يمهم تثليث . إنه يؤمن بوجود خالق لهذا الكون وأن ذلك الخالق أحل من أن يعد مباشرة .

فكانت اللات والعري ومناة والآهة الأخرى وسائط تقرب العباد إلى الله
رلمي ، وقد بدأ ذلك الاعتقاد يتزعزع منذ جاء محمد بن عبد الله بديانة
التوحيد الخالص من كل شائبة وكل وساطة .

وبلغوا مصف وكان لها سبعون بابا قد قامت فيها الأبنية والأعمدة
والتماثيل والملاعب ، واطلقوا إلى قصر المقوقس واستأدبوا في الدخول
عنه ، فلما أذن لهم ساروا في فناء على جانبيه تماثيل أنى الهول ثم دلفوا إلى
فناء تزينه أعمدة البردي ، ثم ساروا حتى ببغوا الغرف الداخلية والحنود
الرومان قد اصطفوا على جانبي الطريق ووجدوا أمامهم بابا مغلقا موشى
بالذهب ، إنه باب قاعة العرش الذهبية ، فلما لحهم الحاجب صاح :
الثقيفون بالباب ، فأذن لهم بالدخول فتقدموا وقد خففت أفئدتهم في
صدورهم رهبة . فلما رأوا المقوقس على عرشه وأربعة أمهار تجرى تحب
سريره خروا ساجدين ولم يرفعوا رؤوسهم حتى أذن لهم ، فتهضوا وساروا
على أطراف أصابعهم وهم يحملون هداياهم بين أيديهم والمقوقس يرقب
المغيرة بن أنى شعبة في إنكار ، فهو دميم أعور لا تتفتح له نموس الذين
ينظرون إلى الوجوه .

وقدموا الهدايا فاستخير كبير القوم عن المغيرة فقال :

— ليس منا بل من الأحلاف .

فكان المغيرة أهون القوم عليه فأكرمهم وقصر في حقه ، فلما انتهت
المقابلة عادوا إلى كبسة الصياقة والمغيرة في ضيق شديد . وزاد في حقه أن
أحدا من أصحابه لم يعرض عليه مواساته . وحن أوان الرحيل فدخلوا
على المقوقس فأعطى كل واحد منهم جائزة ولم يعط المغيرة ، فحقد عليهم
وكتم حقه في نفسه .

(غروة الحندق)

وخرج الركب من صف يحمل كل رجل منهم جائزته ويحمل المغيرة عيظله ، وراحت نفسه توسوس له أن رفاقه سيخرون أهلهم بإكرام الملك إياهم واردراته به فتقاصرت نفسه وبیت القدر بهم .

وبرلوا محلا فعصب رأسه ، فعرضوا عليه الخمر فقال :

— رأسى تصدع ولكن أسقيكم .

فسقاهم وأكثر لهم بغير مزح حتى همدوا ، فوثب عليهم فقتلهم جميعا وأخذ كل ما معهم ، ثم اطلق إلى المدينة وقدم على النبي — ﷺ — في مسجده فسلم عليه وقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

فقال — ﷺ — :

— الحمد لله الذي هداك للإسلام يا معيرة .

فقال له أبو بكر :

— من مصر قدمت ؟

— نعم .

— فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟

وظهر الدهش في وجه المعيرة فما كان يحسب أن نباأخرو جهم إلى مصر

قد بلغ المسلمين في المدينة ، فقال :

— كان بيني وبينهم ما يكون بين العرب ، وقتلتهم وجئت بأسلأهم

ليخمسها النبي — ﷺ — أو يرى فيها رأيه .

فقال النبي — ﷺ — :

— أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم شيئا ولا أحمسه فإنه غدر

والعذر لا حور فيه .

— يا رسول الله إما قتلتهم وأنا على دين قومي ثم أسلمت .
— الإسلام يجب ما قبله .

وخرجت القبائل في الموسم إلى عكاظ ، وبلغ ثقيفا ما فعله المعيرة
برجال بني مالك فاحتصم بنو مالك مع رهط المعيرة وشرعوا في القتال ،
فسعى عمه عروة بن مسعود في إطفاء نار الحرب وصالح بني مالك على
ثلاث عشرة دية دفعها عروة من ماله .

أذن بلال بالفجر فخرج رسول الله ﷺ — من داره إلى مسجده ،
 فأسرع إليه عند الله بن مسعود صاحب سراكه وأخذ بعليه وجعلهما في
 دراعيه ومشى أمامه بالعصا حتى بلغ الخراب ، وحف حذمه أنس بن
 مالك وعقبة بن عامر الجهني صاحب بغلته وأسلع بن شريك صاحب
 راحلته ليصلوا خلفه . وجاء من مواليه الدين أعتفهم ريد بن حارثة
 وشقران — وكان حبشيا — وثوبان وأنجشة — وكان أسود — ويسار —
 وكان بوييا وكان على لقاء رسول الله ﷺ — وسلمان الفارسي ،
 وتدفع إلى المسجد نقبؤه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير وبلال وعمار
 والمقداد وعثمان بن مطعون ، ونجباؤه وكانوا كلهم من الأنصار سعد بن
 خيشمة من بني عمرو بن عوف وسعد بن الربيع من بني الحجار وعبد الله
 ابن رواحة شاعر الأنصار وأبو الهيثم بن السهمان والبراء بن معرور ورافع بن
 مالك وأبو جابر عبد الله بن عمرو بن حزام وعُباد بن الصامت والمذر بن
 عمرو .

ودخل المسجد طلحة وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو
 عبيدة بن الجراح وأبو لبابة وبشير بن عبد المنذر وعبد الله بن أم مكتوم
 الأعمى وأبو ذر العماري وعبد الله بن أبي بن سلول وسباع بن عُرْفطة
 ومحمد بن مسلم والسائب بن عثمان بن مظعون وأبو دُجانة ، ومن كتابه
 أبي بن كعب وريد بن ثابت وحالد بن العاص وإيان بن سعيد وحذيفة بن
 اليمان وأبو أيوب الأنصاري .

كانوا رجالا لا ذكر لهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، فلما أشرقت
 نلوسهم بأنوار اليقين صاروا ملء الأبصار والأسماع خير أمة أخرجت
 للناس ، فصطفوا خلفه خاشعين قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين .
 وقضيت الصلاة فجلسوا إليه يصغفون ينهلون من منابع علمه ويتلقون
 منه الحكمة . وبينما هم مستأنسون بحديثه عليه السلام إذ قدم ثمانية نفر من
 غُرينة وعُكل مجهودين قد كادوا يهلكون لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم
 ونظروا إليه في وهن ، ثم نطقوا بالشهادتين وقالوا :
 — يا رسول الله آوينا وأطعمنا .

فأمر عليه السلام بلالا أن يطعمهم وأن يبرهم في أهل الصفة ، فكان
 إذا تناول طعاما دعاهم إليه وإذا خرج في الليل جلس إليهم يحدثهم ويفقههم
 في الدين ، ولكن قلوبهم التي كانت عمياء لا ترى أنوار اليقين .
 وذات يوم قدم أبو ذر إلى المسجد ورسول الله عليه — صلوات الله
 وسلامه — جالس وحده ، فجلس إليه فقال الرسول :
 — يا أبا ذر إن للمسجد تحية وإن تحيته ركعتان ، فقم فاركعهما .
 فقام أبو ذر وصلى ركعتي تحية المسجد ، ثم أقبل على رسول الله عليه
 السلام فقال :

— يا رسول الله إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة ؟

— خير موضوع استكثر أو استقل .

— يا رسول الله فأى الأعمال أفصل ؟

— إيمان بالله عز وجل وجهاد في سبيله .

— فأى المؤمنين أكملهم إيمانا ؟

— أحسنهم خلقا .

- يا رسول الله فأى المؤمنين أسلم ؟
- من سلم الناس من لسانه ويده .
- يا رسول الله فأى الهجرة أفضل ؟
- من هجر السيئات .
- يا رسول الله فأى الصلاة أفضل ؟
- طول القنوت .
- يا رسول الله فما الصيام ؟
- فرض مجزى وعند الله أضعاف كثيرة .
- يا رسول الله فأى الجهاد أفضل ؟
- من عُقر جواده وأهريق دمه .
- يا رسول الله فأى الرقاب أفضل ؟
- أغلاها ثمنًا وأنفسها عند ربها .
- يا رسول الله فأى الصدقة أفضل ؟
- جهد من مقل يُسرُّ إلى فقير .
- فأى آية مما أنزل الله عز وجل عليك أعظم ؟
- آية الكرسي يا أبا ذر ، ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقمة ملقاة بأرض فلاة .
- كم كتابًا أنزل الله ؟
- مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل على شيث خمسون صحيفة ، وأنزل على حنوخ ثلاثون صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف ، وأنزل التوراة والإنجيل والربور والفرقان .

— يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟

— كانت أمثالا كلها : « أيها الملك المسلط المتلى المغرور ، فإني لم أبثك لتجتمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردّها ولو كانت من كافر » . وكان فيها أمثال : « على العاقل ما لم يكن مغربا على عقبيه أن تكرن له ساعات : ساعة ينجي فيها ربه عن رجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل ، وساعة يحلو فيها حاجته من الطعام والمشرب . وعلى العاقل ألا يكون طاعنا إلا لثلاث : تروء لمعاد ، أو فرقة لمعاش ، أو لذة في غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا لزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا لنفسه . ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه » .

— يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟

— كانت عبرا كلها : « عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يهرح . عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يصحك . عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب . عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها . عجبت لمن أيقن بالحساب عدا ثم لا يعمل » .

— يا رسول الله أوصني .

— أوصيك بتقوى الله فهي رأس الأمر كله .

— يا رسول الله زدني .

— عليك بتلاوة القرآن فهو نور لك في الأرض وذكر لك في السماء .

— يا رسول الله زدني .

— إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بمرور الوجه .

— يا رسول الله زدني .

— عليك بالصمت إلا من خير ، فإنه مطردة للشيطان عك وعون لك على أمر دينك .

— يا رسول الله زدنى .

— أحب المساكين وجالسهم .

— يا رسول الله زدنى .

— انظر إلى من تحتك ولا تنظر إلى من فوقك ، فإنه أجدر ألا تزدري نعمة الله عندك .

— يا رسول الله زدنى .

— صل قرباتك وإن قطعوك .

— يا رسول الله زدنى .

— لا تخش في الله لومة لائم .

— يا رسول الله زدنى .

— قل الحق ولو كان مرا .

— يا رسول الله زدنى .

— يردك عن الناس ما تعرف من نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى به عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك ، أو تجد عليهم فيما تأتى .

ثم ضرب بيده على صدره أى ذر وقال :

— يا أبا ذر لا عقل كالنديير ، ولا ورع كالكف ، ولا حس كحسن الخلق .

وجاء النمر من غربة وعُكل إلى رسول الله ﷺ وقالوا :

— إن المدينة وية وخمة ومح أهل صرع ولم نكن أهل ريف

كانت لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لقاح وكانت خمسة
كالت ترعى بذى الحذر ناحية قضاء قريبا من غير على ستة أميال من المدينة ،
فقال لهم عليه السلام :

— لو أخرجتم إلى زود لنا فشرىتم من ألبها .

فخرجوا إلى لقاح رسول الله ليشرىوا من ألبها وكان فيها يسار-مولى
رسول الله — ﷺ — يرعاها ، فظلموا بها حتى صحوا وسموا فعدوا على
اللحاق فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله — ﷺ — ، ومعه نفر
فقاتلهم فقتلوا يده ورجله وعرزوا الشوك في لسانه وعييه حتى مات ،
ثم انطلقوا بالغنيمت وأصبحت هبة المسلمين في الميزان ، فبلغ رسول الله —
ﷺ — الخبر فبعث في أثرهم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر
المهري ، فأدركوهم فأحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم وأردفوهم على
الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، وكان رسول الله — ﷺ — بالعباءة ،
فخرجوا بهم نحوه فلقوه بالرعاية مجتمع السيول ، فأمر بهم ففقطعت
أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وصلبوا هالك . وأنزل الله تعالى على
رسوله : ﴿ إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُقَوْا مِنْ
الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

كانت السنة السادسة من المحرة والوقت موسم لحج فخرجت قبائل العرب إلى الأسواق قبل أن يتدفق الناس على البيت العتيق . وكان رسول الله ﷺ — يهوى فؤاده إلى الحرم ، فلما دخل داره وأسلم جبهه للرفاد رأى في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين مخلقين رعوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه واعتمر .

واستفر رسول الله ﷺ — أصحابه للعمرة فأسرعوا وتجهشوا ، ولبس رسول الله ﷺ — ثوبيه وركب راحله القصواء وخرج ، وذلك يوم الاثنين هلال دى القعدة واستحلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

ولم يخرج رسول الله ﷺ — معه سلاح إلا سلاح المسافر السيف في القرب ، وساق بدنا^(١) وساق أصحابه بدنا ، فصلى الظهر بدى الخليفة ثم دعا بالبدن التي ساق فحللت ثم أشعرها^(٢) في الشق الأيمن وقلدها^(٣) وأشعر أصحابه أيضا ليعلم أنها هدى وهى موجّهات إلى القبلة ، وهى سبعون بدنة فيها جمل أى جهل الذى عمه رسول الله ﷺ — يوم بدر .

(١) البدن : الوق أو البقر المسمة (٢) أشعرها : ألبسها الشعار .

(٣) قلدها : جعل في أعناقها حبلا .

وأحرم رسول الله ﷺ — ولبي حتى إذا ما كان بغدير الأشطاط
قريبا من عسفان ، أتاه الرجل الخزاعي الذي كان قد بعثه ليأتيه بأخبار
قريش فقال :

— إلى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد جمعا لك الأحابيش
وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .
فقال النبي ﷺ — لأصحابه :

— أشيروا على ١ أترون أن ميل على ذراري هؤلاء الذين عاوبوهم
فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين وإن يجبنوا تكن عنقا قطعها الله ، أو
ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟
فقام أبو بكر فقال :

— يا رسول الله إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن من حال يسنا وبين البيت
قاتلناه .

فقال — ﷺ :

— فروحوا إذا .

فراحوا حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال :

— يا رسول الله هذه قريش قد سمعت مسيرك فخرجوا ومعهم العوذ
المطافيل (١) قد لبسوا جلود الثور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا
تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع
العميم .

(١) العوذ المطافيل : النوق التي وضعت أولادها حديثا يريد أنهم خرجوا ومعهم
النساء والصبيان .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السائفة (١) .

ودنا خالد بن الوليد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله — ﷺ ، فأمر رسول الله — ﷺ — عباد بن بشر فتقدم في خيله فأقام بإزائه ووصف أصحابه . وحانت صلاة الظهر فصلى رسول الله — ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما أمسى — ﷺ — قال :

— من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟
فقال رجل من أسلم :
— أنا يا رسول الله .

فخرج بهم على طريق وعر حزن بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفضى إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله — ﷺ :

— قولوا نستعفر الله ونتوب إليه .
ففعلوا ، فقال :
— والله إنها للخطئة (٢) التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقبلوها .

(١) السائفة : صفحة العنق وكنتي عن انفرادها بالموت .

(٢) الخطئة : يشير إلى قوله تعالى لبني إسرائيل : « وقولوا خطئة » ومعناه : اللهم حط عما دنونا .

ثم قال رسول الله ﷺ — للناس :
— اسلكوا ذات اليمين .

فسار المسلمون حتى دنوا من الحديبية وهي شرق الحرم على سبعة أميال من مكة ، فلما رأى خيل قريش غبار الجيش وأن رسول الله ﷺ قد حالقهم عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش يندرونهم .
وسار رسول الله ﷺ — حتى إذا سلك ثنية المزار بركت به ناقته ،
فقل للناس :

— حل حل (١) .

فقال — ﷺ :

— ما حل .

قالوا :

— خلأت (٢) القصواء

فقال — ﷺ :

— ما خلأت وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس (٣) الفيل .

ثم قال :

— والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش إلى خطة يعظمون بها حرمان الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

(١) حل حل : كلمة يقال لئناقة إذا تركت السم .

(٢) خلأت : حرنت .

(٣) حابس الفيل : أى حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل من دخولها .

تذيل

كان رسول الله ﷺ — وحده ليس معه إلا ربه الذى أوحى إليه أن
أنذر عشيرتك الأقربين ، فقام أعزل من كل سلاح يدعو الناس إلى عبادة
الله وحده لا شريك له إلا سلاح الحكمة والموعظة الحسنة ، ففتح قلوب
المؤمنين بالقرآن الحكيم ، وقد صبر هو وأصحابه على أذى الكافرين ، ولم
يستخدم القوة فى إقناع معارصيه وإن اشتهر بالقوة البدنية ، بل كان يحاول
أن يكسب قلوبهم بالموعظة : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة
الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ ^(١) و ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا
الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ^(٢) .

وهر المسلمون الأوائل من وجه الاضطهاد إلى الحبشة ، ثم هاجر —
ﷺ — وأصحابه إلى المدينة بعد أن أسلم الأوس والخزرج لما ألقوا أسماءهم
إلى التبريل فأضاءت أفئدتهم بأنوار اليقين ، وأحد الإسلام ينتشر فى القبائل
لأنه دبر العصرة يخاطب العقل فيستجيب ، حتى إذا ما شئ عليهم أعداؤهم
اهجوم ورفعوا السيوف فى وجوههم شرع الله لهم القتال دفاعا عن
أنفسهم ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ أدل للدين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن
الله على بصيرهم لتقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا
ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصنوت
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا وليصرون الله من يصبره إن الله لقوى

عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
المعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿١﴾ .

لم يشهر المسلمون السيف لإكراه الناس على الدخول في الدين ،
فالقرآن المحيد يعلمهم أن لا إكراه في الدين . ﴿٢﴾ لا إكراه في الدين قد بين
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة
الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم * الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من
الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور
إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٣﴾ .

وقد فرص القتال للقضاء على الفتن التي تهدد المسلمين الآمنين :
﴿٤﴾ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت
سنة الأولين * وقالوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا
فإن الله عما تعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم
النصير ﴿٥﴾ .

لم يكر الإسلام دينا متعطشا لدماء ولكنه دين يدعو إلى السلام .
﴿٦﴾ وإن جحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع
العليم ﴿٧﴾ . ولكنه لا يرضى بالسلام المدل الذي تصيب فيه حقوق
المسلمين وتنتشر بسبب الركون إليه الفتن التي تحت أوار البقي من
سويداء القلوب ، فكذب على المسلمين القتال للقضاء على الفتن وإن كانوا
لنقتال كارهين : ﴿٨﴾ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا

(٢) البقرة ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٤) الأنفال ٦١ .

(١) الحج ٣٩ — ٤١

(٣) الأنفال ٣٨ — ٤٠

شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿١﴾ .

إنه أمر شديد أن يمتشق المسلمون السلاح في وجه الظالمين ، إنه فراق الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والمشيرة والأموال في سبيل إقرار الحق الذي ما نزلت الرسالات السماوية إلا للتمكين له في الأرض ، وإنه أمر لا تستحيب له في أسر العوس التي تعلقت بالحياة الدنيا ، فلا بد من فرغيب وترهيب للجهاد في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا ، فزحر القرآن العظيم بآيات الخضر على الجهاد وجزاء المجاهدين والحزى الذي أعد للمنافقين والساكسين : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناءكم وإخوانكم وأرواحكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

قال تعالى . ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان حيرا لهم * وهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها * إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان

سول لهم وأملى لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأذبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم * أم حسب الدين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو شاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * ولستونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين وبلوا أحباركم * إن الدين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يصروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم ﴿١﴾ .

فلم يكن الجهاد لإرغام الناس على الدخول في دين الله بل كان قتال المدففين الذين في قلوبهم مرض حتى لا يفسدوا النفوس التي هداها الله للنور ، وقاتل الدين كفروا وصدوا عن سبيل الله من بعد ما تبين لهم الهدى : ﴿٢﴾ من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعز على الكافرين يحاهمون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿٣﴾ .

كان هم النبي — ﷺ — الأول هو الدفاع عن أنفس المؤمنين ، وتأمين حرية العبادة للمسلمين ، وحرية القول وحرية العمل ، وحماية الحقوق للمجتمع الجديد الذي تكون في المدينة في ظل التنزيل .

إن نبي الإسلام عليه السلام لم يشهر سبعا ولم يسد درمحا في سبيل بشر الإسلام بقوة السلاح ، بل خاص حروبا في سبيل الدفاع عن النفس وفي سبيل حماية المودة الإسلامية الناشئة وهي حروب تقرها كل الشرائع

(٢) المائدة ٥٤ .

(١) محمد ٢٠ — ٢٨

(عروة الخندق)

السماءية بله شريعة الفقه الدولي الحديث . وما كان له أن يكره أحدا للدخول في دينه وقد قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ ^(١) ، ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالْحُكْمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٢) ، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَيَّارٍ مَذْكَرٍ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ ^(٣) .

وقد حاول رجل من المسلمين لما رأى ولديه قدما مع قافلة من الشام وقد تنصرا أن يرغمهما على اعتناق الإسلام بحجة أنه لا يستطيع أن يرى بعضه يدخل النار ، فنهاه نبي الإسلام عليه السلام عن ذلك ، فالتفت إلى الله تعالى يقول : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ^(٤) . فكيف يعصى الرسول صلوات الله وسلامه عليه أوامر ربه ١٩ وهل يمتشق الحسام لإرغام الناس على الإسلام والله تعالى يقول : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ ﴾ ^(٥) .

فر المسلمون بدينهم من مكة إلى المدينة ، وكان عليه السلام يبعث الممرأيا لتحسس أخبار قريش لكيلا يأخذ أعداؤه على غرة فقد كانت حالة الحرب قائمة بين الطرفين . وقد خرج عليه السلام ليعترض قافلة قريش القادمة من الشام قصاصا لما استولت عليه قريش من دور وأموال ، وقد أفلت أبو سفيان بالقافلة وعلى الرغم من ذلك خرجت قريش لحرب المسلمين واستعصال شأفتهم ، فكان على المسلمين أن يسلموا رقابهم

(١) القصص ٥٦ (٢) العنكبوت ٤٦ (٣) ق ٤٥ .

(٤) البقرة ٢٥٦ (٥) الكهف ٢٩ .

لأعدائهم أو يدافعوا عن أنفسهم وأن يصدوا الباغين المعتدين ، فدارت عند ماء بدر أول معركة يحوضها المسلمون دفاعا عن النفس وحماية لدولتهم الناشئة أن تدول . وما كان المسلمون اليادئين بالقتال وما كانوا معتدين ، فالور الذي أضاء قلوبهم قد أرشدهم إلى معية الابتداء بالعدوان : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يقاتلونكم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٢) .

فالجهاد في الإسلام هو الحرب دفاعا عن النفس أو دفاعا عن جماعة المسلمين حتى لا تكون فتنة ، وقد عظم القرآن الكريم الجهاد والمجاهدين فقال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تَأْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْعُزْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى يُحِبُّونَهَا نَصْرَ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) . والجهاد هو قتال الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم لا إكراه الناس على الدخول في الإسلام ، لهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان . وقال — ﷺ : رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، ودروة سامه الجهاد .
وقال رجل :

— يا رسول الله أخبرني بشيء يعدل الجهاد في سبيل الله .
— لا تستطيع .

— أخبرني .

— هل تستطيع إذا خرج المحاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تنفتر .

— لا .

— فذلك الذي يعدل الجهاد .

وقد ذكر الأستاذ الأكرم الشيخ محمود شلتوت في رسالته في الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب : « إن الإسلام الذي يجيء عن طريق الإكراه لا قيمة له ولا كرامة لصاحبه ولا اعتداد به عند الله ، فهو يقول نفعون حين أدركه العرق وقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ ^(١) . حيث رد عليه تعالى بقوله : ﴿ آلا وآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ ^(٢) وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ ولما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ^(٣) . وكذلك يقرر القرآن أن الله لا يقبل التوبة التي تبعث عن الإكراه أو بعد معاناة العذاب ، فيقول الله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ ^(٤) .

وحلص الأستاذ شلتوت إلى النتائج الآتية :

١ — ليس لى طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والعموص والمشقة العقلية ما تحتاج معه إلى إكراه جلي وهو ما كان بالقوة المادية كالحديد

(٢) الصف ١٠ — ١٣ .

(١) يونس ٩١ .

(٤) النساء ١٨ .

(٣) غافر ٨٤ — ٨٥ .

- والبار ، أو إكراه حفى بالخوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق .
- ٢ — أن الدعوة الإسلامية أخذت من كتاب الله لا تخالف سنة الله حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاعتقاد .
- ٣ — أن الشريعة الإسلامية أخذت من كتاب الله لا تبيح اتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إليها .
- ٤ — أن صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسئولاً أمام ربه إلا عن مهمة الرسالة التى بينها القرآن وهى التبليغ والإنذار ، وليس مطالبا بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والعنف عليهم .
- ٥ — أن كتاب الله مصدر الدعوة الإسلامية لا يحترم إيمان المكروه ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء ، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة ؟

* * *

لا مراء أن الناس قد دخلوا فى دين الله طائعين وأن الجهاد هو جهاد الظلم والعدوان والفتن ، فالفتنة أشد من القتل . ﴿ وأقتلوهم حيث تقمتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ (١) .

لقد زعم بعض المتعصبين الذين أعمى الله قلوبهم التي في صدورهم أن الإسلام قد انتشر بمجد اسيف ، وأعرضوا عن قول الله لنبيه وللمسلمين : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ^(١) . وقد قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية : « إن الله تعالى لما بين دلائل التوحيد بيانا شافيا قاطعا للمعذرة قال بعد ذلك إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل عذر للكافر في الإقامة على كفره ، إلا أن يقصر على الإيمان ويجبر عليه وهو مالا يجوز في دار الدنيا التي هي دار عمل وابتلاء ، لأن في القهر والإكراه على الدين بطلان معي الابتلاء والامتحان ومناطهما العقل » . فواقع التاريخ يؤكد أن الإسلام قام على الإقناع ، وأن النور الذي أنزل على نبي الإسلام عليه السلام قد بين للناس طريق الخير وطريق الشر : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ ^(٢) . وترك للإنسان أن يختار طائعا أحد التجددين : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ^(٣) . فإن اختار طريق الخير وجاهد العدوان والفى كتب الله على نفسه نصره : ﴿ ولينصرن الله من يصره إن الله لقوى عزيز * الدين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ ^(٤) .

وقد فطن بعض المفكرين الأوربيين إلى مسخف دعوى انتشار الإسلام بالقوة ، فتوماس كارليل في كتابه « الأبطال وعبادة البطولة » تحدث عن محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال إن اتهامه بحمل الناس على السخول في الدين الذي جاء به بالقوة والقهر سحف لا يقبله

(٢) الإنسان ٣ .

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٤) الحج ٤٠ — ٤١ .

(٣) البلد ١٠ .

عقل ، فكيف يمكن أن يتصور أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستحيوا لدعوته ؟

* * *

ويقول ر . ف . بودلى في كتابه : الرسالة . حياة محمد ، ، حديثه عن وقعة بدر : كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التي دفعت محمدا إلى الالتجاء لقوة ، إذ استمر عداء أبى جهل لمحمد في درجة الغيابة ، فقد كان يعير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويفاتل أية جماعة معزلة يكس لها ، وقد أغار على ضواحي المدينة وأتلف الزرع والحدائق فأظهر لمحمد أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قته ، فلم يكن هنالك إلا حل واحد من وجهة نظر الجاهليين وهو القتال .

وما قر رأى محمد على ذلك حتى أقر مبدأ سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين ، فالجهاد مع أنه ليس فرضا دينيا سيقوم بما لا يقوم به شيء حر في سبيل حمل الإسلام إلى العالمين .

و لم يقدر محمد مدى الأثر البعيد الذي ستحدثه موافقته على اتباع ذلك السبيل في معامته للكافرين ، فإنه لمس الحلى أنه لم ير تطبيق قانون السيف كسياسة في المستقبل ، لأن الدافع الأول لما هو مقبل عليه كان قبل كل شيء اليأس من قوم لم يطلب منهم إلا الإصغاء إليه ولم يلق منهم إلا المهانة والاضطهاد . ويضاف إلى ذلك حاجته إلى كسء أنصاره وطعامهم وتسليحهم وإيجاد حلفاء جدد ، ولما كان محمد أعرايا قد سافر كثير مع رجال الصحراء فقد كان على ثقة من أن رجال القبائل قد يفهمون عقيدتهم أكثر لو أنهم علموا أنها تؤيد الحرب لحلب المعانم .

انتمد محمد لهذا الجانب من تعاليمه ، عنمه المؤرخون الذين تشبعت

عقولهم بأنه « أفاك » كأنما كان أول من قصى بشريعة الحروب الدينية .
والظاهر أن هؤلاء الرجال قد نسوا أن الدين كان السبب الرئيسي أو
السبب الثاني لشوب أكثر الحروب منذ العصور المتأخرة في القدم .

لو أن محمدا قد قرأ « العهد القديم » لوجد أن موسى قد أشعل حرا
مقدسة منذ ألفي سنة قل أن تبدأ حروبه مع قريش ، ولو أنه استمر في
القراءة لوجد أن قصة بني إسرائيل وملوكهم لم يفعلوا إلا القليل بجانب
قتالهم في سبيل عقيدتهم ، ولسمع عن مجارر تبدو قوائم ضحاياها بحوارها
كضحايا الحوادث التي تقع في ميدان كرة القدم ، ولعلم أن العبرانيين
القدماء قد وضعوا قوانين للحروب الدينية لا تشابهها قوانين قديمة ولا
حديثة .

لم يكن محمد متعطشا للدماء لحد التعطش للدماء ، فقد كان للأسير
المشرك أن يختار بين أن يدفع حزية أو يدخل في الإسلام وإن القرآن
يقرر : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ هَا قُتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَخَدُّوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) . ويقرر ﴿ لَا إِكْرَهَ
فِي الدِّينِ ﴾ (٢) .

فإذا ما اختار الأسير الإسلام أصبح له جميع الحقوق الروحية والدينية
التي للمسلمين الآخرين ، وإن هذا الإجراء ولا شك في مصلحة محمد ،
ولم يعرف عن محمد أنه انتقم لنفسه من أعدائه المهزومين .
ولو أنه جعل المثلة من تعاليمه لكان محافظا على عادات زمه وعلى ما كان

عليه المسيحيون في رمة وبعد رمة بكثير ، فإنه لما غزا الصليبيون الأرض المقدسة سنة ١٠٩٩ حلقوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار ، ولكنه لما رد صلاح الدين الصليبيين على أعقابهم لم ينجأ إلى وسائل الانتقام ولم يجرب المسمون الممالك التي فتحوها كما فعل المقاتلون الدييون السابقون لهم من الممالك الأخرى ، فأبنا وضعوا أرجلهم نشأ شيء جديد أسمى وأفضل مما كان قبلا ، لقد كانوا كالغيث الذي يحصب المكان الذي يزل فيه . وإن عصر الإحياء في أوروبا ليرجع إلى أبعاد صحابة محمد الدين حملوا مشعل الثقافة حين كانت أوروبا عارقة في ظلمات العصور الوسطى . لقد كان المحدث همدسي لدمشق و هارس وأشيلية و غردطة و قرطبة نتيجة غير مباشرة أثرا لما بدأه محمد عام ٦١٣ ميلادية .

وحد محمد ولا شك أن لحرب ضرورة وعملية للعائم بعد ذلك ، ولكنه لم يكن أحد هؤلاء العرب المغيرين الذين كان حب النار طبيعة ثابتة فيهم ، فلو أن قريشا أعطته نصف فرصة لشرد فيه في أمان لما طرأت فكرة الحرب على حاطره .

كان بودلى قائدا عسكريا خاض عمار الحرب العالمية الأولى فراح يدافع عن حروب الإسلام عقلية القائد ، يقيس الحروب التي حاصها المسمون بالحروب التي شها الأبياء من قبل والشعوب ولم يحاول أن يحهد نفسه بالتمعق في آيات القتل ليحرح بحقيقة لا جدال فيها ألا وهي أن محمدا — ^{صلوات الله عليه} ، وصعبه ما سلوا سيف ولا شرعوا رمحا إلا في سبيل الدفاع عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين . والفقه الدولي الحديث يعتبر هدين البوعين من الحروب مشروعين دون غيرهما من حروب الفتح

والغزو والبهى والعدوان .

حقيقة أن بودى قد مس قيام المسلمين الأوائل للدفاع عن أنفسهم مسا رقيقا ، ولكنه وهو القائد الذى عاش الحرب العالمية الأولى قد خلط بين الدنيا والدين فجعل الغنائم هدفا من أهداف الحروب الإسلامية التى يسيى لها لعاب المسلمين ، ونسى أن الناس قد كرهوا القتال لما كتب عليهم لدفع عدوان الظالمين ، وأن الله تعالى قد حاطبهم بقوله : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ (١) . كان المسلمون يقاتلون أقواما بدعهم بالقتال فكان لا بد لهم أن يدفعوا الاعتداء بمثله وإلا هسدت الحياة فى الأرض وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله .

ويقول « جيمس متشتر » فى مقاله « احترت الدفاع عن الإسلام » : لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة « محمد » سنة ٦٣٢ ميلادية كان الإسلام يحتل جامبا كبيرامى شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك أن صم إليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والصحوم الجوية لروسيا وامتد إلى شمال إفريقيا حتى بلع مداخل أسبانيا . وفى الرمس الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهرا . واعتقد العرب أن توسع الإسلام ما كان يمس أن يتم لو لم يعتمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة . والدليل قوى على أن الإسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل

حصومه : وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل لأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طوعية واختيار ، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين .

ولقد عزى انتشار الإسلام فى صدر الدولة المحمدية إلى قوة السيف ، وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأفرقاء ، بل كان اسمعون هم ضحايا السيف وطرائد العشم والحجرات . وإن عدد المسلمين اليوم من أبناء اهد والصين وأندونيسية والقارة الإفريقية ليلعب تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أحبار العروات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة فصلا عن مئات الملايين من دين إلى دين .

ويقول لأستاذ لمستشار على على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » . يذهب بعض كتاب القانون الدولى الأوربى وكثير من مؤرخيهم والمستشرقين منهم إلى أن محمدا هو الذى بدأ العدوان على قوافل قريش ، وتلففوا بعض العارات من كتب السيرة وبوا عليها أن المسلمين صادروا الكثير من قوافلها . وعلى فرض صحة هذا القول — وهو ما لا أسلم به — أفلا يكون المسلمون على حق فى ذلك ما دما قد أثبتنا أنه عند هجرتهم كانت الحرب قائمة بينهم وبين قريش ؟ أو ليس القانون الدولى يبيح لمن يكون فى حالة حرب أن يعم من حصمه ما يستطيع خصوصا وقد علما أن ذلك الخصم أخرجهم من ديارهم وأموالهم وذريتهم وسائهم بأن أكرههم على ذلك بالأذى والاعتداء والحصار وإعلان حرب المقاطعة ، ثم قتلوا بعض المسلمين وانفقوا على قتل

بيهم وهو ما لا خلاف عليه ، ولم نجد أحدا من العرب والفرنجية إلا قال به ؟ ومع كون ذلك من حقوق المسلمين المشروعة في كل شريعة وفي قواعد القانون الدولي الحديثة ، إلا أن من يتتبع الوقائع بإمعان في كتب السيرة بعد أن يقيها من الخواشي والتعليقات يجد الأمر على ما قلنا من أن المسلمين لم يبدعوا العدوان بل كانوا يردون الاعتداء بمثله .

غزوة بدر لم يبدأ المسلمون بالاعتداء فيها بل كانوا يردون العدوان :
قلنا إن المسلمين كانوا يبعثون بالسرايا والبعثات لاستطلاع أخبار عدوهم الذي هو على حرب معهم . وكان اعتراض قافلة قريش الكبرى عام بدر لمثل هذا الغرض ، ولسلم أيضا بما يذهب إليه الرأي الآخر من أن المسلمين حين خرجوا إلى القافلة قصدوا الظفر بما فيها من مال قصاصا لما أخذ منهم من أموالهم ، ونسأل : أفلا يباح لهم ذلك ما دامت حالة الحرب قائمة بين الطرفين ؟ بل ما دامت الحرب معدة من جانب قريش وقائمة بينهما ؟ أظن أن الجواب : نعم .

ومع ذلك ماذا حدث ؟ لا خلاف بين الجميع من مسلمين وأوربيين ومستشرقين بأن السرية التي أرسلت لم تفز بالقافلة وكان يمكن أن يتبى الأمر عند ذلك ، ولكن قريشا نادى بالنفير وخرجت من مكة بقضها وقضيضها تبغى المدينة محاربة المسلمين والقضاء عليهم في عقر دارهم التي هاجروا إليها . فهل حرج المسلمون إلى مكة ليهاجموا قريشا ؟ كلا . فم يكن موقف المسلمين إذن في عروة بدر إلا موقف المدافع عن نفسه ، وكانت الحرب من جانبهم حربا دفاعية لا هجومية .

كان جيش المسلمين في عدته وعدده ثلث جيش قريش ، ولما علم السى بمقدم قريش حرج للقائهما حارح المدينة فالتقى الجمعان في بدر ، وهي

أقرب للمدينة منها إلى مكة . وكان المسلمون يتعقبون الإبل لكل ثلاثة بعير
بينما قدمت قريش بخيلها وغيلاها .

وأخذ الرسول يسأل ربه النصر الذي وعده إياه ويقول : « اللهم إن
تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض » . فنصر الله المسلمين على قتلهم
ودارت على أهل البعي والعدوان الدائرة وقتل من كبارائهم الكثير . ومع
ذلك فلم يخرج المسلمون للقتال إلا بعد أن أذن الله لهم بذلك في أول آية
نزلت من آيات القتال : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على
نصرهم لقدير ﴾ (١) . فأذن الله للمسلمين والترحيص لهم في الحرب كان
معللا بأنهم يُقاتلون من قريش ، وأن القتال من جانب قريش كان ظلما
وبعيا وعدوانا ولم يكن حربا مشروعة . وبقيّة الآية جعلت الكثيرين
يدهون إلى أن الإذن بالقتال جاء معللا بما وقع من قريش من إخراج
المسلمين من ديارهم ، وهذه البقية تحرى كالاتى مع ما قبلها : ﴿ أذن للذين
يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من
ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (٢) . والرأى عندى وهو ما
أجتهد فيه أن عجز الآية جاء وصفا وبيانا للذين ظلموا فقال إسمهم هم الذين
أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وتبقى علة القتال في صدر الآية بأن غيرهم
بدأهم القتال ظلما فلا بد لهم من رد هذا القتال دفاعا عن أنفسهم واتباعا
لسنة الله منذ بدء الحقيقة بأن يتعين عليهم دفع هذا الاعتداء بمثله : ﴿ ولولا
دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت صوامع وبيع وصنوات ومساجد
يدكر فيها اسم الله كثيرا ﴾ (٣) ، وراى الله سبحانه في الآيات ما ثبت به عزائم

المعتدى عليهم حين أباح لهم دفع هذا العدوان بقوله : ﴿ وليصرن الله من يصره إن الله لقوى عزيز ﴾ الدين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿ (١) .

وقيل أيضا إن الآيات الآتية نزلت في قتال قريش وهي : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتلوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٢) .

ولنقف عند هذا الجزء من الآية ونكرر قراءته حتى لا يتخالطنا شك بأنها أمرت بأن يقاتل المسلمون من يقاتلهم وعلى الرغم من وضوح المعنى في الحممة الأولى إلا أنه أراد توكيده بعبارة أخرى فقال ولا تعتلوا أى لا تبعدوا بالعدوان ولا تحاوروا في قتالكم الخد الكافي لرد العدوان ، ويؤيد هذا المعنى حديث الرسول حيث سئل عن قتل من ألقى سلاحه وأدير ممن بدأنا بالقتال بقوله : « ولا تقتلوا مدبراً » . وأراد الله أن يستوثق على عباده في هذه الأوامر فأرجع الأمر إلى العقيدة فقال : ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . وتساءل بعض المسلمين عما إذا كان يحسنهم أن يطأوا مكة بعد أن نصرهم الله في بدر مع أن في مكة المسجد الحرام الذى لا يحل فيه قتال ولا بغى ولا ظلم وخصوصاً وقد ورد في القرآن : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾ (٣) . ومن راودته هذه الفكرة كانت ردا على قدوم قريش إلى المدينة وحرب المسلمين في عقر دارهم ، فرد الله على هذا التساؤل بأن ذلك مباح للمسلمين على شرط أن يبدأ المشركون بالعدوان .

ويحد ذلك في قوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقتهموهم وأخرجوهم

من حيث أخر حركم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين * الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴿١﴾ .

وهناك آية أخرى في سورة النساء سجلت استغاثة المسلمين الذين لم يقدرُوا على الهجرة من مكة حيث بلغ بهم الأذى والعدوان أن كانوا يسألون الله لإخراجهم من هذه القرية الطالم أهلها . وجاء تسجيل هذه الاستغاثة في قوله تعالى تسجيلا لا اعتداء فريش وتأيدا لما نزلت به آية الإذن بالقتال من إباحة رد الاعتداء بمثل ، ويعرى قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الطالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا وجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ ﴿٢﴾ .

وإلى هنا لم يأت الله للمسلمين بمحاربة أحد لإحاراه على الإيمان ، ولم يأذن بحرب أحد من الخزيرة العربية سوى فريش لدثها بالعداء والأذى ومحاربة الدعوة بكل الوسائل ومنها الحصار والحرب وراح الأستاذ على على منصور يقرر أن غزوة أحد عدوان جديد من فريش وأنها كانت من جانب المسلمين حربا دفاعية عن النفس . وكان الإمام الثوري يقول : القتال مع المشركين ليس بفرص إلا أن تكون البداية

منهم ، وحيث يجب قتالهم بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ (١) .

وذكر الأستاذ على بن منصور أن غزوة الخندق استمرار لحالة الحرب المعلنة من جانب قريش وتحالف معهم فيها بقية القبائل والأحزاب ، وذكر أن حروب النبي الثلاثة لليهود كانت مشروعة في لغة القانون لدولي الحاضر لنقصهم العهد بعد الأخرى واعتدائهم على المسلمين .

كانت غزوة الخندق دليلاً قاطعاً على تحالف المشركين في الجزيرة العربية وأهل الكتاب من اليهود على القضاء على الإسلام والمسلمين . وأعلنوها حرباً شاملة وحاربوا مجموعهم إلى المدينة مردهم الله عنها وكفى الله المؤمنين القتال . وكانت آيات لقتال قبل ذلك إذنا من الله بمحاربة قريش رداً لعدوانها ، أما بعد الخندق فتحتم أن يكون حرب المسلمين للمشركين في الجزيرة كافة لقاء ما بدعوا به . وقد أثبتت الحوادث التي قبل غزوة الخندق وبعدها بأن منهم قوماً مردوا على النفاق والفتنة ونقض العهود وتآلب القبائل على حرب المسلمين وهم اليهود ، ومن مشركي الجزيرة مردعوا بالعدوان وهم قريش طمعوا في الدين وبدعوا المسلمين أول مرة بالأذى والعدوان والإحراج من مكة بعد الحصار ، وبدعوا بأول حرب ضد المسلمين . وها هي ذي عظمان وقيائل المشركين الأخرى بدعوا المسلمين بحرب الأحزاب والتحالف مع قريش بعد أن كانوا تاركين الإسلام وشأنه وتاركين للنزاع الذي بينه وبين قريش فكانوا محايدين بلعة العقه الدولي الحديث ، أما وقد تركوا حيادهم وحالفوا على قتال الإسلام مشركي

الجزيرة فأذن الله لمحاربة المشركين كافة بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (١) .
ويقول في سورة التوبة أيضا مشيرا إلى اليهود الذين نكثوا عهدهم وطعوا في دين الإسلام ، ومشيرا إلى قريش الذين هموا بإحراج الرسول ، ومشيرا إلى أن جميع الأحراب بدعوا بالحرب ضد المسلمين بقوله : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر بهم لا أمان لهم لعلمهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإحراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشوهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) .

وفي سورة التوبة أيضا آيات يوجه طاهر النص فيهما أحدهما أمر من الله بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر من أهل الكتاب ، وأمر بقتال الكفار أيما وجدوا ، وقال بذلك كثير من الفقهاء أخذوا بطاهر النص وأولاهما قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الدين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (٣) . ويرد الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمود شلوت هذا الطل بما معناه أن الآية تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة صفتها أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وهم الذين سبق أن نقضوا العهد وانقضوا على الدعوة . فعدم إيمانهم ليس سببا لقتال المسلمين إياهم بدلالة أن الآية في بقيتها أمرت بقتالهم حتى يعطوا الجزية علامة على الخصوع واشتركا في دفع النفقات العامة وأعباء الدولة ، ولو

كان الكفر سببا في قتالهم لجعلت غاية القتال إسلامهم ولما سمح لنا بقبول الحزبية منهم . فهم لا يقاتلون لجرد أنهم كفار بل لأنهم نقضوا العهد وأعلموا الحرب علينا مرة بعد الأخرى فوجب الاستمرار على قتالهم حتى يعطوا الجزية .

أما الآية الثانية التي أثار كثر من اللبس فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) فظاهر النص فيها يوجه بأن المسلمين أمروا بقتال جميع الكفار أينما كانوا سواء بدعوا بالعداء والحرب أم لا . ويرد فضيلة الأستاذ الأكبر هذا الرعم أيضا بما معناه أن الآية جاءت إرشادا للمسلمين بسوع من نظام الحرب وهو ما يسمى اليوم بتكتيك الحرب ، وذلك أنهم إذا أرادوا حرب من بدعوههم بالحرب والعدوان من المشركين الذين أدنوا بقتالهم كافة ، فيجب أن يبدعوا بالحرب الأقرب حتى يخلوا طريقهم ويأمروا معاجاة العدو من الخلف إن هم بدعوا بحرب الأبعد ، وهذه هي الطريقة المثلى في الحروب العصرية أيضا وهي ما تسمى بعدم ترك جيوب عدائية حلف الجيش الراحف . وقد علق الأستاذ الأكبر على ما ذهب إليه الفقهاء من تفسير يخالف ذلك بقوله : « قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر الآية : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ ، وزعم أن الدين الإسلامي يأمر بقتال الكفار عامة سواء أحصل منهم اعتداء أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويديروا بالإسلام ، وقالوا : وقد استقر الحكم في الشريعة على ذلك . والواقع أن المراد من كلمة الكفار في الآية ونظائرها المشركون

المحاربون الذين قاتلوا الإسلام والمسلمين واعتدوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وورقوا فتنة للناس في دينهم وهم الذين تحدثت عن أخلاقهم الآيات الأولى من سورة التوبة .

وكذلك المراد من كلمة « الناس » الواردة بالحديث : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » . فإن الذي يتوقف على ما ذكر في الحديث هم مشركو العرب خاصة ، أما غيرهم فيكفى في انتهاء قتالهم أن يعطوا الجزية وبهذا تتفق الآيات مع بعضها وبجمع بينها وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل »

وانتهى الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت إلى إيجاز بحثه في رسالته إلى الأمور الآتية :

١ — أنه لا توجد آية واحدة في القرآن تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام فرض لحمل الناس على اعتناقه .

٢ — أن سبب القتال ينحصر في رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين .

٣ — أن الإسلام حينما شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار وإدلال الصغفاء وابتغاء طريق إلى الإسلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة .

٤ — وأن الجزية لم تكن عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هي دلالة الخصوع وكف الأذى والمشاركة في حمل أعباء الدولة .

وأضاف الأستاذ الأكبر أن ليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام أو يسيء فهم آيات القرآن فيزعم ما يزعم الجاهلون من أن الإسلام قرر

القتال طريقا لدعوته ووسيلة للإيمان به ، وانتشرت تلك الدعوة على أساس من الضغط والجبر والإكراه .

ويقول الإمام تقي الدين بن تيمية : « إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجبا على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين لإعانتهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ ^(١) . وكما أمر النبي ﷺ — بصر المسلم وسواء أكان الرجل من المرتقة للقتال أو لم يكن ، وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه وماله مع القلة والكثرة والمشى والركوب ، كما كان المسلمون لما قصدتهم العدو عام الحديق ، ولم يأذن الله في تركه أحدا أذن في ترك الجهاد ابتداء لطلب العدو الذي قسمهم فيه إلى قاعد وحارح ، بل دم الذين يستأذنون النبي ﷺ — يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ^(٢) » .

ويقول الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتابه « حقوق الإنسان في الإسلام » يعد أن تحدث عن الحرية السياسية في الإسلام والحرية العسكرية والحرية العلمية : « وعلى هذه الأسس السمحة النبيلة سار الإسلام حيال النوع الثالث من أنواع الحرية وهي الحرية الدينية وحرية العقائد ، فلم يلبث الإسلام أن استقر وتبسط للناس تعاليمه حتى قرر هذا الصدد ثلاثة مبادئ هي أرقى ما وصل إليه التشريع الحديث بصدده حرية الأديان والمعتقدات :

أحدها أنه لا يُرغم أحد على ترك دينه واعتناقه الإسلام ، وفي هذا يقول

(٢) الأحراب ١٣ .

(١) الأنفال ٧٢ .

الله تعالى . ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من العي ﴾ ^(١) . وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في حروبهم مع أهل الأديان الأخرى فكانوا يسيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة ، وكانوا مقابل ذلك يحموهم ضد كل اعتداء ويحترمون عقائدهم وشعائيرهم ومعابدهم ، وفي هذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه في كتابه لأهل بيت المقدس عقب فتحه له : « هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم لا يكرهون على دينهم ولا يضر أحد منهم » .

والمبدأ الثانى الذى سبه الإسلام هذا الصدد هو حرية المناقشات الدينية ، ولذلك ينصح الله تعالى المسلمين أن يلتزموا جادة العقل والمنطق في مناقشتهم مع أهل الأديان الأخرى وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الحجة بالحق والدليل بالدليل ، وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً رسوله عليه السلام . ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ ^(٢) . ويقول مخاطباً أهل الأديان الأخرى : ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ^(٣) . ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ ^(٤) . ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات اثبتوا بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ ^(٥) .

(٢) البقرة ١٢٥ .

(٤) الأنعام ١٤٨ .

(١) البقرة ٢٥٦ .

(٣) البقرة ١١١ .

(٥) الأحقاف ٤ .

وكان الخلفاء من بنى العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون يتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق ، فيناقشون في شئون العقائد ويوازنون بين الأديان كل يدلي بحجته ويبين رأيه في حرية وأمن واطمئنان . ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم .

والمبدأ الثالث الذي وضعه الإسلام بهذا الصدد هو أن الإيمان الصحيح هو ما كان مسبعا عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع ، وبذلك حطم الإسلام القواعد التي قام عليها التدين في كثير من الأمم من قبله وهي قواعد التقليد والاتباع وإهمال النظر والتمكير الحر ، وأهاب بالأس أن يجعلوا عمادهم في عقائدهم وبشر دينهم الدليل العقلي والمنطق السليم ، ودعا إلى النظر والتفكير وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل ، ومن ثم ذهب كثير من علماء التوحيد إلى أن إيمان المفلد غير صحيح ، وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغصام جانب النظر والتمكير ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلِ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢)

ويقول الإمام الشيخ محمد عمده : « إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل ديه وعرفه بنفسه

حتى اقتنع به ، فمن رى على التسليم بغير عقل وعلى العمل — ولو صالحا — بغير فقه فهو غير مؤمن ، فليس القصد من الإيمان أن يدلل الإنسان للحير كما يدلل الحيوان بل القصد أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يعقده أنه الخير النافع الموصى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مصرته .

ويقول ابن تيمية : في « رسالة القتال » في تفسير الآية : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ ^(١) أنه نص محكم وجمهور السلف على ذلك ، وعلى أننا لا نكره أحدا على الإسلام وإنما نقاتل من بدأنا بالحرب ، فإن أسلم عصم دمه وماله وإذا لم يكن من أهل القتال لا يقتله ولا نكره أحدا على الإسلام . وأضاف ابن تيمية : إنه من الثابت المقرر أن السي — ﷺ — قد أسر من المشركين فمهم من فداه ومهم من أطلق سراحه ولم يُكره أحد على الإسلام ، ولو كان القتال لأجل الكفر ما كان هؤلاء إلا السيف ، والقرآن خير المسلمين حين يشخون في الأعداء بين المس عن الأسرى أو القداء . ويقول الأستاذ الشيخ محمد أبو رهرة : « اتفق جمهور من العلماء على أن الباعث على انتال هو رد الاعتداء ، وقرروا أن ماط القتال الاعتداء فلا يقتل شخص لكرهه إنما يقتل لاعتدائه على المسلمين أو على الإسلام . ورعم ذلك قرر بعض الشافعية أن سبب القتال هو الكفر رغم النصوص القطعية التي لا تقبل التأويل .

وكان — ﷺ — يوصى أمراء الحند بتقوى الله وبمن تحنهم من الحند ثم يقول :

— اعزوا باسم الله وفي سبيل الله ، اعزوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا
معدروا ولا تمثلوا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث
حصال فأيتهم أحابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام
فإن أحابوا فاقبل منهم ، وإن أبوا وأرادوا البقاء على دينهم فاسألهم الجزية
فإن أحابوك فاقبل منهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقتلهم » .

ومصدر هذا القول أحاديث كثيرة منها ما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل
عن ابن عباس : « اخرجوا باسم الله تقانون في سبيل الله ، لا تعدروا ولا
تعلموا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » . وما أخرجه
أبو داود عن أس بن مالك قوب الرسول . « اطلقوا باسم الله وبالله لا
تقتلوا شيخا قايما ولا طملا صغيرا ولا امرأة ولا تعلموا وقسموا عثائمكم
وأصلحوها وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » .

ويقول الأستاذ علي منصور : « يجب أن نفهم هذه الوصايا وتخيير
الأعداء بين خصال ثلاث إنما يكون في حرب مشروعة لنا بعد أن يبدعونا
بالعداء والقتال ، والمقصود بالتخير إعلامهم أولا : بأننا سترد اعتداءهم
وقتلهم بحرب حتى لا يأخذهم على عرة . وثانيا : أن الإسلام لا يود إراقة
الدماء ولو لمعتد ، فإن كف عن عداوتنا ودخل في ديسافهو ما وإن كف
عن العدوان ولم يرد إلا البقاء على دينه فله ذلك ما . ولكي نأمن من شره
يجب عليه أن يسرح جيشه ويلقى سلاحه وتتكفل الدولة الإسلامية
بالدفاع عنه وفي مقابل ذلك يدفع بمقاتل الدفاع وهي الجزية . وقد أول
البعض هذه الأحاديث عن النبي بأنها أمر بمحاربة الكفار ولو لم يبدعوا
بعداء وهذا خطأ واضح » .

لم تكن الحرب أصل الصلة بين المسلمين وغيرهم من الدول ، وقد

سلكت الدعوة الإسلامية طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان السلم هو أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (١) . فالأمر بالدخول في السلم واجب على المسلمين جميعا وبعبارة لا يتحقق إيمانهم بالله ، ومن أجل هذا السلم العالمي فإنه يكون قد عصى الله واتبع خطوات الشيطان . ويقول القرآن أيضا : ﴿ وَإِنْ حَنَحُوا فَأَجِزْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢) . والمعنى أنه لو بدأنا حربا بالاعتداء ، فرددنا الاعتداء بمثله وحاربناه ففي أى وقت يجح العدو إلى السلم نحنج معه ، وقال تعالى أيضا : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عُرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَامٌ كَثِيرَةٌ ﴾ (٣) . فمن سلمنا ولو كان غير مؤمن بدينا سلمناه فلا نخاربه ابتغاء المعام وعرض الحياة الدنيا . ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنْ اعْتَرَلَوْكُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٤) .

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب للجهاد على الدوام فيشجع على الرماية ويسر حينا يرى شباب الإسلام يتعلمها ، روى البخارى عن سلمة ابن الأكوع رضى الله عنه قال :

— مر السى — ﷺ — على نفر يتصلون فقال : ارموا بى إسماعيل فإن أباهم كان راميا .
وقال — ﷺ :
.

(٢) الأنفال ٦٢ .

(٤) النساء ٩٠ .

(١) البقرة ٢٠٨

(٣) النساء ٩٤

— من علم الرمي ثم تركه فليس منا .
و لم ينس — صلوات الله عليه وسلامه — صناعة الأسهم وأجر صانعها
فقال :

— إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في
صنعه الخير ، والرامي به ، ومبيله .

يبدأ أن رسول الله — ﷺ — لم يكن ليبدأ بالعدوان فقد أوحى إليه أن
الله لا يحب المعتدين ، فكان يقول لمن يوجه لقتال من اعتدوا عليهم :

— لا تقاتلوهم حتى تدعوهم للإيمان ، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى
يقاتلوكم ويقتلوا منكم قتيلًا ، ثم أروهم هذا القتل وقولوا لهم هل لكم خير
من ذلك بأن تقولوا لا إله إلا الله ، فلأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً
خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت .

كان الإسلام يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة ، وما شهر سيفاً
ولا صوب رمحاً لقهر الناس على الدخول في دين الله ، وقد علمهم ربهم أنه
لا إكراه في الدين .

ولقد جاء في رسالة لسالارار الذي كان أسقفاً لمانبلا عاصمة الفلبين
وضعها عام ١٥٩٠ مندداً بالقوة التي يلجأ إليها المبشرون الإسهاس
والبرتعال فيقول :

— إن الوعظ والبنديقية في يد الواعظ وسينة سيئة لتبشير ، والوسيلة
المثلث ما يتبعه الوعظ المسلمون فقد جاءوا بغير سلاح مزودين برسالة
السلام والإيمان والوداعة والقوة الحسنة فاستقبلت الشعوب دين محمد
أحسن استقبال .

ويقول جييون :

— إن السلام الذي نشر لواءه بين المسلمين والمسيحيين أكثر من أربعة

قرون كان مؤسساً على تسامح الإسلام وتعاليمه نحو الخير والسلام .
وقد يقول قائل : إن القتال في أيام الرسول صلوات الله وسلامه عليه
— كان محرماً حتى يقوم سببه وهو الاعتداء ، مما بال الحروب الطاحنة
التي نشبت بين المسلمين وبين الروم والفرس ؟
كانت عواطف المسلمين الأوائل مع الروم لأهم في الأصل أهل دين
سماوى هو « الإنجيل » ، ولذلك حزنوا لما علمهم الفرس وقال سادات
قريش للمسلمين :

— أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس على دين واحد ، وهذا
دليل على أن دينا هو الحق وأنا سنتنصر عليكم .

وقد أنزل الله تعالى . ﴿ أَمْ * غَلَّتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ
بَعْدِ عَلَيْهِمْ مُّسِيلُونَ * فِي بَصْعَ سَيِّئِ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ
يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بَصُرَ اللَّهُ يَبْصُرُ مِنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

وقد راهن أبو بكر عتبة بن ربيعة على ذلك ، وقد انتصر الروم على
الفرس وحاءت أثناء هذا الانتصار بعد أن انتصر المسلمون على كفار قريش
في بدر ، وكان ذلك سبباً في غضب كسرى لما أرسل إليه النبي — ﷺ
— رسولا يدعوه إلى الإسلام فإنه مزق الكتاب ولم يعترف بنبي الإسلام
عليه السلام رئيساً للدولة الإسلام ، بل اعتبره ناثراً على المحوسية والثنية
وأمر بأن يسير إليه جيش على رأسه باذان حاكم اليمن من قبل فارس ليأبيه
برأسه ، فكانت الفرس هي البادئة بإعلان الحرب على نبي الإسلام
والمسلمين .

وقتل شرحبيل الغساني الحارث بن عمير الأردى الذى يحمل كتاب الله إلى أمير بصرى ، وليس هذا فحسب ، بل إن نصارى الشام ممن كانوا على الولاء للرومان قتلوا بعض من أسلم من القبائل المحاورة لها . ويقول الإمام ابن نيمية فى رسالة القتال . « وأما النصارى فلم يقاتل النبى أحدا منهم حتى أرسل رسه إلى قيصر والمقوقس والنجاشى وملوك العرب بالشرق وبالشام فدخل فى الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل ، فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من قد أسلم ، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين أولا وقتلوا من أسلم منهم بغيا وظلما ، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد — ﷺ — سرية أمر عليها ريد بن حارثة ثم جعفر ابن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤنة من أرض الشام ، وجمع على أصحابه خلق كثير من النصارى قتل منهم مائة ألف ، واستشهد أمراء الحمد رضى الله عنهم واحدا بعد الآخر فأخذ الراية خالد بن الوليد » .

وقال الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت فى هذا الصدد فى رسالة السلم والحرب ص ٦٦ : « بعد أن قتل شرحبيل رسول رسول الله عند مؤنة فى الشام توقع متنصرة العرب أن المسلمين لا بد أنخذون بهذا الثأر ، وحشدوا من الروم ومن نصارى العرب فى الشام حشدا عظيما يستأصلون به شأفة محمد وصحبه . فلما علم الرسول بذلك جهز جيشا لحماية الدعوة ولتأمين المسلمين هناك على أنفسهم . وما كاد يصل جيش المسلمين إلى المكان الذى قتل فيه رسوله وحامل كتابه حتى وجد حشد الروم فاشتبك الجيشان فى قتال ، ولكثرة عدد الروم ونصارى العرب كاد يحاط بالمسلمين بولا مكيدة حربية ألهم الله لها خالد بن الوليد ، ما نجا من

المسلمين أحد . ثم تتابعت الأخبار بأن الرومان جمعوا جموعاً عظيمة وعزموا غزو المسلمين ، فتحهر النبي وخرج إليهم على حدود الجزيرة الشمالية أى على حدود دولته . وما إن وصل إلى تبوك حتى تراجع جيش الروم وتعذر عن عزمه ، فأقام الرسول بتبوك أياماً وصالح بعض الأمراء ثم عاد إلى المدينة .

وأثناء مرضه علم بتجهزهم من جديد ، فحضر جيشاً تحت إمرة أسامة ابن زيد . ولما قبض الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الخليفة الأول أبو بكر بتسيير هذا الجيش ونوبات بعد ذلك الحروب بين المسلمين والروم . كان الفرس الباطنيين بالعدوان وكان الروم الباطنيين بالعدوان ، فكانت الحروب بين المسلمين وبين الفرس والروم حروباً مشروعة للدفاع عن كيان الدولة الإسلامية ، ثم سارت بعد ذلك لحماية حق مشروع للدولة هو تأمين الدعوة وإخماد الفتنة ورد الاعتداء .

وماد بعد صدر الإسلام ؟ يقول الأستاذ أبو رهرة : « إن الإسلام بعد أن طهر وانتشر وقاتل المؤمنون الأولون من اعتدى عليهم واستحلصوا الشعوب من المموك ولأمراء المستبدين بما نادى من حرية ومساواة وكفالة اجتماعية ، أخذ هؤلاء ينظرون إلى هذا الدين نظرة عداوة لأنه يحترم الفرد ويحرر الشعوب ويحمي الحريات ويقرر المساواة ، وتلك مبادئ لا تتفق مع الملكية المطلقة التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، فزع الملوك جميعاً عن قوس واحدة وأحدوا يقاتلون المسلمين أيما كانوا وحيثما وجدوا بكل الوسائل . فكان لا بد أن يقاتلهم المسلمون بما قرره القرآن : ﴿ فس اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ^(١) ، وأن ذلك لا

يخالف الأصل المقرر الثابت وهو أن القتال في الإسلام محرم حتى يقوم سبه وهو الاعتداء .

وكانت وصايا الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين أير وأرحم من كل ما يحتوى عليه القانون الدولي العام منصوص به أمال الفقهاء والحالمين ، فقد كان عليه السلام يوصي أمراء الحند بعدم الغدر والتمثيل وقتل الولدان وأصحاب الصوامع ، وقد سار خلفاؤه الراشدون على سبته فأبو بكر يوصي أسامة بن زيد فيقول . « لا تخونوا ولا تغفلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمائكة ، وسوف تمرر على قوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . »

وأوصى يزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام فراد على وصيته السابقة قوله : « ولا تقاتل محروحا فإن بعصه ليس منه . أقلل من الكلام فإن لك ما وعى عك ، واقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله في سرائرهم ، ولا تحبس عسكري فتفصحه ، ولا تهمله فتفسده ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه . »

وكان عمر بن الخطاب يقول عند عقد اللواء لأمير الحند : « بسم الله . على عون الله مضوا بتأييد الله ، ولكم النصر بلزوم الحرب والصبر . قاتلوا ولا تعتلوا إن الله لا يحب المعتدين ولا تحنوا عند اللقاء ولا تمثلوا عند القدرة ولا تسرفوا عند الطهور ، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الفرسان وعد حمة النبضات وفي شس العارات . نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بأرباح في البيع الذي بايعتم به

وذلك هو الفوز العظيم .

أمر رسول الله ﷺ — بأن لا نقاتل غير المقاتل ، فنبى عن قتل النساء والشيوخ والدربة . وكتب إلى خالد بن الوليد : « إنه لا يصح قتل العسفاء (العمال الذين يرعون الأرض ويرعون المواشى) » . وقال عليه السلام : « ليس منا من انتهب أو سلب أو أشار بالسلب » . وإن الإسراف في القتل مهيى عنه لأنه مجاور للحد الكافى لدفع العدوان . وهذا عمر بن الخطاب يدينه عدد القتلى الذين قتلهم خالد بن الوليد من جيوش الأعداء فيبوله الأمر ويعزله من قيادة الجيش ويولى مكانه أباً عبيدة بن الحراح ، ويقون عن عزل خالد : « إن في سيف خالد لرهقا » . ويستحس عمر بن الخطاب طريقة اللين والرفق التى يتبعها عمرو بن العاص في حربه مع أهل مصر حيث وزع جيشه سرايا على القرى يعقدون المواعيد ولا يقاتلون ، فيقول عمر بن الخطاب في ذلك : « تعجسى حرب ابن العاص ، إنها حرب رفيقة » .

وإن خالد بن الوليد الذى كان في سيفه رهق كان إذا عاهد أعداءه بعد هزيمتهم لا يحد عن روح الإسلام بل يعاهدهم في حرية وبلا تهديد ، يرحم صعيقهم ويضع الحرية عن فقيرهم بل يفرض له نفقة من بيت المال . ولنظّر كيف عاهد أهل الحيرة بعد أن فتحها : « هذا ما عاهد عليه خالد ابن الوليد نقيب أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل كل سنة جزاء على أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسسمهم إلا من كان منهم على غير دى يد حيسا عن الدنيا ناركا لها ، وعلى المعة وإن لم يجمعهم فلا شىء عليهم حتى يجمعهم . وجعلت لهم أبما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات .. إن كان عيا اختقر

وصار أهل ديه يتصدقون عليه طرحت حربه وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار اهجرة ودار الإسلام .

وهذا ما صالح عليه عمر بن الخطاب أهل بيت المقدس : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولعائلاتهم وصلاتهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنقص منها ولا من حيرها ولا من صلهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يصار أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الحرية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يحرروا منها الروم واللصوص ، فمن حرج منهم فإيه من على نفسه وماله حتى يلعوا ما أمهم ، ومن أقام منهم فهو من وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الحرية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويحلى بيوتهم حتى يلعوا ما أمهم ، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منه قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من حرية ، ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله ، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في الكتاب عهد الله ودمة رسوله ودمة الخلفاء ودمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عيهم من الحرية » .

وكتب المستشرق الإنجليزى « ستيفن رانسمان » عن العوامل التى مهدت للفتوح الإسلامية : « نستطيع أن نقول إن السهولة التى لاهاها المسلمون فى استيلائهم على هذه اساطق التى استولوا عليها ترجع إلى ذلك الضعف الذى انتاب الإمبراطوريتين الرومانية والمارسية وإلى عدالة المسلمين فى حكمهم ، وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم

يحاول أهلها رخصتهم عنها وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم . فعندما سمع المصريون بما يفعله المسلمون ببلاد الشام أبدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجري هناك وتموا أن يعجل المسلمون مهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذي يروحون تحته .

وقد ذكر الكونت « هنري دي كاسترو » في كتابه « الإسلام حواطر وسوانح » : « إن محاسن المسلمين للمسيحيين رادت في بلاد الأندلس حتى صار سكانها في حالة أهأ من التي كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول دورى : « إن هذا الفتح لم يكن للأندلس مفر منه وما حصل من الاضطرابات والهرج بعده لم يلبث أن رال باستمرار الحكومة الإسلامية في تلك البلاد ، وقد أبهى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء ، وكثيرون مهم تولوا قيادة الجيوش .

وتولد عن هذه السياسة الرحيمة أن انحار عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسمير وحصل بينهم زواح كثير . وكم من أندلسي بقي على دينه ولكنه أعجته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة العربية وآدابها ... وأصبح القساوسة يلومونهم على ترك شعائر الكنيسة والتعلق بأشعار العائحين .

وقال جوساف لوبون في كتابه : « حضارة العرب » إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من المسلمين . وقال : « كان أول ما بدأ به ريتشارد قلب الأسد الإنجليزي أنه قتل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقق دمائهم ، ثم أطلق نفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صلاح الدين الأيوبي السيل (غزوة الحديق)

الذى رحم بشارى القدس فلم يمسه بأذى . والذى أمد فيليب قلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأرواد أثناء مرضه . إن الهوة سحيقة بين تفكير الرجل المقدس وعواطفه — يقصد صلاح الدين — وبين تفكير الرجل المتوحش ونزواته .

ويقول يورجا المؤرخ الأوروبى فى كتابه : « تاريخ الحروب الصليبية : » ابتداء الصليبيون سيرهم على بيت المقدس أسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها ، وقد أسرفوا فى القسوة فكانوا يبقرون البطون ويحشون عن الدنانير فى الأمعاء . أما صلاح الدين عندما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهادرأفتهم حتى إن الملك العادل شقيق السلطان أطلق ألف رقيق من الأسرى ومن على جميع الأرمس وأذن للبطريك بحمل الصليب وريثة الكنيسة ، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن .

ويشيد يورجا بخصال الملك الكامل حينما حاصر الصليبيين فى واقعة دمياط ، فقد نقل على لسان أحد الصليبيين الذين شهدوا المعركة شهادة صدق حيث قال : « هؤلاء الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم ونساءهم بشتى الطرق وسلباهم أموالهم وأخرجناهم من منازلهم عراة تداركونا وسدوا خلجانا وأطعمونا بعد أن أهلكنا الجوع ، وما زالوا يحسبون إلينا حتى غمرونا ببرهم وإحسانهم لما كنا أسرى فى ديارهم وفى قبضة يديهم ، فلو صاع لأحدنا شيء لما أبطأ أن رد إلى صاحبه »

وقال الأستاذ عى على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » عند الحديث عن أثر الإسلام فى القانون الدولى العام

الأوربي : عقيدة التوحيد وليدة الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿ صبعة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ (١) . ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾ (٢) . وبارئ الكون كان ينزل من الأحكام والشرائع على لسان الرسل بقدر وبحسب حاجة من أرسل إليهم هؤلاء الرسل من طوائف البشرية . وكل الأديان التي سبقت الإسلام لم تكن عامة ، بل كانت مخصصة بالمكان وبالقوم الذين نزلت عليهم كقوم هود ولوط ويونس الذي أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون ، وشاركت كلها في الدعوة إلى الوحدانية كأساس لكل عبادة ، ثم إلى قواعد أخلاقية وإصلاحية لمعالجة عيوب القوم الذين خصتهم بالخطاب ، إلى أن كان القرن السابع الميلادي حيث بلغت البشرية مبلغا من التقدم والرفق وحسن الإدراك أهلها لتلقى خاتم الرسالات السماوية ، فكانت رسالة محمد بن عبد الله جامعة لخيري الدين والدنيا موجهة إلى جميع العوالم . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٣) . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر اناس لا يعلمون ﴾ (٤) .

والمسيحية — على ما ورد في كتابها المنزل وهو الإنجيل — لم تتضمن تشريع أمور الدنيا ولا تنظيم المعاملات والعقود والعهود بين الأفراد والدول ولا تعداد ما في الكون من آيات طبيعية وعلمية ، وهي — وإن كانت قد وجدت بين دول أوروبا في العصور الوسطى وقربت بينها

(٢) الروم ٣٠ .

(٤) سبأ ٣٨ .

(١) البقرة ١٣٨ .

(٣) الأنبياء ١٠٧ .

وحسنت علاقاتها مما دعا إلى التعاطف ووضع قواعد لصلات دولية كانت الأساس للقانون الدولي الذى اصطلح عليه بين تلك الدول — إلا أنها انتهت بطغيان سلطان الكنيسة على سيادة الدول والإمارات ، والمفروض أن يكون روحيا فحسب ، الأمر الذى اضطر شعوب هذه الدول والإمارات إلى القول بفصل أمور الدنيا عن أمور الدين .

أما فى الإسلام فالأمر على عكس ذلك ، فهو نظام متكامل لا يمكن فصل قواعده بعضها عن بعض ، فهو دين ودنيا ولا يصح فى شرعة الإيمان الأخذ ببعض الكتاب « القرآن » دون البعض . وفيما نحن بصدد هذه من دراسة قواعد القانون الدولي العام أتى الإسلام بنظام كامل لما يجب أن تكون عليه علاقات الدول بعضها ببعض فى حالتى السلم والحرب ، ولكن القرآن على سهجه فيما يختص بأمور الدنيا يكتفى بذكر الأصول العامة ثم يدع التفاصيل لاجتهاد العقل البشرى احتراماً لهذه المنة الإلهية ومسيرة لظروف الزمان والمكان وما تقتضيه من خلاف فى العرور .

ونقد أفاض فقهاء الشريعة الإسلامية فى كتب السير والجهاد وكتب التفسير فيما أتى به الإسلام من قواعد تحكم الصلات لا بين الدول الإسلامية فحسب بل بين جميع الدول فى حالتى السلم والحرب . من ذلك أن الإسلام مشتق من السلام وهو الأصل فى صلات الدول والشعوب ، والحرب وإن كانت طاهرة طبيعية إلا أنه لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى ، وهناك وجب إعلان الحرب وعدم أحد الناس على غرة ، فإذا قامت الحرب فلا يصح قتل الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء ولا المحارب إذا انهزم وأدبر ولا قتل الأسرى ، بل أجاز الإسلام العدا وأجار المريدحل تحتها جواز تبادل الأسرى ، وحرم الإسلام المثلة « التمثيل ببحث القتل » .

ولم تكن الحرب في الإسلام لشهوة الفتح والتوسع . اقرأ قوله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ (١) .

والرأى العالِب أن القرآن لم يسمح للمسلمين بمقاتلة أعدائهم إلا بعد أن يبدعوهم بالعدوان وبعد أن تكرر منهم هذا العدوان ، فالإسلام لم يبح الحرب الهجومية وإنما أباح الحرب الدفاعية . وأول آيات اقتال نزولاً من الله على رسوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (٢) . ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٣) . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (٤) .

وليس بصحيح ما اتهم به الإسلام من أنه قام بحد السيف ، وآيات الكتاب في ذلك كثيرة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٥) . ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٦) . ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (٧) . ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين * لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ (٨) . ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾ (٩) . ولكن أمر الرسول بإبلاغ الدعوة

(١) القصص ٨٣	(٢) الحج ٢٩ — ٤٠	(٣) البقرة ١٩٠ .
(٤) البقرة ١٩٤	(٥) البقرة ٢٥٦	(٦) النحل ١٢٥ .
(٧) يونس ٩٩	(٨) التكوين ٢٧ — ٢٨	(٩) الغاشية ٢٦ — ٢٢ .

بالحسنى إلى جميع الأمم وفي جميع بقاع الأرض : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَنِيُّ قُمْ
فَأَنْدِرْ * وَرَبِّكَ فَكْفِرْ ﴾ (١) . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴿ (٢) .
وأمر المسلمين بعد رسولهم بإبلاغ الدعوة ونشرها بما للناس جميعا من
حق حرية إبداء الرأى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٣) .

فمن قاوم الدعوة — جماعة كان أم دولة — فقد أنجل بحق من أقدم
الحقوق وبدأ بالاعتداء ، فوجبت محاربته حتى يكف عن عدوانه عليها
ومحاربته لها .

فإن كانت للمسلمين الغلبة فللدولة المملوكة أحد أمرين : إما أن تدخل
في الإسلام فيكون لها ما لنا وعليها ما علينا من حقوق وواجبات في مساواة
تامة ، وإما أن تؤثر البقاء على دينها وتترك لدعاتنا حرية الدعوة بالحسنى ،
فلها ذلك على أن تدفع الحزبية مقابل ما تقوم به الدولة الإسلامية من الذود ،
ومشاطرة مها في المصروفات العامة للدولة . وهؤلاء هم أهل الذمة من
الشعوب والأفراد متى كانوا غير وثنيين ، أى متى كانوا أهل دين سماوى
نزل بكتاب معين على رسول معين ولو حرفوه ، أو متى كانت لهم شبهة
كتاب ومثل هؤلاء الجوس فرغم أنهم يعبدون الشمس فقد ورد في حديث
على بن أبى طالب أنه كان لهم كتاب ، وروى عن الرسول ﷺ — قوله :
« سنواهم سنة أهل الكتاب » .

هذا ولا يفوتنا أن نشير إلى أن قاعدة تأمين المبعوثين على أنفسهم حتى
يعودوا سالمين إلى من بعثهم من أمرائهم أو دولهم واحترام حرية السفراء

(٣) آل عمران ١٠٤ .

(٢) المائدة ٦٧

(١) المدثر ١ — ٣

سبق الإسلام بها القانون الدولي الأوروبي : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ (١) . ومفاد الآية أن من خرج من بلاده من المشركين وجاء رسول الله بالرحمة من قيام الحرب والعداوة فلا تقتله وأسمعه يا محمد كلام الله ، أى دعوة الإيمان ، فإن آمن فيها وإلا فله عليك وعلى المسلمين أن تردّه إلى وطنه سالما حيث يأمن على نفسه ، وهناك أيضا تكون له حرية الاختيار لدين الذى يتبعه . وقد اتبع صلاح الدين الأيوبي ذلك فى حربه مع الصليبيين « الفرحة » إذ بالرغم من انتصاره كانوا إذا أرسلوا من يفاوضه فى شروط الصلح أمهم وردهم سالمين على عكس ما كان يفعل إذ ذاك أمراء وملوك الصليبيين مع رسل المسلمين ومعوّثهم إذ كانوا يقتلهم ويقتلون أسرى المسلمين .

صور بعض فقهاء القانون الدولي وكتاب التاريخ فى أوروبا الإسلام فى صورة الدين الذى يقوم على القهر والعلبة وإرادة أن يفرص نفسه على الأجناس جميعا والأديان جميعا قوة واقتدارا ، وقالوا إن الإسلام قد أعلن الحرب على كل الأجناس والملل ، وإنه من المصهوم أن يفترى الأوروبيون على الإسلام أما أن يساق كاتب عربى مثل الدكتور نجيب أرمنازى وراء مزاعم المستشرقين فهذا غير مفهوم .

يقول الأستاذ الدكتور نجيب أرمنازى فى كتابه « الشرع الدولي فى الإسلام » : « ذهب كثير من الفقهاء الذين عاشوا أيام الفتح الإسلامى إلى أن حالة الحرب هى القاعدة عند المسلمين ، وأن السلم ليست إلا هدنة

يستعد بها لاستئناف القتال » .

ويقدر الأستاذ الدكتور : « وإذا وجد الإمام الحريص على سلامة المسلمين ودفع الأخطار التي تهددهم ضرورة المعاقدة على سبم دائم لم يجز له عند الفقهاء أن يفعل ، لأنه إلعاء لفريضة الجهاد ، وكل موادة يعاقد عليها يستطيع بقصها إد راعى قواعد البذ » .

ويذهب الدكتور إلى أب التقسيم الإسلامي من حيث إن العام دار سلام ودار حرب شبيه بالنظام الشيوعي ، إذ تعتبر روسيا الوطن العام لكل شيوعي فهي دار سلام للشيوعيين ، وبقية بلاد العالم حيث الرأسمالية تعتبر دار حرب يجب اتحاد جميع الوسائل للانفصااص عنها والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها

وفي رأي أن الدكتور قد جابه التوفيق حتى إذا ما اقتضى آثار فقهاء المسلمين الذين عاشوا الحروب الطاحنة التي دارت بين المسلمين والدول الأخرى في القربين الثاني والثالث المحرى ، فأيات القرآن الكريم تحصى على السلم وتجعل السلم هو القاعدة ، والحرب لا تنش إلا على المعتدين دفاعا عن النفس وتأمين الحريات العامة للمسلمين .

إن نرا قبلا من كتاب العرب عرف للإسلام حقه وفهم ما فيه من مبادئ قانونية دولية كانت مصدر معظم ما في القانون الدولي الحديث من قواعد ، فالبارون « ميشيل دي كوب » أستاذ القانون الدولي بمعهد الدراسات الدولية بلاهاى بهولندا ذكر الكثير مما سبق للإسلام به القانون الدولي وعلى الأخص في نظم الحرب ، وأورد وصية ألى بكر لجوده الخارحين إلى سوربة وذلك في الجزء الأول من مجموعة دراسات سنة ١٩٢٦ لأكاديمية القانون الدولي ، كما أورد الأوامر التي أصدرها في قرطبة

الخليفة الحاكم بن عبد الرحمن في هذا الشأن سنة ٩٦٣ م أى قبل أن تعمل
الكنيسة البابوية للسلام . ومهم أيضا المؤرخ « سيديو » في كتاب تاريخ
العرب حيث عدد الكثير من فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، وعلى
الأخص في القانون الدولى حيث عدد ما ذكره البارون « دى كوب »
ونقل قوله : « وهذه هي مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التى عمل بها
لتخفيف وطأة الحروب من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد ،
وهي إداد أسبق بأمد طويل على الأفكار والمبادئ القانونية المماثلة والتي
بدأت تشق طريقها خلال الممجية التى استولت على الحياة الدولية
الأوروبية خلال القرن الثالث عشر ، مما يدل على أثر القواعد الإسلامية في
القانون الدولى الأوروبى » .

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد
جعل الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ^(١) . ﴿ وأوفوا بالعهد
إن العهد كان مسئولا ﴾ ^(٢) . ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم
يقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن
الله يحب المتقين ﴾ ^(٣) .

القاهرة في ١٧ / ٤ / ١٩٦٩

المراجع

- القرآن الكريم
 الكتاب المقدس
 صحيح البخارى
 لابين هشام
 للنويرى
 للألوسى
 لالطبرى
 للدكتور على عبد الواحد واق
 لعلى برهان الدين الحبيبى
 للمستشار على على منصور
 لابين تيمية
 المهندس زكريا هاشم زكريا
 للفرالى
 لأبى الأعلى المودودى
 للشيوخ الشيلنجى
 للمواحدى
 ر. ف بودى ترجمة : محمد محمد فرج
 وعبد الحميد جودة السحار
- تاريخ ابن خلدون
 تاريخ الأمم والملوك
 حقوق الإنسان فى الإسلام
 السيرة الحلبية
 الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام
 السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية
 المستشرقون والإسلام
 إحياء علوم الدين
 الدين القيم
 نور الأبهصار فى مناقب آل بيت النبى اختيار
 أسباب الغزول
 الرسول . حياة محمد

لابن كثير

عمدة التفسير

Islam the Religion of Humanity By M. Aly.

Muslim Institutions By Maurice Gaudet-Demombynes.

لابن يوسف

الحراج

الشرع الدولي في الإسلام — دمشق ١٩٣٠ م

للككتور نجيب الأرمنازي

محمد رسول الله

والذين معه

في عشرين جزءا

- | | |
|-------------|---------------------------|
| أكتوبر ١٩٦٥ | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| مارس ١٩٦٦ | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| سبتمبر ١٩٦٦ | ٣ — بنو إسماعيل |
| فبراير ١٩٦٧ | ٤ — العدنانيون |
| مايو ١٩٦٧ | ٥ — قريش |
| يولية ١٩٦٧ | ٦ — مولد الرسول |
| أكتوبر ١٩٦٧ | ٧ — اليتيم |
| يناير ١٩٦٨ | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| مارس ١٩٦٨ | ٩ — دعوة إبراهيم |
| مارس ١٩٦٨ | ١٠ — عام الحزن |
| سبتمبر ١٩٦٨ | ١١ — الهجرة |
| نوفمبر ١٩٦٨ | ١٢ — غزوة بدر |
| يناير ١٩٦٩ | ١٣ — غزوة أحد |
| مايو ١٩٦٩ | ١٤ — غزوة الخندق |
| يونية ١٩٦٩ | ١٥ — صلح الحديبية |
| نوفمبر ١٩٦٩ | ١٦ — فتح مكة |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٧ — غزوة تبوك |
| مايو ١٩٧٠ | ١٨ — عام الوفود |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٩ — حجة الوداع |
| ديسمبر ١٩٧٠ | ٢٠ — وفاة الرسول |

المؤلف

الطبعة الأولى

أحمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
هزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
أبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)		يناير سنة ١٩٤٧
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل بيت النبي		مايو سنة ١٩٤٨
أميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدي السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلمة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المتنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧
أم العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
أذرع وسيفان	قصة	يوليو سنة ١٩٥٨

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٩	مجموعة أقاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجارتي الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيضاء
يوليو سنة ١٩٦٧		وعده الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٥		هذه حياتي
أبريل سنة ١٩٧٥		مذكرات سينائية

القَصَصُ الدِّينِي

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ جزءا	قصص السيرة
في ٢٠ جزءا	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا